الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز




رواية

تأليف: كيران ديساى

# ميراث الخسارة

ترجمة: أحمد هريدى

كيران ديساى، كاتبة هندية.

• ولدت فى الهند عام ١٩٧١.

• تلقت تعليمها الأساسى فى الهند قبل أن تنتقل إلى إنجلترا فى الرابعة عشرة من عمرها لتكمل دراستها ولكنها تركتها بعد عام واحد وإنتقلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتستقر هناك وتدرس الكتابة الإبداعية بجامعة كولومبيا.

• أصدرت روايتها الأولى "صخب فى بستان الجوافة" عام ١٩٩٨ التى لاقت إستحساناً كبيراً فى الأوساط الأدبية... ثم أصدرت ميراث الخسارة التى حازت بها واحدة من أرفع الجوائز الأدبية فى العالم ٢٠٠٦. لتصير أصغر كاتبة تحصل على "المان بوكر".

• أهدت "كيران ديساى" روايتها إلى أمها "أنيتا" التى شجعتها على مواصلة كتابة روايتها فى ظروف صعبة وآمنت بموهبتها. و"أنيتا ديساى" أيضا روائية رشحت للحصول على "البوكر" ثلاث مرات ولكنها لم تحصل عليها.

الجائزة: جائزة البوكر الدولية.

هى الجائزة الأهم فى بريطانيا، وواحدة من أرفع الجوائز العالمية، تمنح للإنجاز الروائى المكتوب باللغة الإنجليزية، تأسست عام ١٩٦٨، بهدف إيجاد نسخة إنجليزية لجائزة الجونكور الفرنسية العريقة وتشجع على قراءة أفضل الروايات فى المملكة المتحدة ودول الكومنولث وسرعان ما صارت من كبرى الجوائز العالمية، تثير الروايات الفائزة بها الإنتباه والجدل الواسع وتحقيق أعلى نسبة مبيعات ويتحول الكثير منها إلى أعمال سينمائية عالمية، كما يتم ترشيح الروائيين الفائزين بها لقوائم جميع الجوائز العالمية الأخرى وعلى رأسها جائزة نوبل للآدب.

# مِيراثُ الخسارة

ديساى، كيران.
ميراث الخسارة: رواية/ تأليف: كيران ديساى؛ ترجمة: أحمد هريدى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.
٤٢٤ ص ؛ ٢٢ سم .
تدمك ٦ ٢١٤ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص.
(أ) ـ هريدى، أحمد. (مترجم)
(ب) ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣١٣٥ / ٢٠٠٩
I.S.B.N- 978 - 977 - 421 - 214 - 6
ديوى ٨٢,٨٠٨

# ميراث الخسارة

رواية

تأليف : كيران ديساى

ترجمة : أحمد هريدى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

• الكتاب: **ميراث الخسارة**

The inheritance of Loss

• تأليف: **كيران ديساى**

Kiran Desai

• ترجمة: **أحمد هريدى**

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلفة للهيئة المصرية العامة للكتاب.



• الطبعة الأولى ٢٠١٠.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

# «سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

- ١ -

أرخت ظلمة الغسق أستارها على مسيرة ضباب اتخذ طوال اليوم شكل مخلوق مائى، يعتلى خاصرة جبال عالية، تلقى بظلالها الداكنة على مياه المحيط العميقة الغور. من خلال الضباب وآخر شعاع ضوء، تكاد تبين قمة "كانشينجونجا" البعيدة العالية من بين رذاذ ثلوج تذروها الرياح.

فى جلستها بالشرفة، كانت "ساى" تقرأ مقالاً حول سمكة حبار عملاقة، فى نسخة قديمة من مجلة ناشيونال جيوجرافيك، ومن حين إلى حين تنظر إلى "كانشينجونجا" وتراقب والرعشة تغمرها ألق الوميض الفوسفورى الساحر. كان القاضى فى تلك الأثناء، يجلس فى الركن البعيد إلى طاولة شطرنج، منشغلاً باللعب مع نفسه، بينما تغط كلبته فى نوم هادئ، أسفل كرسيه الذى يجلس عليه فى اطمئنان.

إلى الخلف، داخل المطبخ، كان الطباخ يحاول فى حذر شديد إشعال الخشب الرطب، وهو يخشى على أصابع يده من العقارب، التى تعيش وتتناسل داخل المستوقد الذى شاهد فيه من قبل عقربًا ممتلئة بالسم وتحمل على ظهرها أربعة عشر من صغارها. قام بوضع الغلاية على قطع الخشب المشتعلة بعناية ودقة فريق من المنقبين عن آثار قديمة، وانتظر حتى يغلى ما بداخلها.

الجدران مشبعة بالماء، وبها آثار حريق، والسيقان الداكنة اللون لثمار الثوم تتدلى من إحدى العوارض الخشبية المتفحمة بعض الشىء والمثبتة بالسقف، وألسنة اللهب تلقى على وجهه قطعًا صغيرة من وهج بلون البرتقال، استشعر الطباخ حرارة فى نصف جسده الأعلى، لكن لسعة برودة أثارت ما يعانيه من آلام فى مفصلى ركبتيه.

إلى أعلى، داخل المدخنة وخارجها، اختلط الدخان بالضباب الذى يتجمع بسرعة وبكثافة، حاجبًا أمامه المرئيات، والأشجار فى الخارج، حوّلها الدخان والضباب إلى ظلال صور تلوح كأطياف غير واضحة المعالم، ثم تختفى تمامًا، وشيئًا فشيئًا بدأ بخار الماء والضباب والدخان يغمر كل شىء، وتلاحقت أنفاس "ساى"، عندما اختفى من أمام ناظريها الرسم البيانى المؤلف من معلومات جادت بها قرائح بعض العلماء، والموجود على صفحة من صفحات مجلة ناشيونال جيوجرافيك.

أغلقت المجلة، واتجهت صوب الحديقة الواقعة على أطراف الغابة القديمة الكثيفة، حيث ترتفع فيها أشجار البامبو إلى نحو ثلاثين قدمًا فى الظلمة الداكنة، التى تبدو من خلالها طحالب عملاقة مدلاة إلى أسفل لا شكل لها. وبينما الضباب الرقيق يداعب شعرها، تذكرت "جيان" مدرس الرياضيات، الذى كان يتعين عليه الحضور قبل ساعة بصحبة كتاب الجبر. لكن بحلول الساعة الرابعة والنصف، أدركت "ساى" أن الضباب الكثيف ربما كان وراء تأخره.

فى اللحظة التى نظرت فيها إلى الخلف، كان المنزل قد اختفى وسط الضباب، وبصعودها الدرج عائدة إلى الشرفة اختفت كذلك الحديقة، وعند إلقائها نظرة إلى القاضى وجدته سادرًا فى نوم عميق، وعضلات جسمه مرتخية، وفمه ووجنتاه فى غير وضعهم الطبيعى، بفعل الجاذبية الأرضية، على نحو يشبه تمامًا هيئة من يفارق الحياة.

- أين الشاى؟

استيقظ القاضى موجهًا سؤاله إليها.

- لقد تأخر عن موعده

قصد بملاحظته الطباخ والشاى، وليس "جيان"

- سأحضره لك

تسلل الضباب إلى الأوانى الفضية وإلى الزوايا والأركان بالداخل، وإلى المرآة المعلقة بالممر. وأثناء

سيرها صوب المطبخ، لمحت "ساى" صورة ضبابية لها فى المرآة، فاقتربت منها لتطبع بشفتيها على سطحها قبلة، قائلة لنفسها وربما لأحد ما: هالو.

لا أحد رأى سمكة حبار عملاقة حية من قبل، ولا أحد كذلك رأى عينيها الكبيرتين اللتين ترى بهما ما تخفيه ظلمة مياه المحيط. وحيدة سمكة الحبار، ويصعب فهم كيف أنها لا تلتقى أبدًا بسمكة أخرى من جنسها. ذلك التفكير فى نزوع سمكة الحبار إلى العزلة، جعل "ساى" تستشعر فى داخل نفسها شيئًا من حزن وأسى.

هل يمكن أن يتحول فى أعماقنا الشعور بما نحققه من إنجاز إلى شيء أشبه بالخسارة والفقد؟ تحت تأثير مشاعر رومانتيكية، توصلت "ساى" إلى أنه يتعين على الحب أن يسكن فى المنطقة الواقعة بين الرغبة والإنجاز، فى موقع الخسارة والفقد، وليس موقع التحقق والاكتفاء، فالحب عندها هو ألم متواصل، ومشاركة، وتراجع، هو كل ما يحيط به، وليس الانفعال به.

***

رفع الطباخ الغلاية من فوق الموقد، وبعد أن أفرغ ما فيها من ماء مغلى فى إبريق الشاى، قال بصوت متألم:

- كم تؤلمنى عظامى ومفاصلى، حتى اننى أفضل الموت، لولا "بيجو".

فى أمـريـكـا، يـعـمل ابـنه "بـيـجـو" مـتـنـقـلاً من مطعم"دون بولو" إلى "ذى هوت توماتو"، ثم إلى "فرايد تشيكين على بابا". لم يستطع والد بيجو تذكر أسماء المطاعم أو نطقها النطق الصحيح أو فهم ما تعنيه، تلك التى عمل بها ابنه متنقلاً من مطعم إلى آخر كالمطارد، بسبب إقامته غير الشرعية.

وهى تـرتـب الأطـبـاق والأكـواب وإبـريق الـشـاى واللبن والسكر وقطع البسكوت فوق صينية تحملها متجهة إلى القاضى، قالت "ساى":

- الجو ضبابى غائم، ولا أعتقد أن المدرس سيأتى

- توخى الحذر

معنفًا، حذرها الطباخ الذى يسير خلفها ممسكًا بوعاء خزفى به لبن للكلبة "مات":

- وقت الشاى

قـالت "سـاى"، والملاعق بـالـصـيـنـيـة تحـدث صـوتًا حـادًا أيـقـظ الـكـلـبـة الـتى دبت الحـيـاة فى عـيـنـيـهـا وذيلها:

- لماذا، لا يوجد شىء يؤكل؟

بعـد أن فـرغ من تحـريك قـطـعـة الـشـطـرنج، ومن الـنـظـر إلى الـسـكـر فى الـوعـاء الـشـفـاف المحـبب غـيـر الـنـظـيـف، والـبـسكـوت الـذى يشـبـه ورق الـكـرتـون المقوى، وآثار داكنة لأصبع على سطح الأطباق، وجد أن تقديم الشـاى له لم يكن بـالـطـريقـة المألوفة، إذ كان يتطلب

الجبن والكعك وشيئًا مملحًا وآخر مسكرًا.. صاح القاضى غاضبًا:

- بسكوت فقط!

قالت "ساى" ردًا على ملاحظة القاضى:

- ذهب الخباز إلى حفل زواج ابنته

- لا أريد البسكوت.. كيف يجرؤ على إغلاق مخبزه من أجل حفل زواج؟.. أبهذه الطريقة يدير هذا الأحمق عمله؟.. لماذا لا يصنع الطباخ شيئًا؟

- نفد الغاز والكيروسين

- عليه اللعنة، لماذا لا يصنع شيئًا باستخدام الخشب؟.. الطباخون جميعًا يمكنهم صنع الكعك فى فرن معدنى باستخدام الفحم.. هل تعتقدين أنهم كانوا يستخدمون أفران الغاز والكيروسين من قبل؟.. لقد أصبحوا كسالى الآن.

هرع الطباخ إليه بما تبقى من حلوى البودينج بالشيكولاتة بعد إكسابها بعض الدفء بوضعها فى مقلاة على النار، وسرعان ما تناول القاضى الحلوى البنية، وشيئًا فشيئًا ظهرت على وجهه علامات رضا بمذاقها.

أثناء تناول الحلوى واحتساء الشاى، تلاشت المرئيات شيئًا فشيئًا من أمام أعينهم بفعل الضباب الرمادى. هذه بوابة المنزل لا تؤدى إلى مكان ما أو إلى ملمح ما، وهذا بخار ماء يتصاعد من أكواب الشاى

فى دوائر، وهذه أنفاسهم تجد طريقها إلى دوائر الضباب التى تدور وتتلوى على نحو بطىء.

***

لم يلحظ أحد، ولا حتى الكلبة "مات"، الصبية يتسللون إلى الأرض المزروعة بالعشب، حتى فوجئوا بهم على الدرج المؤدى إلى الشرفة، إذ لم يكن هناك مزلاج باب يقف حائلاً دونهم.. ولا أحد فى الجوار سوى العم "بوتى"، إلى الجانب الآخر من الوادى الصغير الضيق المنحدر، الذى عادة ما يكون ثملاً وممددًا على الأرض فى مثل هذه الساعة، دون أن يفقد رشده بالكامل، فدائمًا كان بعد احتسائه الكثير من الشراب، يفتح عينًا واحدة مثل بومة، ويحدث "ساى"، قائلاً:

- لا تقلقى علىَّ يا حبيبتى، فأنا سأمدد جسمى هنا وأستريح قليلاً.

جاءوا سيرًا على الأقدام عبر الغابة، مرتدين سترات جلدية من السوق السوداء فى "كاتمندو" العاصمة النيبالية، وسراويل من قماش كاكى اللون، ومناديل كبيرة مزودة بالرسوم، الزى نفسه الذى يرتديه المتمردون فى كل مكان، وأحد هؤلاء الصبية كان يحمل بندقية.

آخر التقارير الإخبارية، اتهمت الصين وباكستان ونيبال، بأنهم وراء هؤلاء الصبية، لكن فى هذا الجزء من العالم، كما فى أى جزء آخر، تتواجد أسلحة تكفى

لتزويد حركة فقيرة بجيش أشعث رث الملابس. مثل هؤلاء الصبية يبحثون دائمًا عن أى شىء يمكنهم الحصول عليه، كالمناجل والفئوس وسكاكين المطبخ وأى نوع من السلاح النارى. لقد قدموا من أجل بنادق الصيد التى يملكها القاضى.

لم يكونوا مقنعين، برغم مهمتهم وملابسهم، فأكثريتهم تحت سن العشرين، وعند أول نباح للكلبة "مات"، أطلقوا صرخات مثل مجموعة من بنات المدارس، وارتدوا منسحبين خائفين من أعلى الدرج، وتواروا خلف شجيرات خفيفة الأغصان، معالمها غير واضحة بسبب الضباب.. أحد هؤلاء المرتجفين من الخوف فى زيهم الكاكى، سأل:

- هل هى تعض يا عم؟

بدأت "مات" تقوم بالدور الذى تقوم به دائمًا عندما تلتقى بغرباء، فتحركت فى صخب وهياج وشىء من خجل، لكن القاضى الذى لم يرد لها أن تهين نفسها، اقترب منها فدست أنفها ووجهها فى ذراعيه.

عاد الصبية ثانية إلى الدرج وقد بدا الارتباك واضحًا على ملامحهم، عندئذ شعر القاضى بخطورة الموقف الذى قد يبدون فيه ثقة لا تتزعزع وميلاً إلى استخدام العنف.

تفوه الصبى الممسك بالبندقية بشىء لم يستطع القاضى فهمه.

- لا تتحدث النيبالية

غضب القاضى وأرغى وأزبد، وعبرت شفتاه عن شىء من الازدراء. وسأل الصبى القاضى بالهندية:

- لديكم أسلحة؟

- لا أسلحة لدينا

- أحضرها

- مؤكد أن معلوماتك خاطئة

- لا يهم ما تقول.. أحضرها

- أنا آمرك أن تغادر فى الحال

- أحضر الأسلحة

- سأبلغ الشرطة

كان تهديده مضحكًا، لعدم وجود هاتف، فضحك الصبية كما يضحك ممثلو السينما، وكما يحدث فى السينما أيضًا، وجه الصبى بندقيته صوب الكلبة "مات"

- هيا، أحضرها.. وإلا سنقتل الكلبة أولاً، وأنت ثانيًا، وسيكون الطباخ الثالث والسيدات أخيرًا.

أنهى كلامه مبتسمًا لـ"ساى" التى غمرها الرعب فقلبت صينية الشاى أثناء ذهابها، وقالت:

- سأحضرها

جلس القاضى والكلبة فى حجره، يفكر فى البنادق التى ترجع إلى أيام خدمته بالحكومة الهندية.

بندقية بى. إس. إيه بماسورة واحدة وطلقات خمس، وبندقية سبرينج فيلد ٣٠ وبندقية بماسورتى إطلاق من صنع هولندا.. لم تكن البنادق الثلاث بعيدًا عن متناول اليد، فهى مثبتة عند نهاية الردهة أعلى رف مترب.

- كلها صدئة، لماذا لا تعتنى بها؟

كانوا سعداء، ووضح جليًا تظاهرهم بالشجاعة

- سنشارككم احتساء الشاى.

سألت "ساى"، وقد تملك الرعب منها:

- شاى؟

- شاى ووجبة خفيفة.. هل هكذا تعاملون ضيوفكم؟.. تعيدوننا إلى البرد بدون شىء يجلب لنا الدفء؟

ونظروا إلى بعضهم البعض، وإليها، وإلى أعلى وأسفل، وغمزوا بأعينهم.. وكأنثى غمرها خوف شديد.

بالطبع، كان الصبية على معرفة بمشاهد سينما تصور بطلاً وبطلة يرتديان ملابس شتوية تجلب لهما الدفء، ويحتسيان الشاى فى أكواب وأطباق وملاعق فضية، ويقوم على خدمتهما أكثر من نادل مهذب. وكما يحدث فى الحقيقة، تدور الأيام ويذهب الضباب، ويعود البطل والبطلة إلى الغناء والرقص ولعب "البيكابو" فى أحد المنتجعات الجميلة. مثل هذه المشاهد كانت تعرض فى فيلم كلاسيكى بسينما فى

"كولوماتا" فى كشمير قبل أن تجتاحها أعمال العنف، وقبل أن يأتى مسلحون من قلب الضباب، يصنعون نوعًا جديدًا من المشاهد.

بعد أن قاموا بسحب وإخراج الطباخ من مخبأه تحت طاولة السفرة، بدأ فى التوسل إليهم، رافعًا ذراعيه إلى أعلى، منكمشًا على نفسه، متوقعًا لطمة مفاجئة

ـ من فضلكم.. أنا رجل فقير.. من فضلكم

ـ هو لم يفعل أى شىء.. اتركوه

قالت "ساى" التى كانت تكره أن تراه ذليلاً، وتكره أكثر أن تراه لا يسلك غير الطريق الذى يذله أكثر وأكثر.

ـ من فضلكم.. اتركونى أعيش فقط من أجل أن أرى ابنى.. من فضلكم.. لا تقتلونى.. من فضلكم.. أنا رجل فقير.. اصفحوا عنى

كلماته، هى الكلمات ذاتها التى تتردد على ألسنة الفقراء، على مدى القرون وعبر الأجيال.. نص هذه الكلمات كان دائمًا ذات النص.. لم يكن أمام الفقراء أى خيار سوى استجداء الرحمة.. وكان الطباخ يدرك بالغريزة كيف يبكى.

هذه الكلمات المألوفة، سهلت على الصبية مهمتهم وكانت بالنسبة لهم أشبه بالهدية.. قالوا للطباخ:

ـ من يريد أن يقتلك؟.. نحن جوعى.. هذا كل شىء.. هيا سيساعدك صاحبك هذا.

قالوا للقاضى:

ـ هيا.. أنت تعرف جيدًا ما الذى يجدر بك أن تفعله

لم يفعل القاضى شيئًا، لذا صوّب الصبى البندقية نحو الكلبة ثانية، فسارع القاضى بالإمساك بكلبته واضعًا إياها خلف ظهره.

ـ رقيق القلب أنت يا صاحب.. عليك أن تظهر هذا الجانب العاطفى لضيوفك أيضًا.. هيا جهز المائدة

وجد القاضى نفسه فى المطبخ لأول مرة، والكلبة "مات" ترتجف عند قدميه. و"ساى" والطباخ يتجنبان النظر إلى العيون المحدقة فيهما، وهما فى حالة من الذعر سببها تواجد القاضى فى المطبخ، الشىء الذى يعنى أن العالم قد انقلب رأسًا على عقب، وأن أى شىء مهما كان يمكن أن يحدث.

ـ ألا يوجد شىء نأكله؟

ـ فقط بسكوت

للمرة الثانية فى اليوم نفسه تقول "ساى" ذلك

ـ لا وجود لوجبة خفيفة.. إذًا اصنعوا شيئًا وإلا يمكننا أن نفرغ بطونكم.

وسط النحيب واستجداء الإبقاء على حياته، كان الطباخ يضرب بقوة مزيج البيض واللبن والزيت، مصدرًا الصوت العنيف المناسب المصاحب للمشهد. وفى ارتباك كان القاضى يبحث عن غطاء للمائدة داخل درج مكدس بستائر صفراء وأغطية وخرق من القماش. وبيدين مرتعشتين أعدت "ساى" الشاى المغلى على نار هادئة بالطريقة الهندية التى لا تتقنها، لأنها تعرف فقط إعداد الشاى على الطريقة الإنجليزية.

قام الصبية بمعاينة شاملة للمنزل، وأول شىء لفت أنظارهم، أجواء الوحدة التى تلقى بظلالها على قطع الأثاث المتداعى، ومقاعد قابلة للطى من معدن رخيص، تفوح منها رائحة نتنة، ربما مصدرها فأر جسور قادم من سطح المبنى الحكومى المجاور للمنزل ذى الحجرات التى تومئ إلى ثراء قديم، والنوافذ الزجاجية المطلة على مشهد الثلج فى الغابة.

حدقوا طويلاً فى شهادة دراسية صادرة من جامعة كامبردج، تكاد لا تبين داخل طلاء على شكل بقع بنية مترية ومنتفخة بفعل الرطوبة، وكشف لهم الباب المغلق من زمن على حجرة المخزن بأرضيتها المنهارة عن ركام من علب سمك التونة الفارغة فوق بقايا طاولة بينج بونج ملقاة بأحد أركان المطبخ، الذى لا يستخدم غير ركن منه، منذ أن كان يستعمل من قبل الخدم، وليس من قبل موظف حكومى سابق.

- المنزل يحتاج إصلاحات كثيرة

قال أحد الصبية متخذًا سمت الناصح، وأضاف:

- الشاى خفيف جدًا

بعد أن التهموا أصابع البسكوت مغموسة فى الشاى الساخن، قاموا بملء صندوقين وجدوهما فى حجرات النوم بالأرز والسكر والشاى والعدس وعلب الكبريت والزيت وصابون لوكس وكريم بوندزكولد.

- فقط الأشياء الضرورية للحركة

خاطب أحدهم "ساى" مؤكدًا، لكن صيحة من آخر نبهت الآخرين إلى وجود خزانة مغلقة.

- أعطنا المفتاح

أتى القاضى بالمفتاح المخبأ خلف مجلة ناشيونال جيوجرافيك، وقاموا بفتح الخزانة، فوجدوا زجاجات جراند مارينر، أمونتيلادو شيرى، وتاليسكر.. بعض الزجاجات تبخرت محتوياتها تمامًا، والبعض الآخر تحولت إلى خل، لكنهم على أية حال قاموا بوضعها فى الصندوق.

- سجائر؟

أغضبهم عدم وجود سجائر. توجهوا إلى دورة المياه، وبالرغم من عدم وجود مياه فيها، إلا أنهم قاموا بقضاء حاجتهم وتركوها فى حالة مزرية. وعندئذ كانوا مستعدين للذهاب.

قالوا للقاضى:

ـ قل، جـاى جـورخـا.. جـورخـا لانـدز.. فـور جورخاز.. قل، أنا أحمق

ـ أنا أحمق

ـ قل بصوت أعلى.. لا أستطيع سماعك.

كرر القاضى بصوت خالٍ من التعبير:

ـ جاى جورخا.. جورخا لاندز فور جورخا.

قال الطباخ وقالت "ساى" بالرغم من أن أحدًا لم يطلب منهما قول شىء، وأضاف الطباخ:

ـ أنا أحمق

غادر الصبية الشرفة ضاحكين، وهبطوا سلالم الدرج، وذهبوا متلفعين بالضباب، حاملين الصندوقين، أحدهما عليه حروف بيضاء فوق صفيح أسود، تقول: السيد جيه. بى. باتيل. إس ستراثنافر، والكتابة على الصندوق الثانى تقول: الآنسة إس مسترى، سانت أوجست، وكان اختفاؤهم على نحو مفاجئ مثل ظهورهم تمامًا.

***

صاحت "ساى":

ـ لقد غادروا.. لقد غادروا

حاولت الكلبة "مات" أن تعبر عن سرورها برغم الخوف الذى لا يزال يسكن عينيها، فهزت ذيلها الذى كانت قد طوته بين ساقيها الخلفيتين. وانفجر الطباخ فى نحيب مرتفع الصوت.

- ماذا سيحدث لنا؟

- اغلق فمك

نهره القاضى، وقد جال بخاطره أن الخدم ولدوا وكبروا لكى يطلقوا الصراخ والعويل. القاضى نفسه، جلس فى استقامة الرمح، فى حالة توتر جعلته يقبض بقوة على ذراعى المقعد، حتى يحد من ارتعاشة تغمر جسده كله، وفى محاولته إيقاف ما يحتدم فى داخله، شعر أن العالم يهتز بقوة تخريب حاول دائمًا أن ينأى بنفسه عنها.

الغطاء الأبيض الذى كان قد بسطه على طاولة المائدة، به رسم عناقيد عنب، لطختها بقعة بلون العقيق، ترجع إلى سنوات طويلة مضت، عندما قام بإلقاء ما فى كأسه من خمر برتغالية فى وجه زوجته للطريقة التى كانت تمضغ بها علكة وأثارت اشمئزازه.

- كل هذا البطء!

كان الصبية قد وجهوا له توبيخًا ساخرًا:

- أنتم، ألا تخجلون.. ألا يمكنكم عمل شىء واحد بدون عون من أحد.

"ساى" والطباخ، حولا نظراتهما المحدقة بعيدًا عن القاضى الغارق فى خزيه، وتجنبا إلقاء نظرة إلى غطاء طاولة المائدة، لأن مجرد أن يأتى على ذهن أى منهما، لا يمكنهما تصور قدر العقاب الذى سينزل بهما. إنه لمشهد مريع سقوط رجل متكبر، لذا قد يلجأ إلى قتل الشهود.

أسدل الطباخ الستائر، ربما حتى لا يكشف الزجاج عن سقوطهم المخزى للغابة والليل، اللذين قاما بإلقاء عباءتيهما المعتمة والخشنة عليهم. والكلبة "مات" ربما أدركت أن وقوفها أمام غطاء طاولة المائدة قد يسبب للقاضى حرجًا، لذا غادرت مكانها بقفزة سريعة، لكنها عندما استدارت وشاهدت ظلها على الحائط، قفزت مرة أخرى.

***

الزمان، فبراير ١٩٨٦" ساى" التى لم تتجاوز السابعة عشرة وعلاقتها العاطفية مع "جيان" مدرس الرياضيات لم يمض عليها عام واحد، تقرأ عن الفرقة الموسيقية "هل نو" التى تقدم عرضًا فى فندق حياة انترناشيونال فى بومباى، وعن المعرض التكنولوجى لأفران غاز باستخدام روث البقر فى دلهى، ويحضره مندوبون من جميع أنحاء العالم.

فى كاليمبونج شمال شرق جبال الهيمالايا _حيث يعيش القاضى وطباخه وساى والكلبة مات _أشار أحد التقارير الصحفية إلى وجود جماعات مسلحة من الهنود النيباليين. الذين ضاقوا ذرعًا بطريقة التعامل معهم كأقلية فى مكان كانوا فيه الأغلبية من قبل، ويطالبون باسترجاع بلدهم أو على الأقل دولتهم التى تدير شئونهم.

هنا، حيث تتحول الهند على نحو غير واضح إلى بوتان أو سيكيم، وحيث يغير الجيش مواقعه من وقت

لآخر، مبقيًا على دباباته المطلية باللون الكاكى، تحسبًا لأى تحرك من الصينيين لالتهام مزيد من الأرض تضاف إلى التبت.. هنا حيث تبدو خريطة الأرض دائمًا فى حالة من الفوضى، وقع الكثير جدًا من الصراعات والخيانات والمقايضات بين نيبال وإنجلترا والتبت والهند وسيكيم وبوتان، وتمت سرقة دار جيلينج من هنا، وتم سلب كاليمبونج من هناك، بالرغم من الضباب الكثيف الذى يتحرك كالتنين راسمًا فى طريقه خطوط ترسيم للحدود كما يهوى ويحلو له.

## ـ ٢ ـ

بعث القاضى بالطباخ إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن عملية السطو، برغم معرفته ـ من خبرات السنين ذاتها التى جعلت الطباخ يستجدى الرحمة من المهاجمين ـ بعدم جدوى ما أقدم عليه.

حظ قسم الشرطة سيئ دائمًا؛ لأنه إذا كان قد تريح من اللصوص، فلن يفعل شيئًا يذكر، وإذا لم يكن كذلك، فسوف يكون موقفه أكثر سوءًا؛ لأن الصبية الذين هاجموا منزل القاضى الليلة الماضية وحصلوا على البنادق، سيزيلون ما علق بها من تراب، ويملئونها بالطلقات النارية، ثم يأخذون بثأرهم.

خطر على بال الطباخ أن المائتى وخمسين روبية، التى حصل عليها، لقاء قيامه ببيع العم "بوتى" شرابًا معتقًا جعل العجوز الأعزب يغيب عن الوعى ويسقط على الأرض من شدة السكر. كان قد خبأ النقود فى جيب قميصه الآخر فى الليلة الماضية، وعندما أدرك أن مكانها غير آمن، قام بربط النقود بأعلى إحدى

دعامات كوخه المبنى من أعواد البامبو والطين، والقابع على أطراف أرض القاضى. لكن بعد أن شاهد فأرًا يصعد ويهبط إلى أعلى وأسفل دعامات الكوخ، خشى على نقوده من أسنان الفأر، وسارع بوضع النقود داخل علبة من الصفيح خبأها فى الجاراج، تحت السيارة التى لم تكن قد غادرت مكانها من زمن طويل. أيضًا خطر على بال الطباخ ابنه بيجو، وقال فى نفسه: إنهم فى حاجة إلى شاب إلى جانبهم فى "تشو أويو".

***

أثناء قيامه بالإدلاء ببلاغه إلى قسم الشرطة وهو يرتعش من قمة رأسه حتى إخمص قدميه، بدا وكأنه يحاول بحركة يديه التأكيد أنه مجرد مبلغ لا أكثر، وأن لا دخل له بأى شىء، وأن ما جرى لم يكن يستحق إزعاج الشرطة به. كان رجلاً بلا حول ولا قوة، وما تعلمه يجعله بالكاد يقرأ ويكتب، وحياته كلها أمضاها فى العمل الشاق، وغاية أمله أن يتفادى المشكلات ويعيش لكى يرى ابنه.

لسوء الحظ، كان الاضطراب باديًا على رجال الشرطة، الذين كانوا يستجوبونه بقسوة، ويظهرون ازدراءهم له، فهو كخادم أدنى منهم بدرجات، إلا أن واقعة سرقة بنادق من عضو متقاعد من أفراد الهيئة القضائية، لا يمكن تجاهلها، ولذا قاموا مجبرين بإحاطة رؤسائهم علمًا بها.

بعد ظهر اليوم، قدم أفراد الشرطة إلى "تشوأويو" فى عدد من عربات الجيب، التى ظهرت للعيان من

خلال ذرات الثلج المتساقطة المتجمدة، وعند شرفة المنزل تركوا مظلاتهم مفتوحة، فأجبرتها الريح على التحرك، تتساقط منها قطرات من الصبغ الأسود، ما عدا مظلة واحدة ذات لون قرنفلى من صنع تايوان، مزينة بالزهور.

***

بعد المقابلة التى أجروها مع القاضى، والتقرير الذى قاموا بكتابته لإثبات واقعة السرقة والتعدى، سأل أحدهم:

- هل وجهوا لك أية تهديدات يا سيدى؟

- لقد طلبوا منه أن يعد المائدة ويحضِّر الشاى.

بجدية تامة، قال الطباخ، فضحك أفراد الشرطة، فى حين حرك القاضى المتجهم الوجه شفتيه المزمومتين قائلاً:

- اذهب واجلس فى المطبخ

قام أفراد الشرطة برفع بصمات الأصابع من فوق الأسطح بعد إلقاء مسحوق عليها، كما تعرفوا على آثار أقدام صعدت على الدرج المؤدى إلى الشرفة بعد أخذهم قياسات عديدة.

- آثار قدم كبيرة جدًا فى حذاء باتا الرياضى يا سيدى.

كانت الفرصة سانحة أمام أفراد الشرطة، تمامًا مثل لصوص البنادق، لكى يشبعوا فضولهم بالتجول

داخل مقر إقامة القاضى، ربما لأنه كان يثير فضول الكثيرين لغرابته منذ وقت طويل. ومثل لصوص البنادق أيضًا، لم يثر اهتمام أفراد الشرطة أثناء جولتهم المستطلعة سوى ضياع الثروة والمنزلة الرفيعة. ضرب أحدهم بقدمه معدّة متداعية متصلة بنهر صغير "جهورا"، عبر أنابيب تتوزع عليها هنا وهناك أربطة مبللة، وقام بتوجيه نور بطاريته فى اتجاه دورة المياه، فاكتشف وجود إصلاحات باستخدام أشرطة مطاطية وشرائح صغيرة من أعواد البامبو

- أى دليل ستعثر عليه فى دورة المياه؟

سألت "ساى" التى كانت تتبع خطواته داخل المنزل، وقد اعتراها شىء من الخجل.

***

المنزل، قام ببنائه منذ وقت طويل، رجل إسكتلندى عرف عنه حبه لقراءة كتب تلك الفترة : كيف عبرنا جبال الألب الهندية، أرض اللاما، الريكشا الشبح، نمر سينجرولى الأسود، كما عرف عنه أيضًا روحه المفعمة بحب المغامرة وحياة البرية. ولأنه كالمعتاد يدفع آخرون التكاليف الباهظة لحياة الرفاهية التى يعيشها أفراد قلائل، فقد وقع على عاتق الحمالين حمل كتل صخرية ضخمة من مجرى النهر إلى أعلى؛ حيث الموقع الذى اختير لبناء منزل يطل على المنظر الطبيعى، الذى يبعث السرور فى قلب الإنسان، لكن لا يهم إذا ما تقوست أرجل الحمالين وضلوعهم وظهورهم وإذا ما انحنت وجوههم ببطء

وبشكل تدريجى حتى تنظر عيونهم المنكسة إلى الأرض دائمًا.

آثار عز قديم بدت لأعين أفراد الشرطة فى جولتهم الاستطلاعية داخل المنزل: أنابيب للمياه وأخرى للصرف الصحى، بوابات حديدية مزخرفة، أسطح القرميد الأحمر، ودمية على هيئة امرأة استخدمت منذ زمن من قبل مصمم ملابس نسائية، يركلها الآن شرطى بقدمه لتستقر بعيدًا بالقرب من مئات العناكب الميتة المنتشرة هنا وهناك، كزهور ذبلت وجفت.

***

أمسك أفراد الشرطة بمظلاتهم، تقودهم خطواتهم الثقيلة إلى كوخ الطباخ، وملامحهم تشى بالشك والحذر، فالخدم فى الغالب هم أول من يشار إليهم بأصابع الاتهام عندما يتعلق الأمر بالسرقة. أثناء سيرهم مروا بالجاراج، حيث تنغرس فى الأرض المعشوشبة مقدمة سيارة متهالكة قادها القاضى لآخر مرة إلى"دارجيلينج" لزيارة صديقه الوحيد "بوز"، الذى لم يكن قد رآه منذ وقت طويل، ومروا كذلك برقعة أرض مزروعة خلف خزان الماء، ترجع إلى وقت كان يقضى فيه الطباخ حاجته خلف المنزل، بدلاً من المكان المعتاد فى الطرف البعيد من الحديقة، حيث كان يعيش فى حفرة قريبة من الأرض ثعبانان "ميا" و"بيبى"، زوج وزوجته.

بدأ الطباخ فى سرد حكايته المثيرة مع الثعبانين:

- لم أكن قد لدغت من أى منهما. لكن جسدى بدأ ينتفخ ويتورم بلا أى سبب معلوم، حتى زاد حجمى إلى عشرة أضعاف.. وعندما ذهبت إلى المعبد أخبرونى بضرورة أن أطلب الصفح من الثعبانين، فصنعت تمثالاً من الطين لثعبان كوبرا، ووضعته خلف خزان الماء، بعد أن قمت بتنظيف المنطقة المحيطة، ونثرت فوقها روث البقرة، وسرعان ما ذهب الانتفاخ والورم من جسدى.

صدق رجل الشرطة على كلامه، قائلاً:

- تضرع إليهما حتى لا يقدما على لدغك أبدًا وحتى يقوما على حمايتك.

- نعم، فهما لا يلدغان أحدًا، ولم يقوما بسرقة دجاج أو بيض، وفى الشتاء لا تراهم كثيرًا، لكن بعد انتهاء فصل الشتاء يخرجان من بياتهما ويتفقدان المكان للتأكد طوال الوقت من أن كل شىء على ما يرام. لذلك بعد أن كنا سنحول هذا الجزء من الأرض إلى حديقة تركناه لهما، فهما يقومان دائمًا بجولات فى "تشوأويو" ويعودان إلى مستقرهما.

- ما نوعهما؟

- كوبرا سوداء، سمكها مثل هذا

أشار الطباخ إلى وعاء يحتوى مسحوق رفع البصمات ويحمله الشرطى فى حقيبة بلاستيكية، مضيفًا:

- إنهما زوج وزوجة.

لـكن الـثـعـبـانـين لم يـفـلـحـا فـى حـمـايـتـهم من السـرقة... وسرعان ما أبعد الشرطى تلك الفكرة غير الدينية من ذهنه، وتابع أفراد الشرطة سيرهم بحذر وبشىء من التوقير خشية أن يكون الثعبانان أو أقاربهما فى أثرهم وقد تأذت مشاعرها.

***

تلاشت ملامح التوقير من على وجوه أفراد الشرطة لحظة وصولهم إلى كوخ الطباخ الملاصق لمنطقة حشائش متشابكة كثيفة، وسرعان ما أطلقوا العنان لمشاعر الاحتقار له، فقاموا بقلب سريره تاركين متعلقاته الشخصية مكومة على الأرض. كان من المؤلم لـ"ساى" أن تعلم كم هو ضئيل ما لدى الطباخ من متعلقات: ملابس قليلة معلقة على حبل، شفرة حلاقة، طبق به قطعة صابون بنية اللون من النوع الرخيص، بطانية قديمة كانت لها من قبل، حقيبة من الورق المقوى بمشبك معدنى كانت فيما مضى للقاضى، والآن تحتوى على أوراق الطباخ مثل خطابات التزكية التى ساعدته فى الالتحاق بالعمل لدى القاضى، وخطابات بيجو، وأوراق دعوى قضائية تخص خمس شجرات كان قد خسرها أمام شقيقه فى قريتهما "أتاربراديش". فى داخل الحقيبة وفى جيب من نسيج قطنى قابل للمط، ساعة محطمة يتكلف إصلاحها كثيرًا، ومع ذلك فهى ذات قيمة له تمنعه من التفريط فيها، فربما يأتى وقت يمكنه فيه الاستفادة من أجزائها المكومة داخل مظروف، والتى تناثرت الآن

فوق العشب عندما مزق شرطى المظروف فى غير مبالاة.

صورتان فوتوغرافيتان معلقتان على الحائط، إحداهما له ولزوجته فى يوم زفافهما، والثانية لابنه بيجو مرتديًا الملابس التى سافر بها بعيدًا عن الوطن، الصورتان تدلان على أناس فقراء غير قادرين على المخاطرة حتى بفقد صورة فوتوغرافية، بينما فى كل أنحاء العالم أناس آخرون يبدون فى الصور وهم منغمسون فى الملذات على نحو لم يألفه الجنس البشرى من قبل.

فى إحدى المرات، أمسكت ساى بكاميرا العم بوتى والتقطت صورة للطباخ أثناء تقطيعه بصلة، فأصابتها الدهشة عندما رأت الطباخ وقد غمره شعور قوى بأنه قد غرر به، وسارع بارتداء قميص وبنطلون نظيفين، واختار لوقوفه لوحة معلقة من مجلة ناشيونال جيوجرافيك، وجدها مناسبة لخلفية الصورة.

تساءلت ساى عما إذا كان الطباخ قد أحب زوجته، التى ماتت قبل سبعة عشر عامًا ـ وكان ابنهما بيجو فى الخامسة من عمره ـ عندما انزلقت قدمها من فوق شجرة، أثناء قيامها بجمع أوراق خضراء لغذاء الماعز، وقتها، قالوا إن ما وقع كان حادثًا وليس هناك من يقع عليه اللوم، وانه القدر الذى يتصرف على النحو، الذى يوزع فيه الفقر أو الحرمان مصحوبًا بنصيب أكبر من الحوادث التى لا يمكن أن يلقى باللوم على حدوثها على أى أحد.

فى كل مرة يأتى على خاطره ابنه بيجو، يهتف فى زهو وابتهاج:

ـ هذا الولد الماكر.. لكنه ولد طيب دائمًا.. فى قريتنا، معظم الكلاب اعتادت أن تهاجم من تجده فى طريقها وتعقره، لكن بيجو يروح ويغدو فلا يهاجمه أى حيوان، ولا يلدغه ثعبان عند خروجه لقطع الحشائش للبقرة.. لدى بيجو شخصية قوية لا تخشى أى شىء على الإطلاق، حتى أنه وهو صغير كان يمسك الفأر من ذيله والضفدعة من عنقها.

لا تبدو على ملامح بيجو فى الصورة الفوتوغرافية أية جسارة، بل يبدو منكمشًا مثل والديه.

فى غير مبالاة، أفرغ أفراد الشرطة كل ما فى الحقيبة من خطابات على الأرض، وبدءوا فى قراءة خطاب يرجع تاريخه إلى ما قبل ثلاث سنوات، عقب وصول بيجو مباشرة إلى نيويورك: "والدى المحترم، لا شىء يدعوك للقلق، فكل شىء على ما يرام، وأنا أعمل نادلاً فى مطعم يقدم لى الملبس والطعام، لكنه لا يقدم طعامًا هنديًا فمالكه أمريكى". محتويات ذلك الخطاب، كان الطباخ يرددها على مسامع كل شخص يقابله فى السوق، مؤكدًا فى كل مرة: "هو يعمل لدى الأمريكيين".

## - ٣ -

أمضى بيجو أيامه الأولى فى أمريكا واقفًا فى صف من الشباب من أمثاله إلى طاولة طويلة بمطعم.

- أتحبين الحجم الكبير؟

سأل رومى زميل بيجو فى الخدمة بطاولة المطعم، رافعًا بالملقاط إلى أعلى أصبع سجق سمينًا وممتلئًا، أمام فتاة ذات وجه جميل اعتادت معاملة ملونى البشرة مثل معاملتها للبيض.

- الحجم الكبير

هؤلاء الشباب الذين عمل معهم بيجو كثيرًا ما أثاروا دهشته، بسبب تقلب مزاجهم، فمرة يبعثون فيه الخوف ومرة يشعرونه بالابتهاج. جو احتفالى يسود المطعم المزدان بثمار البرتقال والموز المصنوعة من البلاستيك، وبأعلام من الورق الملون لكن درجة الحرارة المرتفعة بفعل شعلة النار الكبيرة المشتعلة أسفل كل مقلاة تتسبب فى تساقط قطرات العرق

من وجه بيجو وزملائه الذين تختلط أصواتهم المتسائلة:

- هل تحب النقانق الهندية؟... هل تحبين النقانق الأمريكية؟... هل تحب نوعًا معينًا من الهوت دوج؟.

قالت امرأة من بنجلاديش تزور ابنها فى جامعة نيويورك

- سيدى، أنتم تقدمون أفضل نقانق، لم أتذوق مثلها منذ قدومى إلى هنا.

كان بيجو يشارك زملاءه بالمطعم تقديم مختلف أنواع النقانق والهوت دوج ، لكنه أبدى ترددًا واعتراضًا، عندما قاموا بعد انتهائهم من يوم عمل بزيارة دار للبغاء يدعى "نساء الدومينيكان" فى منطقة "مرتفعات واشنطن"، برسم دخول خمسة وثلاثين دولارًا فقط!.

أخفى بيجو جبنه بكلمات تحمل اشمئزازًا مصطنعًا ووقارًا متكلفًا:

- كيف؟.. إنهن نساء عاهرات قذرات يجلب ممارستكم الجنس معهن لكم الأمراض.. إنهن جميعهن سود قبيحات يصيبوننى بالغثيان.

قال رومى صارخًا وهو يمسك برأسه فى حركة مسرحية:

- الآن، يمكننى فعل ذلك مع كلبة.

ضحك زملاؤه الآخرون، وشعر بأنهم رجال وهو صغير فى التاسعة عشرة من عمره.

وعندما تسلم المدير المسئول عن المطعم رسالة من جهة إدارية تطلب منه التحقق من أن جميع العاملين معه قد حصلوا على البطاقة الخضراء، التى تجيز لهم الإقامة والعمل، لم يكن فى استطاعة السيد فرانك الرجل اللطيف أن يفعل شيئًا سوى أن ينصحهم بقوله: "عليكم بالاختفاء فى هدوء"، استشعر بيجو شيئًا من الارتياح، لكنه ليس الارتياح الذى يشعر به الإنسان فى أعماقه. أطرف ما فى الأمر، أن المدير المسئول عن المطعم الذى يقدم نقانق فرانكفورترز الشهيرة يدعى فرانك. وفى ثوانٍ معدودة كانوا قد اختفوا جميعًا.

ـ ٤ ـ

فكر الطباخ فى شرائح لحم الخنزير السميكة المقلية، وسمك التونة المطهو بالبيض المخفوق، وفطيرة البسكويت بالكارى، وكان على ثقة بأن ابنه بيجو سيترقى فى عمله إذا أجاد الطعام الإنجليزى أكثر من إجادته الطعام الهندى.

أثارت رسالة بيجو الأولى اهتمام وفضول أفراد الشرطة فشرعوا فى قراءة رسائل أخرى لعلهم يجدون أثرًا لنقود من بيع البنادق المسروقة، أو يعثرون هم أنفسهم على طريقة تمكنهم من دخول أمريكا مثل بيجو. رسائل بيجو كانت تتحدث عن أعمال كثيرة امتهنها ذات طبيعة واحدة، لكن مع كل عمل جديد له كان والده يقول بزهو: عمل ممتاز أفضل من السابق. كان الطباخ يردد لمن حوله القول بأنه بعد أن ينتهى بيجو من جمع ما يكفى من نقود، سيتقاعد، وعندئذ تقوم زوجة ابنه بجلب الطعام إليه ويطقطقة أصابع قدميه، بينما أحفاده يجرون من حوله كالذباب.

فى المنزل الكائن فوق نتوء بالجبل وعلى جدرانه تنمو الطحالب، وتعلو أسقفه حزم من أعواد النبات الجافة، تكاد عقارب الساعة تتوقف عن الدوران، لكن لا تتوقف مع كل رسالة تصل من بيجو، أحلام الطباخ فى المستقبل، وحتى لا يفكر بيجو فى والده على نحو غير إيجابى، كان الوالد يرد على رسائل ابنه بقوله: ضع نصب عينيك توفير النقود، ولا تقرض أحدًا وكن حذرًا ممن تتحدث إليه، فهناك الكثير من الكذابين والمحتالين الذين يقولون شيئًا ويفعلون شيئًا آخر، وتذكر أن تأخذ قسطًا من الراحة، وأن تغذى نفسك جيدًا، وتحافظ على صحتك، وقبل أن تتخذ أية قرارات تحدث مع ناندو ابن قريتك.



ذات مرة قامت ساى بملء قسيمة اشتراك فى سحب على الفوز باشتراك مجانى فى مجلة ناشيونال جيوجرافيك وأرسلتها إلى صندوق البريد فى بلدة أوماها، وبمرور وقت طويل على هذا الأمر، نسيته تمامًا. لكن فجأة وصلتها رسالة بريدية بداخلها تهنئة بالفوز بعضوية نادى المغامرة والمعرفة وبالاشتراك المجانى فى مجلة ناشيونال جيوجرافيك، الشىء الذى أشاع البهجة فى نفسها وفى نفس الطباخ، لأن من النادر تسلمهما على رسالة بريدية تحمل خبرًا جميلاً غير متوقع.

وبينما ساى والطباخ كانا يتصفحان مجلة ناشيونال جيوجرافيك ويتطلعان إلى صور الصحراء

والجبال، وإلى الأخضر فى الحقول وإلى نثار الثلج فى الأعالى، خطر على ذهن الطباخ أنه فى مكان ما على خريطة العالم الملونة يتواجد بيجو، فقاما بالبحث عن موقع نيويورك، وساى تحاول أن تشرح له لماذا يكون الليل هناك فى نيويورك، فى الوقت الذى يكون النهار فى الهند، تمامًا مثل شرح الأخت أليس لها باستخدام ثمرة برتقال ومصباح كهربائى. لكن الشىء الذى أثار استغراب الطباخ هو استئثار الهند بالنهار قبل أمريكا، الشىء الذى لا يتكرر على أى صعيد آخر يخص الهند وأمريكا.

***

رسائل بيجو إلى والده، ملقاة متناثرة على الأرض، بجوار قطع من الملابس الرثة، وحشية السرير البالية، وطبقات من صحف وضعت فوق السرير لتعالج نحول الحشية المتهرئة. بعد تعرفهم على حقيقة فقر الطباخ أثناء بحثهم فى متعلقاته، انسحب أفراد الشرطة ـ بمظلاتهم السوداء إلا واحدة قرنفلية اللون مزينة بالزهور ـ وعادوا أدراجهم من حيث أتوا، تخفيهم عن عيون من فى المنزل، أعواد الحشائش المتشابكة الكثيفة.

جاثيًا على ركبتيه، بحث الطباخ طويلاً عن الزر الفضى للساعة القديمة، لكنه كان قد اختفى.

- حسنًا، كان عليهم البحث فى كل شىء. من الطبيعى أن يفعلوا ذلك، وإلا فكيف يمكنهم معرفة

أننى يرى؟.. إنهم الخدم الذين يقومون بالسرقة فى معظم الأوقات.

***

أثناء وجودها بكوخ الطباخ، استشعرت ساى بالحرج ذاته الذى كان يغمرهما معًا فى المرات القليلة التى دخلت فيها الكوخ بحثًا عنه، وبدا لها واضحًا زيف الشىء الذى كان يقرب بينهما على نحو ما. ربما لأن صداقتهما تقف عند العمق القريب ويتحدثان بلغة تفتقد إلى التوصيل الجيد، إذ تتحدث هى الإنجليزية ويتحدث هو الهندية، وربما لأن لغة حديثهما غير الموصلة جيدًا هذه قد قطعت الطريق أمام صداقة أكثر عمقًا تجمعهما معًا. لكن مع ذلك كانت ساى تشعر دائمًا بالحنو لحظة رؤيتها لوجهه المتغضن وعند سماعها لمساوماته فى السوق، كما كانت تزهو بأنها تعيش مع مثل هذا الرجل، الذى يصعب التعامل معه، ومع ذلك يتحدث إليها من قلبه، مناديًا عليها: ساى بيبى.

المرة الأولى التى التقت فيها ساى بالطباخ، كانت عند قدومها بسيارة أجرة من سان أوجستين فى دهرادان، منذ تسع سنوات، حينها كان القمر يرسل أشعة فضية سهلت لها قراءة اسم المنزل" تشو أويو"، أثناء انتظارها أمام البوابة المغلقة، حيث كان سائق السيارة يصيح مناديًا بأعلى الصوت. بعد مضى بعض الوقت، سمع السائق وساى صوت صفير، بعده ظهر

فانوس مضىء يمسك به الطباخ مقوس الساقين، يبدو على ملامحه فقر أمسك بتلابيبه منذ الطفولة وعلى امتداد تقدم العمر. لكن عند النظر إلى الطباخ والقاضى لا يمكن ملاحظة أن هناك جيلاً يفصل بينهما، فتقدم عمر الطباخ يتجلى فى مزاجه وملابسه ومطبخه وصوته ووجهه، وفى الرائحة المستقرة الملازمة له على مدى حياته التى أمضاها فى المطبخ والتدخين وبالقرب من رائحة الكيروسين النفاذة.

***

ـ كيف يجرءون على معاملتك بهذه الطريقة؟

قالت ساى فى محاولة منها للتغلب على الفجوة التى تفصل بينهما، أثناء جلوسهما معًا يتفقدان آثار الفوضى التى تركها أفراد الشرطة داخل كوخه، وبدوره تساءل الطباخ:

ـ أى نوع من البحث والتقصى ذلك الذى قاموا به؟

فى محاولة منها للتخفيف مما لحق به من إساءة، ركزت اهتمامها على ما تركه أفراد الشرطة من فوضى، وشاركته فى جمع متعلقاته المتناثرة، لكنه كان شديد العناية بوضع الرسائل داخل المظاريف، لاعتقاده بأنه سيعيدها فيما بعد لابنه بيجو، حتى يحتفظ بتسجيل لرحلته إلى أمريكا يشعره بالزهو بما حققه من إنجاز.

- ٥ -

بيجو فى مطعم بيبى بسترو، الذى يقدم مأكولات فرنسية فى الطابق الذى يعلو أرضية الشارع، بينما يتم تقديم الطعام المكسيكى والهندى فى الطابق الأرضى بجوار المطبخ. وعندما عمل باكستانى بالمطعم أضيف إليه الطعام الباكستانى.

بيجو فى مطعم لى كولونيال، الذى يقدم الطعام نفسه الذى كان يقدم فى زمن المستعمرات الثلاثة عشر الأصلية المكونة للولايات المتحدة الأمريكية، والذى يقدم الآن الطعام الأمريكى الفاخر فى القسم العلوى، ويقدم فى القسم السفلى طعام الجنسيات الفقيرة: الكولومبى، التونسى، الأكوادورى، والجامبى.

يغطى العلم الأمريكى القسم العلوى فى مطعم ذى ستارز آند سترايبس دينر، والعلم الأكوادورى يغطى القسم السفلى. وعندما التحق بيجو للعمل فى هذا المطعم، أضيف العلم الهندى.

ـ أين تقع على خريطة العالم جواتيمالا؟... أين جوام؟.. أين مدغشقر؟

كان على بيجو أن يسأل كثيرًا.

ـ أين جويانا.

ـ ألا تعرف؟

قال رجل من جويانا:

ـ الهنود فى كل مكان فى جويانا يا رجل. أينما تولى وجهك فى جوام تجد الهنود.

ـ وترينيداد؟

ـ ترينيداد تمتلئ بالهنود، هل تصدق ذلك؟... هيا افتح علبة سالمون يا رجل.

الهنود فى مدغشقر. وفى شيلى يتواجد الهنود داخل المنطقة الحرة فى تييرا ديل فيجو، حيث زجاجات الويسكى والإلكترونيات، كما يتواجد باكستانيون يعملون فى مجال السيارات المستعملة. هنود فى كينيا وجنوب إفريقيا والمملكة العربية السعودية وفيجى ونيوزيلندا وسورينام. وإلى كندا قدمت مجموعة من الهنود السيخ منذ زمن طويل واستقرت فى مناطق بعيدة، وهناك قامت النساء بخلع ثوب السالوارس وارتدين الكورتاس.

نعم، هنود فى آلاسكا، منذ أن قام هندى بامتلاك متجر فى آخر مدينة قبل القطب الشمالى، يبيع فيه أطعمة معلبة ومعدات صيد وأكياس الملح وأنواع

الجاروف، وبعد أن ترك زوجته فى كارنال لكى تدخل أولادهما حضانة ليتل إنجلز. وهناك على سواحل البحر الأسود، هنود يديرون تجارة التوابل، كما يتواجد هنود كذلك فى هونج وسنغافورة.

لماذا لم يعلم شيئًا عن كل هذه البلاد؟... عرف فقط إنجلترا وأمريكا ودبى والكويت، وربما القليل من البلاد الأخرى.

العالم كله كان موجودًا فى مطابخ تحت الأرض بمدينة نيويورك، لكن بيجو لم يكن مستعدًا للتعامل معه، ولم يشعر بالارتياح إلا بعد وصول أحد الباكستانيين؛ لأنه عرف كيف يتعامل معه، وقد عبر عن شعوره هذا فى خطاب إلى والده.

استشعر الطباخ بعض الخطر، فهو يعرف أن أمريكا مقصد الناس من كل مكان، يسافرون إليها للعمل، لكن من المؤكد أنهم من غير الباكستانيين، ففى تقديره أنهم غير مقبولين عند أصحاب العمل على عكس الهنود فهم محبوبون لديهم. وفى خطاب بعث به إلى ابنه قال:

- كن حذرًا، وابتعد عن الآخرين، ولا تثق فى أحد.

ما قاله بيجو فى إحدى رسائله لأبيه، إنه أصبح غير قادر على التحدث بصراحة إلى الرجل الباكستانى، وبدأ يأخذ حذره منه، جعل الطباخ يفخر بابنه.

الهندى ضد الباكستانى.. إنها الحرب القديمة، وافتقار الاطمئنان الذى يرجع إلى قرون مضت...

وإنها روح الآباء والأجداد التى تهفو إلى الأبناء من الموت.

هنا، فى أمريكا، مكان لكل جنسية لكى تؤكد على ما يميزها عن غيرها

صاح بيجو:

- باكستانيون.. خنازير، أبناء خنازير

- ابن بومة.. هندى منحط، ابن عاهرة

وألقى كل منهما قذائف الكرنب فى وجه الآخر.

صوت انفجار غاضب سمعته آذانهما، عندما أخبرهما الفرنسى بأنهما مثيران للإزعاج. كان صوت شجارهما بالطابق الأسفل قد صعد درجات السلم، وتناهى لأسماع من بالطابق الأعلى كفرقعة خرقاء لامبالية، أزعجت حالة التوازن بين عالم أول فى الطابق العلوى للمطعم وعالم ثالث فى أسفل الدرج المكون من اثنتين وعشرين درجة. ربما كان فى تصورهما أن مطاعم باريس تمتلئ طوابقها السفلى بالجزائريين والمكسيكيين والهنود والباكستانيين والسنغاليين والمغاربة؟!

وداعًا بيبى بيسترو

- لديك وقت الآن لتأخذ حمامًا

قال الفرنسى صاحب المطعم الذى قبل أن يعمل بيجو لديه رغم رائحته غير الطيبة.

هكذا وجد الباكستانى نفسه فى طريق، كما وجد بيجو الهندى نفسه فى طريق آخر. وعندما تجمعهما الصدفة معًا فى ملتقى طريقين، يدير كل منهما ظهره للآخر.

## - ٦ -

أثناء انتظار ساى عند البوابة، جاء الطباخ المقوس الساقين، وفى يده مصباح ضوء، وهو يصدر صفيراً لإبعاد الذئاب وثعبان الكوبرا، واللص المحلى جوبو، الذى سرق كل سكان كاليمبونج على التعاقب، والذى لديه شقيق يحميه فى الشرطة.

بينما كان يقوم بفتح قفل البوابة وفك سلسلتها، رغم أن فى إمكان أى شخص تسلق السور بسهولة، سأل الطباخ:

- هل أتيت من إنجلترا؟

أجابت ساى بهزة من رأسها.

- أمريكا؟.. هناك لا مشكلة فى المياه والكهرباء

قال وشعور قوى بالخشية يتسلل إلى كلماته

- لا

- لا؟.. لا؟

وعلامات خيبة الأمل ارتسمت على ملامحه، قال وهو يومئ برأسه بالموافقة على شىء لم تكن قد قالته:

- من الخارج

- لا.. من ديهارادان

- ديهارادان!.. ونحن هنا نضرب أخماسًا فى أسداس معتقدين أنك قادمة من بعيد، وأنت طوال الوقت كنت فى ديهارادان.. لماذا إذًا لم تأت من قبل؟

عندما لم تجب، قال الطباخ:

- حسنًا.. أين والداك؟

- متوفيان

سقط مصباح الضوء من يده وانطفأت شعلته، وقال وشعور بالأسى يعتريه:

- متوفيان.. لم يخبرنى أحد بذلك.. ماذا سيحل بك يا مسكينة؟.. أين وافتهما المنية؟

- روسيا

- روسيا!.. لكن لا عمل هناك؟.. ماذا كانا يعملان؟

- والدى كان يعمل قائد سفينة فضاء

- قائد سفينة فضاء!.. لم أسمع شيئًا عن هذا الأمر من قبل

نظر إليها متشككًا.. شىء ما خطأ يتعلق بهذه الفتاة.. يمكنه أن يخمن ذلك.

- عليك الآن أن تقيمى هنا .. أمر محزن ألا يكون لك مكان آخر.

فكر فى أن الأطفال يؤلفون قصصًا فى أغلب الأحيان، أو يتم إبلاغهم بها لإخفاء حقيقة مرعبة. لكن كان عليه وعلى سائق السيارة أن يبذلا جهدًا حتى يمكنهما اختراق سيقان الأشجار والحشائش الكثيفة فى الطريق الضيق إلى المنزل.

- كيف جاءتهما المنية؟

فى مكان ما فى الأعالى، كان صوت كالنذير لطائر بجناحين هائلين يضرب بهما

وقع الحادث بعد ظهر يوم هادئ فى موسكو، عندما كان ميسترى وزوجته يعبران الميدان متوجهين إلى مقر جمعية رواد الفضاء. فى ذلك الوقت كان والد ساى يقيم هناك منذ أن اختير من قبل القوات الجوية الهندية كمرشح محتمل لبرنامج فضاء مشترك هندى سوفيتى فى آخر أيام العلاقات الودية بين الاتحاد السوفيتى والهند.

فى تلك الأوقات المزدهرة، نشأ السيد والسيدة ميسترى، وكان أن توثقت العلاقات الروسية الهندية من خلال صفقات بيع الأسلحة وعقد البطولات الرياضية، وتبادل زيارات فرق الرقص ومعارض الكتب المصورة التى عرفت جيلاً من أطفال المدارس الهندية على شخصية بابا ياجا، الذى كان يعيش فى غابات روسيا المظلمة فى حقبة ما قبل التاريخ، وعلى

المشكلات التى واجهت الأمير إيفان والأميرة انكانكا. قبل أن يقيما سعداء إلى الأبد فى قصر ذى قبة دائرية.

فى حديقة عامة بدلهى، كان اللقاء الأول للسيد والسيدة ميسترى. فى ذلك الوقت، كانت السيدة ميسترى طالبة جامعية تغادر بيت الطالبات بإذن من المشرفة لكى تستذكر دروسها، وتجفف شعرها تحت ظلال شجرة كثيفة الأغصان بالحديقة، وكان السيد ميسترى طيارًا بالقوات الجوية الهندية، طويل القامة، قوى البنية، أنيق الشارب، يمارس رياضة العدو فى الحديقة. عند وقوع بصره عليها، أذهله جمالها، لكن نظرة ساخرة عذبة من عينيها جعلته يتوقف عن التحديق فيها.

عرف كل منهما الآخر وأصبحا متآلفين بعد تكرار لقاءاتهما فى المروج الخضراء، حيث الأبقار تأكل العشب وتجرشه على مهل، وهى تتحرك إلى الأمام والخلف بقدر ما يسمح به القيد، الذى يربطها بآلة قطع الأخشاب الهائلة الصدئة، وحيث يتواجد ضريح "ماجال". وقبل أن ينصرم العام، وبينما أشعة شمس الغروب الذهبية تخترق المكان الهادئ الظليل الذى يشهد لقاءاتهما، قام السيد ميسترى بالتعبير عن رغبته فى الارتباط بها.

لم تستغرق وقتًا طويلاً فى التفكير، فقد سمحت لها هذه العلاقة العاطفية بالهروب من كآبة ماضيها،

ومن ملل حياتها الحاضرة، وكما يحدث لأى شخص عندما يستشعر الرغبة فى بلوغ سن الرشد، فقد أجابت بالموافقة.

الطيار والطالبة، الزرادشتى والهندوسية، خرجا من بين أطلال ضريح "ماجال"، وهما على يقين أن لا أحد غيرهما سيسعد بعلاقتهما الرومانسية الرائعة التى لا تأبه للاعتبارات الدينية. كانا يعتقدان أن الحظ قد حالفهما عندما وجد أحدهما الآخر، بعد أن كان كلاهما يعانيان الوحدة، وكانا سعيدين بفكرة أن كليهما أجنبيان بالنسبة إلى الآخر، فى الوقت نفسه الذى كانت عيونهما تهفو منذ نشأتهما إلى الحياة فى الغرب، حيث يمكنهما الغناء معًا على نحو متآلف، على صوت أوتار آلة الجيتار، يعتريهما شعور بأنهما أحرار وشجعان فى دولة حديثة وعالم حديث.

***

مبكرًا فى عام ١٩٥٥ زار جورباتشوف كشمير وأعلن أنها جزء من الهند، وفى وقت لاحق عرضت فرقة البولشوى باليه بحيرة البجع أمام جمهور دلهى الذى كان غالبيته من النساء اللاتى ارتدين لهذه المناسبة السارى المصنوع من أرقى أنواع الحرير، والجواهر الثمينة. وبالطبع شهد ذلك الوقت الأيام الأولى لاستكشاف الفضاء، فقد انطلق كلب اسمه "لايكا" إلى الفضاء على متن السفينة سبوتنك (٢) وفى عام ١٩٦١ سافر قرد يدعى "هام" إلى الفضاء،

وبعده وفى العام نفسه قام يورى جاجارين برحلته الشهيرة. ومع مرور السنوات لم يسافر إلى الفضاء الأمريكيون والسوفييت والكلاب والقرود فقط، بل سافر كذلك فيتنامى ومنغولى وكوبى وامرأة ورجل أسود. كما انطلقت أقمار صناعية ومكوكات فضاء إلى مدارات حول الأرض والقمر، وكوكب المريخ، ومنها من اقترب كثيرًا من كوكب الزهرة وزحل.

فى هذا الوقت وصل إلى الهند، فريق زائر من خبراء الطيران والفضاء السوفييت، مزودين بتعليمات من حكومتهم بالبحث عن مرشحين هنود لإرسالهم إلى الفضاء. وأثناء زيارة الفريق لمقار القوات الجوية فى العاصمة الهندية، لفت نظرهم السيد ميسترى ليس فقط لتفوقه على زملائه، ولكن أيضًا للعزيمة الحديدية التى كانت تطل من عينيه. وكان أن انضم السيد ميسترى إلى عدد قليل من المرشحين للسفر إلى الفضاء فى موسكو، لكن بعد أن قام بإدخال ابنته ساى البالغة من العمر ست سنوات، الدير نفسه الذى كانت والدتها قد سبقتها إليه من قبل.

فى الوقت الذى كان السيد ميسترى يخبر زوجته بما يواجهه من منافسة شديدة، وبما استقر فى يقينه أنه سوف يتم اختياره من بين زملائه ليصبح أول هندى يجتاز نطاق الجاذبية الأرضية، كان للأقدار رأى آخر. فبدلاً من أن ينطلق بجسده صوب الغلاف الجوى، لكى يرى ما أبدعه الخالق، كان فى انتظاره نوع آخر من الاجتياز، عندما دهمته وزوجته حافلة

تقل ثلاثين سيدة من أهل المقاطعات التى قاما بزيارتها مؤخرًا، ولقيا مصرعهما تحت عجلات حافلة أجنبية كانت تقل أجانب، دون أن تعلم ساى ابنتهما ما إذا كانت قد خطرت على تفكيرهما فى اللحظات الأخيرة قبل موتهما.

لأن موسكو لم تكن جزءًا من المنهج الدراسى فى الدير الذى التحقت به ساى، فقد رأتها بعين خيالها بنايات ضخمة متجهمة تحت سماء سوفيتية رمادية، وأناسًا ترتسم ملامح الكآبة على وجوههم، ومدينة غير أنثوية لا تشكو من ضعف، ولا تعنى بالزخرف.

قالت الأخت كارولين:

- أنا شديدة الأسف لسماع الخبر.. ساى، عليك أن تتحلى بالشجاعة.

- أنا يتيمة.. والداى لقيا مصرعهما.. أنا يتيمة

همست ساى لنفسها وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة فى غرفة الرعاية الصحية.

- والداى ماتا.. وأنا الآن يتيمة

غمرها شعور بكراهية الدير، جعلها لا تتذكر أى شىء سوى كلمات والدتها فى رسالة لها:

"عزيزتى ساى، الشتاء على الأبواب، وقد استعدينا له بالملابس الصوفية. التقينا بالسيد والسيدة شارما ولعبنا معًا الورق، وكالمعتاد استعان والدك بالغش لكى يفوز باللعب. لقد استمتعنا جميعًا

بتناول سمك الرنجة، الذى لابد أن تتذوقيه فى يوم ما".

كانت ساى قد بعثت برسالة إلى والدتها:

"عزيزتى ماما.. عزيزى بابا.. كيف حالكما.. أنا فى حالة طيبة. الجو حار هنا. أمس كان امتحان التاريخ، وكالمعتاد حاولت آرلين الغش".

أصبحت الرسائل المتبادلة بين ساى ووالديها مثل تمارين كتابة الرسائل التى تكتب فى فصول الدرس لأشخاص وهميين، فهى لم تكن قد رأت والديها منذ عامين كاملين، وافتقدت بذلك حميمية الاتصال المباشر بهما، ولذلك عندما حاولت ساى البكاء على فجيعة مصرع والديها وجدت البكاء عصيًا عليها.

***

فى حجرة الاجتماعات التى يعلو أحد حوائطها رسم على القماش للسيد المسيح، ارتسمت علامات القلق على وجوه الراهبات، ففى هذا الشهر لن يدخل خزينة الدير حوالة بنكية باسم السيد ميسترى تشمل تبرعات إلزامية تصب فى الصندوق الخاص بالصرف على الحافلة ودورات المياه، وعلى الاحتفالات.

ـ مسكينة، ولكن ماذا يمكننا أن نفعل؟

تعبير عن خيبة الأمل ارتسم على وجوه الراهبات لاعتقادهن أن ساى أصبحت تمثل مشكلة. لكن القدامى منهن يتذكرن أمها، وجدّها القاضى الذى لم

يزرها وكان يبعث بالنقود نظير بقائها فى الدير، أما جميعهن فيعرفن والد ساى الذى نشأ وكبر فى دار خيرية للأطفال اليتامى تتبع طائفة الزرادشتية على نفقة متبرع كريم طوال فترة وجوده فى المدرسة والجامعة، وحتى التحاقه بالقوات الجوية، كما يعرفن ما لحق بأم ساى من عار بعد زواجها دون موافقة عائلتها.

فى مدينة تمتلئ بالأقارب عانت ساى كثيرًا.

لم يكن هناك سوى اسم واحد ترجع إليه إدارة الدير فى حالة حدوث أى طارئ لساى، هو الرجل ذاته الذى كان يبعث للدير بالنقود نظير استمرارها فى الدراسة: جيمو بهاى باتيل، جدها لأمها، القاضى المتقاعد الهندوسى الديانة، من طائفة باتيدار.

لم تكن ساى قد التقت أبدًا بهذا الجد الذى كان فى عام ١٩٥٧قد تعرف على الرجل الإسكتلندى الذى قام ببناء تشو أويو قبل أن يعود إلى وطنه "ابردين".

"إنها منطقة منعزلة، لكن الأرض لها مستقبل فى إنتاج مادة الكينين لمعالجة الملاريا، والحرير المستخرج من دود القز، وحبوب الهال، وزهور الأوركيد"

لم يكن القاضى مهتمًا بالإمكانات الزراعية للأرض، وإن كان واثقًا فى كلمات الرجل الإسكتلندى المهذب. ويمضى الزمن، عندما ترجل القاضى من فوق ظهر الحصان، وفتح باب المنزل الفسيح ذى الإضاءة التى تشبه إضاءة الدير، التى تختلف بالطبع

عن ضياء الشمس فى الخارج، شعر أنه داخل بيت للعبادة وليس داخل منزل للسكنى.

أرضية المنزل مغطاة بألواح خشب عريضة تظللها العتمة، والسقف يشبه قفص حوت بدعامات من الخشب، عليها لا تزال علامات ضربات فأس. والموقد مصنوع من طوب حرارى بلون الفضة يلمع كذرات الرمل. وأوراق نبات السرخس المورق تخترق النوافذ من كل جهة. كان القاضى يعلم مدى شعوره بطول المنزل وعرضه، وبعلو ارتفاعه، وباختلاف خطوطه وزواياه. وفى الخارج، طيور ملونة تصفر وتغرد، وورود جبال الهيمالايا تصطف من بعيد فى صفوف صوب القمم ذات الوميض، فى مشهد يتبدى أمامه الإنسان صغيرًا جدًا، لا حول له ولا قوة. هنا على هذه الأرض، وفى هذا المكان النائى المنعزل، يمكن للقاضى الذى لم يعد يمارس عمل القضاء أن يستقر، ويجد العزاء فى كونه أجنبيًا فى بلاده.

***

قالت ساى: وداعًا لمعاندات الدير، ولصور الملائكة الجميلة المرسومة بألوان الباستيل، ولصورة المسيح على الصليب والدماء تنزف من جسده. وداعًا للملابس الثقيلة التى تنوء بارتدائها، كالسترة الرجالية ورابطة العنق والحذاء الأسود الشبيه بخف البقرة. وداعًا لصديقتها أرلين ماسيدو التلميذة الوحيدة التى نشأت فى بيئة لم تتمسك بالعرف والتقاليد، فوالدها

بحار برتغالى وأمها مصففة شعر صينية فى فندق كلاريدج فى دلهى.

وداعًا لأربع سنوات من الخوف، ومن التوسل بالحيل لتفادى عيون الراهبات، ومن الارتجاف أمام قواعد صارمة تجعل من هفوة عادية تحدث كل يوم جريمة تستحق العقاب. وداعًا للوقوف فى صندوق النفايات وعلى الرأس قبعة الغبى. وداعًا للوقوف على قدم واحدة فى قيظ الشمس والذراعان مفرودتان إلى أعلى فى الهواء. وداعًا للإعلان عن خطاياك فى طابور الصباح. وداعًا لعقوبة تلطيخ الوجه بالأحمر والأسود والأزرق والأصفر.

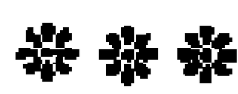
- عار عليك يا فتاة

قالت الأخت كارولين عندما لم تقم ساى بأداء واجبها المدرسى، وبالطبع كان العقاب فى انتظارها.

ربما كان النظام المتبع فى الدير قد استبدت به فكرة التطهر، لكن على نحو غير سوى، يكشف عن عقدة الذنب ويستحثها على الظهور. ربما كان هذا ما تسرب إلى أعماق ساى، أما الذى تعلمته فى الظاهر، فلم يخرج عن تعلم استعمال الشوكة والملعقة والسكين أثناء تناول الطعام، واحتساء قطرات من دم المسيح، وتناول كسرة خبز من جسده، وتفضيل الإنجليزية على الهندية.

***

ما من شيء تعلمته ساى، إلا ووقع ضحية المتناقضات المترسبة فى أعماقها: "لو تشينفار" و"طاغور"، الاقتصاد وعلم الأخلاق، رقصة الحصاد فى البنجاب، والنشيد الوطنى فى البنغال، والشعار المكتوب بحروف لاتينية لا سبيل إلى فهمها، ويزين جيوب السترة، أعلى مدخل الدير الذى يتخذ شكل قوس.



فى طريقها إلى "دارجيلينج"، عبرت ساى من تحت القوس والشعار للمرة الأخيرة، بصحبة راهبة زائرة كانت تدرس أحوال الدير المالية. من نافذة الحافلة التى أقلتها من ديهارادان إلى دلهى، ثم من دلهى إلى سيليجورى، أمكنهما التعرف على صورة شاملة للحياة فى القرية الهندية، وبدت لهما الهند لأول مرة أشبه بامرأة بلغت من العمر عتيًا.

نساء يحملن حطب الوقود فوق رءوسهن، وقد حال الفقر دون أن يرتدين سترات تحت السارى. فى ذلك الوقت المبكر من الصباح، وعلى قضبان السكك الحديدية الخالية من القطارات، اصطف عشرات من أصحاب المؤخرات العارية يقومون بقضاء حاجاتهم ثم بصب الماء من وعاء معدنى داخل علبة صفيح.

قالت الراهبة:

- أناس قذرون.. الفقر لا يبرر ما يقومون به، ولا تحاولى القول بغير ذلك.. لماذا يتوجب عليهم أن يفعلوا مثل هذه الأشياء هنا؟

قال طالب جاد يرتدى نظارة يجلس إلى جوارها:

ـ بسبب الشقوق الموجودة أسفل مسار قضبان السكك الحديدية.. لذلك هى مكان جيد.

لم تجب الراهبة. لكن المسافرين بالقطار أظهروا تأييدًا لرأى الطالب، دون أن يعنيهم فى شىء ما شاهدوه من النوافذ.

هادئة، تستشعر ساى أن ما سطره القدر فى انتظارها وتدرك بمعنى من المعانى ما سوف ينتظرها فى تشو أويو.

قالت الراهبة: لا تقلقى يا عزيزتى

لم تجب ساى، وبدا الضيق يساور الراهبة قبل أن تستقل سيارة أجرة تسير بها خلال جو رطب ومنظر طبيعى تلفه خضرة قاتمة وريح ذات صرير. مرت السيارة بمحاذاة أكشاك تقدم الشاى، ودجاج للبيع داخل سلال دائرية من جريد النخل، وأكواخ بداخلها تماثيل للآلهة دورجابوجا. كما مرت السيارة بحقول أرز ومستودعات تبدو متداعية لكنها تحمل أسماء شركات شاى شهيرة مثل رانجلى رانجليوت، وجوم، وجونيكاس.

ـ لا تدعى الشعور بالأسف على نفسك يسيطر عليك.. أنت لا تعتقدين أن الله ينظر إليك فى عبوس.. أليس كذلك؟

فجأة ظهر إلى جهة اليمين وبمحاذاة السيارة نهر تيستا، والرمال البيضاء، والشمس التى شقت طريقها

إلى داخل النافذة متوسلة بأشعتها الملونة المنعكسة على صفحة النهر، وعندئذ أدركت "ساى" المدى الفسيح والمتسع الذى ستجد نفسها فيه.

كانت المياه تتدفق بمحاذاة ضفة النهر، وشمس ما قبل حلول المساء تتسلل أشعتها من بين الأشجار، تاركة نقوشها على الأشياء والحياء. إلى الشرق كانت كاليمبونج تجاهد من أجل البقاء مكانها فوق صهوة الفرس بين ديولو وتلال رينجكينج بونج، وإلى الغرب كانت دارجيلينج على شفا التدحرج من أعلى جبال سينجاليلا.

حاولت الراهبة أن تقول شيئًا، لكن صوت جريان النهر حجب كلماتها، واكتفت بالتربيت على خد "ساى".

***

حل ظلام الليل سريعًا بعد مغيب الشمس، بينما السيارة تشق طريقًا لولبيًا شديد الانحدار والخطورة، حتى أن أقل خطأ فى حركة صعودها يجعلها تهوى من حالق. تلاحقت ضربات قلب "ساى"، وتراءى لها شبح الموت عند كل زاوية صعود. لم يكن هناك مصباح إضاءة واحد فى أى مكان فى كاليمبونج، والمصابيح داخل المنازل شديدة الخفوت لا ترى إلا عند المرور أمامها، وعند تجاوزها تختفى تمامًا. والعابرون فى العتمة لم يكن فى حوزتهم كشافات أو شموع، وإن كانوا يتحسسون خطواتهم على ضوء أنوار السيارة

التى لم تعد تسير فى طريق أسفلتى، بل فى طريق غير ممهد انتهى بها إلى منطقة جرداء فى وسطها بوابة يحدها عمودان حجريان، عندهما أوقف السائق محرك السيارة وأطفأ أنوارها وعندئذ لم يكن هناك فى المكان القفر غير أصوات الغابة البعيدة.

## - ٧ -

يا إلهى.. هذا الجد أكثر شبهًا بالسحلية منه إلى الإنسان.. وهذا الكلب أكثر شبهًا بالإنسان منه إلى الكلب. تحدث ساى نفسها وهى تقلب النظر فى ملعقة الحساء التى تمسك بها فى يدها.

فى معرض الترحيب بها، قام الطباخ بصنع عربة من معجون البطاطس، مستدعيًا مهارته القديمة التى كاد أن ينساها، عندما كان يصنع قلاعًا مزينة بأعلام ورقية ويصنع حلقة فى خياشيم سمكة، ويشكل من ضلوع أوراق الكرفس صورة مقربة لطائر أو حيوان أليف، ويأتى ببيض دجاج حقيقى ويضعه فى طبق يحوى دجاجة مطهوة ، لإحداث جو من الفكاهة على مائدة الطعام.

العربة المصنوعة من معجون البطاطس، إطاراتها الأربعة من شرائح ثمرة طماطم، وديكوراتها من قطع الورق المعدنى الفضى، التى يتعامل معها الطباخ باعتبارها معدنًا ثمينًا ينظفه ويجففه ويعيد استعماله

أكثر من مرة إلى أن يتحول إلى قطع صغيرة متناثرة، ومع ذلك يتردد كثيرًا فى إلقائها بعيدًا.

استقرت العربة من معجون البطاطس فى وسط المائدة بصحبة قطع من لحم الضأن على شكل مجدافى مركب محملة بفاصوليا خضراء، وثمرة قرنبيط تبدو تحت صلصة الجبن، وكأنها فصوص مخ. ويتصاعد من كل الأطباق سحب بخار كثيف تحمل نكهة الطعام إلى وجه ساى، التى بعد أن قل البخار المتصاعد قامت بإلقاء نظرة أخرى على جدها الجالس على الطرف البعيد للمائدة وإلى جانبه على كرسى مجاور الكلبة، التى كانت تبتسم ورأسها منحنيًا قليلاً، تضرب بذيلها الكرسى محدثة صوتًا مكتومًا. لكن القاضى بمظهره المتغضن الذابل فى قميصه الأبيض وسرواله الأسود المثبت إلى جانبه بإبزيم، بدا وكأنه لم يلحظ وصول ساى.

كانت ملابسه من نسيج بال لكنها نظيفة، وقد كواها الطباخ، الذى يقوم بكى كل شىء، المنامات والمناشف والجوارب والملابس الداخلية والمناديل. بدا وجهه خاليًا من الود، وكأن مسحوقًا أبيض ـ ربما كان البخار ـ قد غطى لون بشرته الداكنة، التى تفوح منها رائحة ماء كولونيا، هى أبعد ما تكون إلى رائحة العكر وأقرب كثيرًا إلى رائحة سائل مضاد للجراثيم.

كان هناك ما يعطى انطباعًا بالمداهنة فى خطوط وجهه القابلة إلى الانحدار، وفى جبهته العريضة

الخالية من الشعر، وأنفه المتغضن، وذقنه الملتوى، وندرة حركته، وشفتيه الرفيعتين، ونظرته المحدقة الثابتة. ومثل غيره من كبار السن بدأ يسرح بفكره طويلاً إلى الماضى، ودون اهتمام يذكر بالتفكير فى قادم الأيام.

أخيرًا، رفع بصره وحدق طويلاً فى ساى

- حسنًا، ما اسمك؟

- ساى

- ساى؟

نطق باسمها بطريقة يستشف منها رداءة طبع، أو كما لو أنه غضب من صفاقة أحد. وسرعان ما صدر صوت عطسة من الكلبة، التى لها أنف أنيق وبقعة لونية علامة على نبالة أصل فى أعلى رأسها، والتى ترتدى سروالاً مزركشًا عند الذيل وتتمتع بمظهر حسن لا مثيل له فى عين ساى.

- كلبتك أشبه بنجمة سينما

- ربما تشبه أودرى هيبورن

قال القاضى محاولاً ألا يظهر سروره بهذه الملاحظة:

- ولكنها بالتأكيد لا تشبه واحدة من تلك الصور المرعبة فى الملصقات التى تباع فى المحال التجارية.. أين الحساء؟

أدرك القاضى وهو يمسك بملعقته أن الطباخ نسى إحضار الحساء أثناء انشغاله بصنع العرية من معجون البطاطس، فضرب المائدة بيده ساخطًا على عدم احترام النظام، بإحضار الطبق الرئيسى قبل الحساء.

وفجأة، تنخفض قوة التيار الكهربائى، ليزيد ضيق واستهجان القاضى مع صوت طنين من المصباح الكهربائى مشابه لصوت انزلاق خنفساء على ظهرها فوق المائدة. وسرعان ما قام الطباخ بإطفاء كل المصابيح الكهربائية الأخرى فى المنزل، حتى يقوى التيار الكهربائى فى المصباح الوحيد المشتعل، الذى حولهم إلى أربع عرائس من الظلال قادمة من حكاية خرافية، تعكس ظلالها المرتعشة على الطلاء الخشن للجدران أشكال: الرجل السحلية، الطباخ ذو الظهر المحدب، الصبية فى مقتبل العمر، والكلبة الوولف طويلة الذيل.

- يجب أن تكتب لذلك الأحمق المسئول عن الكهرباء ومع ذلك سوف لن يجدى هذا نفعًا.

قال القاضى ذلك، أثناء إمساكه بسكين ليعدل من الوضع المقلوب للخنفساء حتى توقف من طنينها الذى كان مصدر فزع للكلبة مات، التى نظرت إلى القاضى نظرة شكر وامتنان.

***

كان الطباخ يحمل إناءين بهما حساء الطماطم ذو النكهة الحريفة، وهو يغمغم قائلاً: لا أحد يشكرنى على أى شىء، فلم أعد شابًا ولست فى حالة صحية طيبة.. أمر فظيع أن يصاب المرء بداء الفقر.. أمر فظيع.

تناول القاضى مقدار ملعقة من إناء القشدة البيضاء وأضافه إلى حساء الطماطم بلونه الأحمر، وقال لحفيدته:

ـ حسنًا، يتعين على المرء ألا يزعج الآخرين، كما يتعين علىّ أن أجلب لك المعلمة التى تقطن على سفح التل، فليس من اليسير التعلم فى مدرسة للراهبات، وعلى أية حال، ليس فى وسع المرء استخدام وسيلة مواصلات مريحة بعد الآن، كما لا يمكن إرسالك إلى مدرسة حكومية، فأنت تتكلمين بلهجة غريبة.

أصبح ضوء المصباح الكهربائى ضعيفًا جدًا، ربما إلى الدرجة التى كان عليها عندما كشف "أديسون" عن اختراعه المعجزة، ثم بدأ المصباح يتخذ شكل هلال أزرق صغير إلى أن انقطع التيار الكهربائى تمامًا، الأمر الذى جعل القاضى يصيح:

ـ عليك اللعنة

***

فى وقت متأخر من المساء، استلقت ساى على سريرها، وغطت جسدها بمفرش المائدة، بعد أن أصاب البلى مفروشات المنزل، وبدأت تستشعر

الحضور القوى للغابة فى وعيها، وتصيخ السمع إلى صوت قرقعات أعواد الخيزران وإلى خرير مياه نهرٍ جهورا التى تصب فى الجبل. فى ظلمة أول الليل، ومع سكوت أصوات منْ فى المنزل، بدأت الغابة تعلن عن حضورها وصوتها النقى العذب.

بدا المنزل فى حالة هشة وغير منسجمة مع ليل الغابة، فصفيح السقف يصدر خشخشات مع هبوب الريح. وعندما حركت ساى قدميها لمست أصابعها نسيج الفراش المتهرئ، وداخلها على الفور شعور بالخوف من الفضاء الواسع، التى وجدت نفسها فيه. فجأة وكأن بابًا سريًا انفتح أمام أسماعها، أدركت ساى أن فى الغابة أصواتًا من الصعب تحديدها والتعرف عليها، ولا يمكنها إلا أن تهيئ وعيها لقبول كل ما يصدر عن الغابة من أصوات مبهمة وغامضة.

-٨-

فى الردهة، بالقرب من حجرة "ساى"، ابتلع القاضى قرصًا مهدئًا، بعد القلق الذى انتابه مع قدوم حفيدته. كان مستلقيًا على السرير وإلى جانبه الكلبة "مات"، التى نظر إليها وقال: "لكم هى طويلة أذناك ذات التجاعيد يا صغيرتى". فى كل ليلة تنام "مات" واضعة رأسها على وسادته، وفى الليالى الباردة، تلف نفسها فى شال من نسيج صوف الأرنب، وتغط فى النوم مع ترك إحدى أذنيها لسماع صوت القاضى.

أمسك القاضى بكتاب وحاول القراءة، ولكنه لم يستطع، فقد أدرك لدهشته أنه كان يفكر فى رحلاته التى قام بها، وفى محطات المغادرة والوصول من وإلى أماكن بعيدة. كان فى العشرين من عمره عندما غادر وطنه للمرة الأولى، وحمل معه صندوقًا معدنيًا أسود، تمامًا كالصندوق الذى أتت به "ساى"، وكتب عليه بحروف بيضاء "جيه. بى. باتل". كان ذلك فى

عام ١٩٣٩ عندما غادر وطن أجداده "بيفيت" متوجهًا إلى "بومباى"، ليبحر منها إلى "ليفربول"، ثم يأخذ طريقه إلى كمبردج. مرت سنوات على هذه الذكرى التى تعاوده كثيرًا وبوضوح شديد.

اثنان متقاعدان من فرقة الموسيقى العسكرية، استأجرهما والد زوجته ليعزفا لقاضى المستقبل فى مناسبة مغادرته أرض الوطن. كان كلاهما يرتدى معطفًا أحمر ملطخًا بالبقع وبه أزرار معدنية غير متجانسة عند الكم والياقة، أثناء وقوفهما بين منبسطين مرتفعين عن رصيف محطة القطار.

بينما كان الأب بصحبة ابنه فى القطار الذاهب إلى بومباى، كانت الأم تبكى فى المنزل، لأنها لم تستطع أن تقول لابنها فى لحظات الوداع القصيرة كل ما كانت تريد قوله له. ولذلك كانت كلماتها الأخيرة لزوجها: "لا تدعه يذهب.. لا تدعه يذهب". لكنه ذهب، بشاربه الخفيف الذى يبعث على الابتسام، وبحبه لطعام والدته الذى لن يحصل عليه فى إنجلترا، وبكراهيته للبرد الذى سيعانى منه كثيرًا هناك، وبسترته الصوفية التى قامت والدته بنسج خيوطها الملونة، على نحو يظهر مدى حبها له، وبقاموس إكسفورد للغة الإنجليزية، وبثمرة جوز الهند المزخرفة التى سيقذفها وسط أمواج المحيط متمنيًا مباركة الآلهة لرحلته.لم تنقطع ثرثرات الأب والابن منذ الصباح وحتى بعد الظهيرة، وكان المنظر الطبيعى

الذى لم يدركه جيدًا من قبل قد خلف فى نفسه أثرًا قويًا أثناء جلسته بالقطار، الذى يقطع المسافات بسرعة كبيرة. بدأ ينظر إلى حياته نظرة استخفاف ويستشعر فى قلبه فراغًا وخوفًا ليس مما سيواجهه فى قادم الأيام وإنما من ماضيه ومن إيمانه الأحمق بحياته فى وطنه الصغير "بيفيت".

أجبرته رائحة حوض سفن بومباى الجاف والكريه المنبعثة من بقايا المراكب وسقالات الخشب على قطع مسار تفكيره للحظة، وبعد أن تابع القطار سيره إلى منطقة جديدة، انتابته المخاوف مرة أخرى. فكر فى زوجته التى عقد قرانه عليها منذ شهر واحد... سيعود بعد سنوات عديدة من الآن.. ثم ماذا بعد؟.. الغريب أن عمرها لم يتجاوز الرابعة عشرة، وانه لم يكد يتبين ملامح وجهها جيدًا.

اجتاز القطار الخليج الصغير الضيق متوجهًا إلى محطة قطارات فيكتوريا فى بومباى، وهناك كان على الأب والابن أن يبيتا ليلتهما فى فندق يعرفه صهرهما جيدًا، وأن يستيقظا مبكرًا ويتوجها إلى ميناء "بالاردبير".

عندما أدرك "جيموباى" لأول مرة أن المحيط يسافر حول العالم، استحوذت عليه هذه الحقيقة على نحو قوى، لكنه الآن وقد وقف فوق ظهر السفينة ناظرًا إلى البحر، الذى لا يبدو له نهاية، تسلل الخوف إلى قلبه. موجات صغيرة تضرب فى وهن جانب السفينة التى تستعد للرحيل، فى الوقت الذى تعلن

فيه الماكينات عن صوتها القوى. مع إطلاق السفينة صفاراتها الثلاث، كان والد "جيمو" على رصيف الميناء يتطلع بأنظاره إلى سطح السفينة حيث يستقر ابنه.

- لا تقلق.. التحق بالفصل الدراسى أولاً.

صاح الأب بأعلى الصوت، لكن نبرات صوته القلقة المروعة لم تعكس ما كان يريده من إدخال الاطمئنان إلى قلب ابنه. وأضاف بصوت زاعق:

- إلق بثمرة جوز الهند

نظر جيمو إلى والده صاحب الحظ القليل من التعليم الذى واتته جرأة لا تليق به. فاستشعر فى قلبه حبًا له ممتزجًا بالرثاء وبشىء من الخجل والعار. فى الوقت نفسه ارتفعت يد الأب الواقف على رصيف الميناء وغطت فمه، وداخله شعور غامض بأنه خذل ابنه.

شقت السفينة بمقدمتها المياه الفضية الساكنة التى تسبح فيها أسماك صغيرة، وسط الأصوات المرتفعة الحادة المبللة بالدموع، وشيئًا فشيئًا خفتت الأصوات وغامت المرئيات، وسرعان ما اختفى الشاطئ فى الضباب والغيم ومعه والده. لم يلق جيمو ثمرة جوز الهند المزخرفة ولم ينفجر بالبكاء.. ربما لن يعرف أبدًا مثل هذا الحب غير المزيف الذى يحمله له والده ووالدته. خلفت السفينة وراءها فنار "كولابا" وغذت السير فى المحيط الهندى حيث لا شىء غير البحر من كل جانب.

كان من السخف أن يشعر القاضى بالقلق لوصول "ساى" وأن يسمح لهذا القلق بأن يستدعى ذكريات الماضى، لكن من غير شك أثار صندوق "ساى" صفحات ذاكرته التى عاد إلى تقليبها من جديد.

عند دخوله الكابينة، تعرف على رفيقه فيها الذى كان قد نشأ فى كلكتا وعمل عازفًا للسوناتات اللاتينية ذات الأحد عشر مقطعًا التى جلب نوتها الموسيقية معه على ظهر السفينة. أصوات حادة متشنجة صدرت من انف رفيق الكابينة بسبب صرة من ورق الجرائد تحتوى مخلل البصل والفلفل الأخضر، وأصابع موز فسدت بفعل الجو الحار، أصرت والدته على أن يحملها معه ليتناولها أثناء الرحلة البحرية، إذا شعر بالجوع وافتقد الشجاعة التى تجعله يذهب إلى قاعة الطعام بالسفينة لعدم إتقانه تناول الطعام بالشوكة والسكين.

كان "جيمو" غاضبًا؛ لأن والدته فى محاولتها مساعدته على تفادى المهانة، هاهى على العكس من ذلك، قد نجحت فى أن تضيف له مهانة أخرى. أمسك "جيمو" بصرة المخلل والموز الفاسد، وتوجه إلى سطح السفينة وألقى بها فى المياه. هل فكرت والدته للحظة فى أن ما قامت به من أجل ابنها قد لا يكون ملائمًا؟... إنه الحب على الطريقة الهندية برائحته الحريفة... الحب المفتقد للجمال... ربما لدى القوى الشريرة التى تسكن المحيط قبل طلوع الفجر تلك العاطفة المتهافتة التى لدى والدته التى قامت بشجاعة

لا يحسد عليها بإعداد صرة المخلل والموز لتصحبه فى رحلته؟. خفتت حدة رائحة الموز الفاسد ومخلل البصل والفلفل بالكابينة، لكن الأهم هو أن الرائحة العطنة للخوف والوحدة لم تخفت حدتها بعد.

فى سريره بالكابينة أثناء الليل، استمع إلى صوت ضربات الموج القاسية للسفينة، وفكر فى المرات القليلة التى عاشر فيها زوجته، وكيف أنه لمح للحظات خاطفة تعبيرًا على وجهها، وكيف فى كل مرة يستدعى بذاكرته جسد امرأة يستشعر استثارة فى جسده ملحة لكن على نحو جبان، متوسلة لكن فى شىء من غرور.

رست السفينة بميناء ليفربول، وعزفت الموسيقى لحن أرض الأمل والعظمة، وشاهد "جيمو" رفيق الكابينة مرتديًا بدلة من صوف التويد وهو ينادى على الحمال ليساعده فى حمل حقائبه، ودهش من أن رجلاً أبيض يحمل حقائب رجل بنى اللون، لكنه حمل حقائبه بنفسه وتوجه إلى محطة القطار وهو يتعثر فى خطواته. وبينما القطار يقطع المسافات الشاسعة من الحقول فى طريقه إلى كمبردج، دهش "جيمو" للفرق الكبير بين البقرة الإنجليزية السمينة الشبيهة بالصندوق وبين البقرة الهندية الهزيلة.

مشاهد تبدت لعينى "جيمو" وأثارت دهشته، فهذه إنجلترا التى يبحث فيها عن حجرة يسكنها، تتجاور فيها وتتلاحق بيوت رمادية صغيرة على جانبى شوارع رمادية... إنجلترا التى لم يكن يتوقع منها غير

الفخامة والعظمة، فاجأته بأنه من الممكن أن يتواجد بين جوانبها فقراء يعيشون حياة تفتقر إلى الرفاهية، وبينما هو يستشعر خيبة أمله فى توقعاته، كذلك خاب أمل كل من فتحوا له أبوابهم وأجابوه:

"لقد استأجرت على التو.. كل الحجرات مشغولة.

كان قد طرق أبواب اثنتى وعشرين حجرة من قبل أن يصل إلى عتبة باب مسز "رايس" فى ثورنتون رود"، التى لم تكن راغبة فى أن تؤجر له، لكنها كانت فى حاجة إلى المال، وكان منزلها فى حالة متردية ويقع على الجانب الآخر من محطة القطار التى تواجه الجامعة، ولم تكن تتوقع أن تجد مستأجرًا لإحدى حجراته.

مرتان فى اليوم، كانت تضع أمام حجرته طبقًا مسطحًا به بيضة وخبز وزبد ومربى ولبن، لكن بعد عدد من الليالى التى هجره النوم فيها وهو يستمع إلى الأصوات الصادرة من معدته نصف الخالية، ويفكر دامع العينين فى أسرته فى "بيفيت" التى ربما تعتقد أنه يتناول عشاءً شهيًا كالذى تتناوله ملكة إنجلترا... استطاع أن يمتلك الشجاعة الكافية لكى يطلب من "مسز رايس" وجبة عشاء مناسبة.

- نحن لا نتناول الكثير فى وجبة العشاء جيمس، حتى لا تثقل معدة بابا

كانت مسز رايس تخاطب زوجها "بابا"، وتطلق على "جيموياى" اسم "جيمس"... لكن فى تلك الليلة

وجد "جيمو" فى الطبق فاصوليا يتصاعد منها البخار وشرائح خبز.

- شكرًا، وجبة شهية

قال لمسز رايس التى كانت تجلس إلى النافذة وترنو إلى البعيد... وفى وقت لاحق تعجب من امتلاكه ذلك القدر من الشجاعة، لأنه سرعان ما خسر كل ما لديه منها.

سجل اسمه للدراسة فى "فيتزوليم" بعد اجتيازه امتحان القبول بكتابة مقال حول أوجه الشبه والاختلاف بين الثورتين الفرنسية والروسية... فى تلك الأيام كانت كلمة "فيتزوليم" تثير الابتسام؛ لأنها أكبر قليلاً من مكان تلقى فيه الدروس وأقل من الكلية، لكنه مع ذلك بدأ الدراسة على الفور؛ لأنه يعلم أن المهارة الوحيدة التى يمكنه حملها من بلد إلى آخر هى مهارة البحث والتحصيل.

كان يعمل لمدة اثنتى عشرة ساعة متصلة، تمتد حتى وقت متأخر من الليل، وفى عزلته هذه فشل فى أن يقدم نفسه بشجاعة إلى العالم الجديد من حوله، واكتشف أن جبنه ووحدته قد وجدتا التربة الخصبة، فكان لجوئه إلى العزلة أصبح عادة، وصارت العادة هى نفسه التى تنحو إلى منطقة الظل. لكن الظلال برغم كل شىء ، تخلق قانونها المضطرب غير المستقر، فبالرغم من محاولاته للاختباء إلا أنه كان يؤكد على شىء يثير الارتياب عند الآخرين، الذين لم يتحدثوا

إليه مطلقًا لأيام بطولها حتى أن حنجرته كانت تختنق بالكلمات التى لم تتفوه بها، وقلبه وعقله أصابهما التبلد والبؤس... كانت نساء حظهن من الجمال قليل يتركن مكانهن فى الحافلة إذا ما جلس إلى جوارهن، والفتيات الصغيرات الجميلات بغير رقة كن يقرين رءوسهن وينفجرن فى الضحك، ويقلن فى صوت خافت: "له رائحة الكارى!".

بدأ عقل "جيمو باى" يفقد سلامه، ربما لأنه شب وكبر غريبًا إلى نفسه قبل أن يصبح غريبًا بالنسبة إلى الآخرين بسبب اختلاف لون بشرته ولهجته... ربما نسى كيف يضحك وأمكنه بالكاد أن يحرك شفتيه ليبتسم، وفى كل مرة يفعل فيها ذلك يخفى فمه بيده؛ لأنه لا يحتمل أن يرى أى شخص أسنانه أو أن يتهم بأن رائحة فمه غير طيبة... استحوذت عليه أيضًا فكرة الاستحمام فى كل صباح مع حك جسده بفرشاة خشنة لطرد الرئحة العالقة به، ورائحة النوم الثقيلة الملتصقة بنسيج البيجاما التى يرتديها أثناء النوم.

كان يرتاب كثيرًا فى أن ضوء الشمس قد يكشف للآخرين عن وضعه المزرى، لذلك كان الظل أفضل لديه من النور، والأيام الشاحبة الضوء أقرب إلى قلبه من الأيام التى يسطع فيها قرص الشمس... كما أخذ على نفسه عهدًا بألا يراه أحد من غير أن يكون مرتديًا جوربه وحذاءه.

لم ير شيئًا من الريف الإنجليزى، وفاتته مشاهدة النقوش على جدران وأسقف المبانى الجامعية، وأعمال التصوير التى تزدان بها الكنائس، ولم يستمع إلى كورال الأولاد والبنات، ولم يشاهد انعكاس خضرة الحقول على سطح النهر، وطيور البجع، التى يتردد صدى أصواتها عبر الحدائق.

كان إذا ما لمسه أحد، يثب مروعًا وكأنه غير مستعد لتقبل ألفة أو مودة... فزع عندما بادرته بالتحية امرأة بدينة تدير المتجر القريب

- كيف حالك.. يوم جميل.. ماذا يمكننى أن أجلب لك.

- ..............................

- قل ثانية يا بنى

لم تكن قد سمعت غمغمته، فأحنت رأسها فى اتجاهه حتى يمكنها تفسير كلماته، لكن صوته بدا وكأنه قد اختنق بدموع الرثاء لنفسه إزاء مودة باغتته من غير قصد.. وكف عن التردد على متجر المرأة البدينة، وبدأ يرتاد متاجر أخرى أكثر بعدًا. وعند شرائه فرشاة أسنان قالت له فتاة المتجر الجديد إن زوجها يستعمل نفس النوع، عندئذ غمره شعور بأن له الاحتياجات الإنسانية ذاتها التى لدى الآخرين، وهو شعور أكثر جسارة من تقبله مودة مباغتة من غير قصد.

أشعل القاضى المصباح، ونظر إلى تاريخ انتهاء الصلاحية المسجل على علبة الأقراص المهدئة، وأدرك أنها لا تزال صالحة، وتعجب من أن القرص المهدئ لا يجلب له النوم بل يجلب له أحلامًا كابوسية، وظل على حاله مستلقيًا حتى بدأت الأبقار تحدث جلبة فى الضباب الكثيف فى الخارج، وديك العم "بوتى" يطلق صيحات قوية تشير إلى استعادة عافيته بعد أن أمسك به العم بوتى، وقلبه رأسًا على عقب، وأدخل رأسه فى وعاء معدنى، وتخلص من ذبابة ضخمة موجودة فى مؤخرته بتوجيه رشات كثيفة من مبيد الحشرات.

بعد أن جمعته مائدة الإفطار بحفيدته مرة أخرى، طلب القاضى من الطباخ أن يصحبها معه لتلتقى بالمعلمة "نونى" التى تسكن على بعد ساعة سيرًا على الأقدام فى طريق طويل ملتو يخترق التلال، يعلو تارة ويهبط تارة أخرى. أثناء سيرهما كان الطباخ يطلع "ساى" على معالم وطنها الجديد، يشير إلى البيوت ويخبرها بمن يشغلها، كالعم "بوتى" أقرب جار لهم بعد قيامه منذ سنوات بشراء أرضه الحالية من القاضى، والذى يقضى كل مساء فى الشراب بصحبة صديقه الأب "بووتى"، وقد جمع بينهما احمرار العيون التى تشبه عيون الأرانب، ولون أسنانهما البنى بسبب شراهتهما للتدخين.

أشار الطباخ إلى أحواض لتربية الأسماك ومخيم تابع للجيش ودير أعلى تل "درين"، وعند المنحدر دار

أيتام ومزرعة دواجن يجلب منها البيض، تسكن فى مواجهتها أميرتان أفغانيتان كان والدهما قد سافر إلى برايتون بإنجلترا فى إجازة وعند عودته كان البريطانيون قد وضعوا آخر على العرش، بعد ذلك منح الزعيم نهرو حق اللجوء للأميرتين. وأشار إلى منزل صغير تعيش فيه مسز "سن" وابنتها التى غادرت إلى أمريكا، ونونيتا "نونى" التى انتقلت لتعيش مع شقيقتها لوليتا "لولا" فى بيت صغير مغطى بالورود يسمى "مون آمى"، بعد أن توفى زوجها نتيجة نوبة قلبية. ولما كان معاش لولا لا يغطى نفقات إصلاح المنزل والارتفاع المتزايد فى أسعار السلع ورواتب الخادمة وعاملة النظافة والحارس والبستانى، فقد قبلت نونى طلب القاضى لكى تقوم بالتدريس لساى العلوم وحتى أدب شكسبير حتى يمكنها المساهمة مع شقيقتها لولا فى نفقات المعيشة. لكن عندما بدأت قدرات نونى فى الرياضيات والعلوم لا تسعفها فى تدريس ساى عند بلوغها سن السادسة عشرة، اضطر القاضى أن يستعين بـ"جيان" لكى يقوم بتدريسها بدلاً من نونى.

- هذه الصغيرة ساى

قدمها الطباخ إلى الشقيقتين لولا ونونى اللتين قامتا بتحيتها فى حزن باعتبارها طفلة يتيمة وثمرة علاقة رومانسية فاشلة بين الهند والسوفييت، قالت لولا:

ـ كان من الحمق اندفاع الهند إلى الاتجاه الخطأ.. نونى، هل تذكرين تشوتو وموتو عندما سافرا إلى روسيا؟.. ما شاهداه هناك من أشياء غير معقولة لم يريا مثيلاً له حتى فى الهند.

ـ أيضًا، هل تذكرين جيراننا الروس فى كلكتا، الذين كانوا يمارسون رياضة العدو كل صباح ويعودون محملين بكميات ضخمة من الطعام؟.. كانوا يقضون وقتًا طويلاً فى إعداد كميات كبيرة من الطعام، الذى لا يخلو من البصل ويلتهمونها، ثم فى المساء يسارعون إلى السوق ويعودون بعد احتساء الشراب محملين بالمزيد من البصل لإعداد طعام العشاء.. لقد كانت الهند وأسواقها بالنسبة لهؤلاء الروس أرض الوفرة.

لكن بالرغم من رأى لولا ونونى فى والدى ساى وفى روسيا فقد كبر حبهما لساى مع مرور السنوات.

## - ٩ -

- يا إلهى

برغم شخصيتها القوية، أطلقت لولا صرخة خافتة عند سماعها بسرقة بنادق القاضى من تشو أويو، وقالت:

- ماذا لو هاجم هؤلاء الرعاع مون آمى؟.. من المؤكد أنهم قادمون، ولا شىء يمنعهم حتى وإن لم نملك شيئًا، فهم قد يقتلون من أجل الحصول على خمسين روبية

- لكن لديك حارسًا

قالت ساى وهى شاردة الذهن تفكر فى جيان الذى لم يحضر يوم حدثت السرقة، وفى مشاعره نحوها التى ربما تكون قد خفتت حدتها.

- بدهو؟.. لكنه نيبالى.. من يثق فيه الآن؟.. دائمًا يكون الحارس متورطًا فى حادث سرقة، ويبلغ الشرطة بينما يكون قد اقتسم الغنائم مع اللصوص.

هل تذكرين السيدة سوندب؟.. كان يعمل لديها ذلك النيبالى، وعند عودتها من كلكتا فى أحد الأعوام اكتشفت سرقة كل شىء موجود بالمنزل، الأثاث والمفروشات وأدوات المائدة ومفاتيح الكهرباء ومحابس وأنابيب المياه. أحد هؤلاء اللصوص كان يحاول سرقة كابلات الكهرباء الممتدة إلى جانب الطريق، وعثر عليه وقد صعقه التيار الكهربائى. وبالطبع اختفى الحارس بعد عبوره الحدود عائدًا إلى نيبال.

يا إلهى.. نونى، من الأفضل أن نطلب من ذلك البدهو الرحيل.

قالت نونى:

- اهدئى.. لم يصدر منه أى شىء، كيف يمكننا أن نفعل ذلك؟

فى حقيقة الأمر، كانت الشقيقتان اللتان وصلتا معًا إلى سن متقدمة يجدان كل العون من بدهو فى منزلهما مون آمى، الذى يضم قطعة أرض صغيرة مزروعة بالخضراوات، كالقرنبيط الذى جلب بدهو بذوره من إنجلترا، والفاكهة التى يحصلان منها على ما يكفيهما من كمثرى، يقمن بطهيها على نار هادئة طوال أيام موسمها، والمتبقى منها يصنعن منه النبيذ. كما كانت تعلقن سراويلهما من محال ماركس آند سبنسر على حبل غسيل يمتد بين جدارين أحدهما به كوتان اعتادتا النظر من خلالهما لمشاهدة فضاء كانتشنجونجا الملبد بالغيوم.

في مدخل المنزل، علقت تميمة الروح الحارس، كما احتوت حجرة الاستقبال مجموعة من الحلى الصغيرة وطاولات خشبية من التبت، عليها نقوش بالمعدن الأخضر المحروق، ومجموعات من الكتب من بينها مجلد لوحات الفنان الروسى الأرستقراطى نيكولاس روبرتيش التى تصور جبال الهيمالايا، ودليل الطيور لسالم على، وأعمال جين أوستن الروائية. وفى حجرة الطعام قطع من الخزف الثمين محفوظة داخل خزانة خشبية، وإناء نفيس جميل فوق إحدى الموائد عليه نقش أسد متَّوج وحيوان أحادى القرن وإهداء مكتوب بأحرف مذهبة إلى جلالة ملكة إنجلترا.

من أجل حراسة المنزل وحمايتهما، استأجرت الشقيقتان بدهو، العسكرى المتقاعد، صاحب البندقية الضخمة والشارب الكبير، والذى كان شاهدًا على العمليات العسكرية ضد فصائل المتمردين فى أسام. فى التاسعة من مساء كل ليلة يأتى بدهو راكبًا دراجته ويعلن عن قدومه بإطلاق صوت الجرس المركب فى أعلى مقودها، وعند اقترابه من المضخة بالحديقة يترجل من دراجته ويضعها جانبًا.

- بدهو

تسأل إحدى الشقيقتين الجالستين فى سريرهما يرتشفان شراب البراندى ويستمعان إلى أخبار هيئة الإذاعة البريطانية.

- بدهو

- نعم

يعودان من جديد إلى أخبار الراديو، الذى كان يستحوذ على جانب كبير من اهتمامهما، تمامًا كاهتمامهما بمشاهدة مسلسل "نعم سيدى الوزير" و"ابن القصر" اللذين يصوران رجالاً بوجوه نضرة راضية، وفى العادة كان بدهو يصعد إلى سطح المنزل ليحرك هوائى جهاز التليفزيون الأبيض والأسود، والشقيقتان تصيحان عبر النافذة فى اتجاهه إلى أعلى: يمين، يسار قليلاً.. لا.. توقف.. إلى الخلف قليلاً.

من وقت لآخر أثناء الليل، يخرج بدهو للتجول حول مون آمى ضاريًا بعصاه الأرض ونافخًا فى صفارة، حتى تسمعه لولا ونونى ويشعران بالأمان، إلى أن تومض الجبال بالضوء، ويذوب الضباب فى أشعة الشمس الحارقة، فتستيقظ كلتاهما.

لم يكن هناك أى سبب يدعو لولا ونونى إلى وضع ثقتهما فى بدهو الذى فى مقدوره قتلهما أثناء الليل!

- لكن إذا قمنا بطرده، عندئذ يتملكه الغضب وقد يقوم بعمل شىء ما

- نونى.. أقول لك إن هؤلاء النيباليين لا يمكن الثقة بهم برغم عدم قيامهم بالسرقة وعدم تفكيرهم فى القتل.

أطلقت لولا تنهيدة وقالت:

- حسنًا.. منذ متى كان هذا المكان آمنًا؟.. لقد انتقلنا إلى هنا عندما كانت الفوضى تعم كاليمبونج.. أتذكرين؟.. لا أحد يعلم من كان جاسوسًا ومن لم يكن.. ذلك بعد أن قامت بكين بتسمية كاليمبونج بمركز النشاط المناهض للصين.

كان الرهبان فى مسوحهم الحمراء قد تدفقوا فى صفوف كألسنة النار هاربين من التبت إلى ممرات الجبال، سالكين طرق تجارة الملح والحرير، كما هرب أيضًا الأرستقراطيون، الذين كانوا يرتادون صالة جيمخانا للرقص ويثيرون دهشة السكان المحليين بسبب مظهرهم، الذى لا يدل على وطن معين وإنما يشى بأن وطنهم هو العالم كله. وفى تلك الأوقات التى شهدت سفوح التلال فيها اضطرابات سياسية، كان يصاحبها دائمًا الشح الشديد فى الغذاء.

- نونى.. من الأفضل أن نسارع إلى السوق قبل أن يفرغ تمامًا، كما يجب علينا أن نغير كتب المكتبة.

- أحد أفضل الكتب التى قرأتها فى حياتى "منعطف النهر"، فمؤلفه كاتب متميز.

- لا أدرى، أنا أعتقد أنه تحدث طويلاً عن الماضى، ولم يستطع أن يحرر نفسه من سيطرة الفترة الاستعمارية عليه، ويبدو أنه لم يعرف أن تكا الدجاج قد حلت محل السمك والبطاطس فى بريطانيا، حتى أن الصحيفة الوحيدة التى عرضت الكتاب هى ذى أنديان إكسبريس.

ـ تكا الدجاج.. هل تعتقدين ذلك؟

خطر على ذهن "نونى" المناظر الطبيعية فى الريف الإنجليزى والقلاع والخضرة والأشجار والقنافذ وإعلانات تكا الدجاج، التى تشاهد على جوانب الحافلات، كما خطر على ذهنها مشهد من مسلسل "ابن القصر".

ـ يا إلهى.. كم هى شهية تكا الدجاج ومعها قليل من الأرز البسمتى الذى أرى أنه أفضل أنواع الأرز.

ـ حسنًا لولا.. أنا لا أتفق معك فى الرأى، لكن ربما تكونين على صواب على أية حال.. لكن لماذا لم يكتب عن الحياة التى يعيشها؟.. ولماذا لم يناقش على سبيل المثال أحداث الشغب فى مانشستر؟

ـ أيضًا، إنجلترا الجديدة، نونى.. ذلك المجتمع الذى يجمع بداخله كل الأجناس والأعراق.. مثل بيكسى

من وقت لآخر، كانت لولا تزور ابنتها بيكسى المذيعة بهيئة الإذاعة البريطانية، وعند عودتها لا تتوقف عن الحديث حتى يمل الآخرون سماعها وهى تتحدث عن الفراولة والآيس كريم هناك، وكثيرًا ما كانت نونى تسخر من الطريقة التى تتحدث بها شقيقتها لولا وتقول:

ـ كأنك لا تستطيعين الحصول على الفراولة والآيس كريم فى كاليمبونج!

وفى إحدى المشاحنات الكلامية التى تجرى عادة بين نونى ولولا قال العم بوتى:

- كم هى مريعة سيقان الفتيات الإنجليزيات، وكم هى ضخمة ورجراجة صدورهن.. من حسن الحظ أنهن بدأن الآن يرتدين سراويل تحتية ومثبتات للصدور.

لم تستمع لولا جيدًا لسخرية شقيقتها، فقد كانت منشغلة بحقائبها المحشوة بمكعبات الحساء ومعلبات الأطعمة ومستحضرات التجميل والملابس الداخلية التى أحضرتها من أحد أفرع سلسلة متاجر ماركس آند سبنسر المنتشرة فى إنجلترا.

- بدهو؟

- نعم

علا صوته فوق صوت الراديو الذى اعتادوا سماعه كل مساء انتظارًا لسماع بيكسى

- مساء الخير.. معكم بيالى بانيرجى.. من أخبار هيئة الإذاعة البريطانية

بينما كانت نونى أثناء سماعها للأخبار تتعجب من انتشار الحروب وتفشى الأمراض والمجاعات، بدت لولا لا تسمع من الراديو إلا صوت ابنتها وهى مزهوة دون أن تلقى بالاً إلى الأهوال، التى تجرى فى العالم من حولها... فى الوقت نفسه الذى كان مستمعو الراديو فى كل أنحاء الهند يضحكون من نطق الاسم الهندى بلهجة من لغته الأم هى الإنجليزية.

كانت لولا قد نصحت بيكسى منذ وقت طويل

. كلما أسرعت بالمغادرة، كلما كان ذلك أفضل، فالهند أضحت سفينة غارقة... فكرى يا حبيبتى فى سعادتك فقط، فالأبواب فى إنجلترا لن تظل مفتوحة إلى الأبد.

## - ١٠ -

كان بيجو قد استهل عامه الثانى فى أمريكا وهو فى مطعم بينوتشو الإيطالى، يقلب فى أوانٍ كبيرة بها نقانق بولونيا، بينما مغنى الأوبرا يندفع بقوة من مكبر الصوت، مغنيًا للحب والموت والانتقام وانكسار القلب.

- رائحته غير طيبة.. أعتقد أننى شديد الحساسية لرائحة زيت شعره.

قالت زوجة صاحب المطعم، التى كانت تأمل فى أن يعمل لديها رجال من مناطق أوروبا الفقيرة كالبلُغار والتشيكوسلوفاك، فهناك على الأقل عامل مشترك يجمع بينهم، كالدين، ولون الجلد، وملامح الوجه، والأجداد الذين تناولوا السجق المملح والمقدد، لكنهم لا يأتون بأعداد كبيرة إلى أمريكا، والقادمون منهم لا يكونون فى حالة يرثى لها.

كان مالك المطعم قد أحضر الصابون وفرش ومعجون الأسنان والشامبو وقصافة أظافر ومطهر

ديودورانت، وأخبر بيجو بأنه يمكنه استعمال وأخذ ما يريد منها، لكن بعد مرور بضعة أيام لم يلحظ صاحب المطعم أو زوجته أى تغير إلى الأفضل طرأ على بيجو.

***

لم يجد "بيجو" عملاً له فى توم آند توموكوز أو فى ماك سوينى باب. وبعد طول بحث، حصل على عمل فى فريديز ووك يتطلب منه معرفة بقيادة دراجة هوائية تساعده فى توصيل حقائب الطعام لزبائن المطعم فى منازلهم.. لكن الخوف كان يتملكه أثناء قيادته للدراجة من الحافلات الضخمة، ومن مضايقات سيارات الأجرة التى يقودها هنود من البنجاب.

فى إحدى الأمسيات توجه بيجو بدراجته ليوصل طعامًا لثلاث طالبات هنود يقمن فى الجوار.. ابتسمت الفتاة التى فتحت الباب فظهرت أسنانها الناصعة البياض، وكانت عيناها صافيتين خلف نظارتها الأنيقة.. أخذت حقيبة الطعام وذهبت لكى تحضر النقود. نظر بيجو إلى الشقة فوجد كل شىء فيها يشير إلى أن ساكنيها من الإناث، فضلاً عن انتشار رائحة طيبة لنوع جيد من غسيل الشعر.. خف مزين بخيوط ذهبية ملقى جانبًا.. ومجموعة كتب فى المحاسبة رصت فوق الطاولة، إلى جوار قطعة ديكور من الوطن الأم تجلب لهن حسن الطالع والحظ السعيد.

تابعت إحدى الفتيات حديثها الذى قطعه وصول "بيجو"، وكان يدور حول فتاة رابعة غير حاضرة:

ـ لماذا لا تبحث عن شاب هندى يتفهم كل نوبات غضبها تلك؟

ـ هى لا تتطلع إلى شاب هندى، لأنها لا تقبل بشاب هندى لطيف تربى على مشاركة حماته الحديث فى المطبخ

ـ ما الذى تريده إذًا؟

ـ تريد شابًا يدخن سجائر مارلبورو ويحمل درجة الدكتوراه

لديهن جميعًا ذلك التبرير الأخلاقى الشائع بين العديد من النساء الهنديات اللاتى يتحدثن الإنجليزية، ويحصلن على تعليم عال، ويحرصن على الخروج لتناول وجبة طعام فى أحد المطاعم، ويأكل مختلف ألوان الطعام بأصابع ماهرة، ويرتدين السارى أو البنطلون القصير المطاطى الملتصق بالجسد لممارسة التمارين الرياضية على إيقاع الموسيقى، ويألفن بسرعة الشعر القصير، تواقات إلى رومانسية ذات طابع غربى، وسعيدات بحضور حفلات عرض الملابس التقليدية لمختلف الشعوب، يتحلين بكم هائل من المجوهرات: الزمرد الأخضر والياقوت الأحمر، والألماس الأبيض.

ينظرن إلى أنفسهن على اعتبار أنهن فى وضع فريد يسمح لهن بالحديث إلى أى شخص فى مختلف

القضايا: الهنود فى أمريكا، الأمريكيون فى الهند، الهنود فى الهند، الأمريكيون فى أمريكا... رابطات الجأش، مثيرات للإعجاب، فلحسن الحظ مازالت الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر النساء الهنديات مضطهدات، والنتيجة غير الطيبة لذلك، هو أن النساء الهنديات أصبحن أكثر أمريكية مما كن يردن.

- خذ هذا لك.. يمكنك أن تشترى قفازًا يقيك من البرد القادم

ما قالته الفتاة ذات العينين الصافيتين، يمكن أن يفهمه بيجو على نحو يشير إلى الصداقة، التى تجمع بين الهنود على اختلاف طبقاتهم ولغاتهم، أغنياء أو فقراء، من شمال الهند أو جنوبه، إذا التقوا خارج الوطن.

شعر بيجو بشىء من الإقدام المختلط بالنفور، وهو يعتلى دراجته التى كان قد أسندها إلى جدار المنزل، متأهبًا للمغادرة، لكن شيئًا ما جعله يتوقف، ويعود إلى الوراء، لينظر إلى الشقة بالطابق الأرضى، المحاطة بقضبان سوداء للحماية، وكان أن وضع إصبعين فى فمه وأطلق صفارة فى اتجاه النافذة؛ حيث الفتيات يغمسن ملاعقهن فى الأوانى البلاستيكية البيضاء، وقبل أن يرى ما عكسته وجوههن عند رؤيتهن له، سارع بقيادة الدراجة وسط ضجيج حركة السيارات المتجهة إلى شارع برودواى، وأطلق صوته مغنيًا أغنية قديمة أثيرة لديه.

***

فوق نهر هدسون تتكسر كرات الثلج إلى قطع صغيرة، وفى داخل محيط النهر الرمادى المروّض، يبدو للناظر من سكان المدينة الكبيرة ذلك الشىء البعيد النائى، الذى يعينهم فى تأمل تلك الحياة الموحشة التى يعيشونها فرادى متوحدين. كان "بيجو" يضع حشية من أوراق الصحف القديمة التى لدى مستر أيبى بائع الصحف الطيب تحت قميصه ليحمى بها صدره من قسوة البرد، متأسيًا فى ذلك بما كان يفعله عمه عند خروجه إلى الحقول فى الشتاء، لكن يبدو أن قسوة البرد والوحدة كانت أشد من قدرته على التحمل، فبينما كان يقود دراجته شرع فى البكاء من البرد وربما من حزن دفين جعله يدخل فى نوبة من أنين مروّع أصابته بالدهشة، فلم يكن قد أدرك من قبل مدى عمق حزنه.

راح بيجو فى سبات عميق، فور عودته إلى منزله بالطابق الأرضى فى بناية فى حى هارلم، ترجع إلى شركة تجارية مجهولة، تمتلك شققًا فى كل مناطق الجوار، وتقوم بتأجير حجرات الطوابق الأرضية على نحو غير قانونى بالأسبوع وبالشهر وحتى باليوم للمقيمين بطريقة غير قانونية، وذلك عن طريق "جاكنتو" الذى يتحدث الإنجليزية بنفس القدر الذى يتحدث به "بيجو" مع خليط من الإسبانية والهندية، وتومض أثناء حديثه سنة ذهبية داخل فمه.

انضم "بيجو" إلى مجموعة من الشباب والرجال الرحّل الذين حطوا رحالهم فى زوايا وأركان غريبة

الشكل كانت من قبل حجرات للخدم وللغسيل وللتخزين بالقرب من حجرة الكهرباء وحجرة الغلاية لمنزل قديم كان مخصصًا لعائلة صغيرة، ولايزال مدخله يحتفظ بنقوش من الموزايك الملون على شكل نجمة... وإذا ما قام أحد بإطفاء مفتاح بحجرة الكهرباء، ينقطع على الفور التيار الكهربائى وسط صرخات سكان الحجرات، الذين لا يصل صوت صراخهم إلى أى أحد، والذين لا أحد هناك بالطبع يريد سماعهم.

ـ الطعام بارد.. الحساء وصل باردًا.. الأرز بارد فى كل وقت.

كثرت شكاوى زبائن المطعم، وفقد بيجو أعصابه وقال:

ـ أنا أيضًا أشعر بالبرد

قال مالك المطعم:

ـ أسرع بالدراجة أكثر

ـ لا أستطيع.

***

أشارت الساعة إلى ما بعد الواحدة صباحًا بقليل عندما غادر "بيجو" مطعم فريدز ووك للمرة الأولى... كانت مصابيح الشارع تشكل هالة من الضوء ممتلئة بذرات لامعة من بخار الماء المتجمد، عندما تابع سيره مجهدًا وسط نثار الثلج المتساقط فى الشوارع الخالية

إلا من رجل وحيد بلا مأوى وقف ينظر إلى ساعة لا وجود لها حول معصمه، ويتحدث فى سماعة هاتف لا وجود له، ويهتف: خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، إقلاع، ثم يترك سماعة الهاتف ويهرول مسرعًا ممسكًا بقبعته كأنه يخشى أن تطيرها الريح الشديدة الناجمة عن إطلاق صاروخ لا وجود له فى الفضاء.

غير "بيجو" طريقه على نحو آلى فى اتجاه المنزل المعتم المثبت على واجهته ما يشبه شاهد القبر، واجتاز كومة من علب معدنية فارغة، استطاع أن يسمع من خلفها صوت فأر، ثم نزل درجات سلم إلى الطابق الأرضى، وقال بصوت عال:

- أنا مرهق جدًا

بالقرب منه كان رجل يتقلب فى سريره إلى اليمين وإلى اليسار، وآخر كان يجرش شيئًا بأسنانه.

***

مرة ثانية وجد بيجو عملاً فى مخبز بشارع برودواى بعد أن أنفق كل النقود، التى كان يوفرها ويضعها فى مظروف داخل حذائه... كان ذلك فى فصل الربيع الذى يشهد ذوبان الثلج، وفيه تقوم كل مقاهى وحانات المدينة بالاستفادة من فترة ما بين الشتاء القارص والصيف الساخن، بإخراج المقاعد والطاولات إلى رصيف الشارع، وتقديم المشروبات والأطعمة فى الهواء الطلق تحت أشجار الكرز المزهرة.

مع مقدم الربيع تخرج النساء المرحات المرتديات الفساتين الملونة، والفتيات اللاتى ترتدين التنورات القصيرة، وتتصاعد ضحكاتهن، عند كل نسمة هواء خبيثة ترفع تنوراتهن إلى أعلى كاشفة عن سيقانهن وأفخاذهن، ويتساءلن عن ذلك الشعور بالزهو الذى يغمرهن فى تلك اللحظات، وعما إذا كان هو ذات الزهو الذى كانت تشعر به "مارلين مونرو".

فى الوقت نفسه الذى وجد فيه عمدة نيويورك فأرًا أثناء جلوسه فى مطعم جراسى مانسون الفاخر، التقى "بيجو" فى مخبز ذا كوين أوف تارت "سعيد سعيد"، الوحيد الذى سيحوذ على إعجابه وتقديره فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ أنا من زنجبار، وليس من تنزانيا

قال "سعيد" معرفًا بنفسه إلى "بيجو" الذى لم يكن يعلم أيًا منهما

ـ أين تقع؟

ـ ألا تعلم أن زنجبار مليئة بالهنود يا رجل؟.. إن جدتى هندية!

فى "ستون تاون"، تناولا الطعام معًا لأول مرة، حيث علم بيجو أن سعيد يستطيع الغناء مثل "إميتاب باتشان" و"هيما مالينى"، وغنى له أغنية عن بومباى، وكان يومئ بذراعيه ويهز مؤخرته مثل "كفافيا" من "كازاخستان" و"عمر" من ماليزيا... وكان أن أظهر بيجو زهوه بأفلام بلاده.. الهند.

## ـ ١١ ـ

في أيام الإثنين والأربعاء والجمعة، كان الطباخ يقوم بتوصيل "ساى" إلى "نونى" فى "مون آمى" لتلقى الدروس، ويعود ليصحبها إلى المنزل، بعد أن يكون قد أنهى جولته فى السوق ومكتب البريد، وفرغ كذلك من بيع ما يصنعه من شراب كحولى، كان قد بدأ فى صناعته من أجل "بيجو"، وبسبب ثبات راتبه لسنوات، بعد آخر زيادة قدرها خمس وعشرون روبية حصل عليها من القاضى، الذى كثيرًا ما توسل إليه الطباخ بعد ذلك قائلاً:

ـ لكن يا صاحب، كيف يمكننى العيش بهذا الراتب؟

بصوت مدمدم، قال القاضى:

ـ أكفل لك السكن والملبس والطعام والدواء، وزيادة على ذلك، تحصل على راتب.

ـ وماذا عن "بيجو"..

ـ "بيجو"، عليه أن يشق طريقه بنفسه

يشترى الطباخ حبوب الدخن، ويغسلها جيدًا، ويطبخها مثل الأرز، ثم يضيف إليها الخميرة، ويترك الخليط فى جو ساخن ليلة كاملة حتى يتخمر، ثم يضعه ليوم أو يومين فى كيس من الخيش إلى أن يصبح له مذاق حريف، بعد ذلك يقوم ببيعه إلى مطعم يتخذ شكل كوخ يسمى "جومبوز"... وكثيرًا ما كان الطباخ يغمره الزهو عند رؤيته الرجال الجالسين فى انتشاء يدخنون ويحتسون من كوز مصنوع من الخيزران شربه المعتق الذى صنعه بيديه... ودائمًا كان ينصح زبائنه بأن يحتفظوا ببعض شرابه الكحولى بالقرب من مخادعهم ليحتسوا منه إذا ما أحسوا بالعطش ليلاً، مؤكدًا لهم أن شرابه يجلب القوة لمن ألم به مرض.

هذا المشروع التجارى، قاد الطباخ إلى مشروع آخر أكثر ربحية، فمن خلال علاقاته التى كونها، أصبح على اتصال بتجار السوق السوداء المتعاملين مع الجيش... كان المطعم "جومبوز" على مقربة من الطرق الملتوية التى تسلكها شاحنات الجيش فى الغابة، لذا كان من السهل على الطباخ أن يقف وسط الأحراش منتظرًا قدوم الشاحنة التى تسارع بتفريغ حمولتها من صناديق زجاجات المشروبات الكحولية، التى ينقلها إلى المطعم، ومنه إلى تجار معينين فى المدينة يقومون

ببيعها، ويتم تقسيم الأرباح عليه وعلى سائقى الشاحنات، وعلى الضباط بنسبة أكبر، أما النصيب الكبر فيذهب إلى الميجور ألدو صديق الشقيقتين "لولا" و"نونى"، الذى يدبر لهما بنفس الوسائل الحصول على ما يحتاجان إليه من شراب الروم والشيرى والبراندى من سيكيم. ما كان يفعله الطباخ، لم يكن من أجل "بيجو" فقط، بل كان بسبب رغبته فى اقتناء الحديث من الأجهزة، كمحمصة شرائح الخبز، وماكينة الحلاقة، والساعات والكاميرات. فهو لم يكن يحلم بالليل برموز "فرويد" التى يقع فى شراكها آخرون، بل برموز التقنية الحديثة المتجسدة فى الهواتف الرقمية والتليفزيون الرقمى.

كان قد اكتشف أن لا شىء أبغض عليه من أن يكون فى خدمة عائلة تخذله وتعريه فى كل وقت، وتصفه بالحمق، فى الوقت الذى كان طباخون وخدم وحراس آخرون يتباهون بالمعاملة الطيبة التى يلقونها ممن يستخدمونهم، وبالرواتب التى يحصلون عليها، إلى جانب تمتعهم بوسائل الراحة، فضلاً عن أن هناك خدمًا محبوبين جدًا من مستخدميهم إلى درجة أنهم يتوسلون إليهم بأخذ قسط من الراحة وألا يرهقوا أنفسهم فى العمل.

أمام أجواء المنافسة بينه وبين طباخين وخدم وحراس آخرين، كان على الطباخ أن يكذب فيما يتصل بالماضى فقط وليس فيما يتصل بالحاضر، الذى يمكن معرفته بسهولة، لذا وجد فى نفسه رغبة فى

ترويج شائعة تتحدث عما وراء فقد القاضى لسمعته وشهرته... كان القاضى أحد رجال الدولة من ملاك الأراضى الأثرياء، قام بتوزيع أملاكه على الفقراء، وكان مدافعًا عن الحرية حتى أنه ترك منصبه الرفيع فى المحكمة؛ لأنه لم يرغب فى صدور حكم ضد أبناء بلدته... كان أيضًا رجلاً ذا تأثير كبير فى الآخرين، لكن حزنه على موت زوجته أجبره على أن يجلس وحيدًا طوال اليوم وكل يوم.دائمًا يقول الطباخ إن المعلومات التى لديه عن القاضى وصلت إليه من خدم المنزل الأكبر سنًا، لكنه مع مرور السنوات أصبح يصدق كل تفاصيل القصة المدهشة، التى كان قد نسج خيوطها بنفسه والتى منحته شعورًا بالرضا.

- كان مختلفًا تمامًا.. قد لا تصدقين.. لكنه ولد ثرى.

أخبر "ساى" عند وصولها إلى "كاليمبونج"

- أين ولد؟

- عائلته من أكبر العائلات فى "جوجارات" تدعى أحمد آباد، وكانت تملك قصرًا كبيرًا.

كانت "ساى" تحب صحبته، وحكاياته فى المطبخ، وقطع العجين التى تشكلها على هيئة خريطة الهند أو باكستان، ثم تضعها فى النار.

- ماذا عنه أيضًا؟

تسأل "ساى" بعد أن يكون قد سمح لها بوضع المربى على سطح قطعة التورتة

ـ أرسلوه إلى إنجلترا، وخرج نحو عشرة آلاف شخص لوداعه فى المحطة، التى ذهب إليها راكبًا ظهر فيل.. كان قد فاز بمنحة دراسية من المهراجا.

بلغ صوت الطباخ أذنى القاضى الجالس فى حجرة الاستقبال، والذى كلما فكر فى ماضيه يبدأ فى حك جلده على نحو لا يجد له تفسيرًا.

ولد "جيموباى بوبتلال باتيل" لعائلة فلاح منغلق على نفسه تسكن كوخًا سقفه من جريد النخل، تروح وتغدو فيه الفئران، ويقع فى أطراف مدينة بيفيت.. فى عام ١٩١٩ كانت عائلة "باتيل" لا تزال تتذكر الوقت الذى كانت فيه بيفيت فى أوج حيويتها.. فى البداية كانت مملوكة لأسرة "جكواد" ملوك "بارودا"، ثم انتقلت ملكيتها للبريطانيين، واستمرت بيفيت محتفظة بمناظرها الطبيعية وبمعالمها الرئيسية... ظل المعبد فى مركزها، وعلى أحد جوانبها، استقرت شجرة تين البنغال الضخمة إحدى أشجار جزائر الهند الشرقية، يستظل بها رجال بيض اللحى يستدعون ذكرياتهم... يُسمع خوار البقر، وتُرى النساء فى حقول القطن، وهن يملأن جرارهن بالماء من النهر، الذى تجرى مياهه ببطء وتكاسل، فيبدو وكأن النوم قد غالبه.

فى ذلك الوقت، استخدمت الأحواض التى تنتج الملح لشق طريق لقضبان للسكك حديدية تسير عليها قطارات تعمل بالبخار لنقل القطن من المدينة إلى رصيف السفن فى "سورات" و"بومباى"، وارتفعت

بنايات كبيرة فى خطوط متسقة، وأنشئ مقر للمحكمة مزود ببرج فى أعلاه ساعة لمعرفة الزمن الجديد المتسارع، وشوارع تعج بكل أنواع البشر: الهندوسى، والمسيحى، والمسلم، وأتباع الديانة اليابانية، ورجال الدين، والمجندون بالجيش، ونساء القبائل.

فى السوق بائعون فى محال ضيقة يديرون أعمال تجارة مع بنما وشنغهاى ومانيلا، وفيهم من يقوم برحلة تمتد لأيام طويلة على ظهر عربة خفيفة محملة بالبضائع ويجرها عجل... فى هذه السوق وبالقرب من دكان لبيع الحلوى، كان والد "جيموباى" يقيم تجارة متواضعة تعمل على تدبير شهود زور للمثول أمام المحكمة (من كان يفكر أن ابنه بعد سنوات عديدة سيصبح قاضيًا؟)... القصص المعتادة ذاتها: زوج غيور يقوم بقطع أنف زوجته، أو شهادة زور تدعى موت أرملة وهى على قيد الحياة، حتى يمكن تقسيم أملاكها على أحفاد جشعين.

اعتاد والد جيموباى القيام بتدريب الأوغاد، والفقراء، الذين سدت فى وجوههم أبواب الرزق، على الذهاب إلى المحكمة للإدلاء بشهادات زور فى صالح بعض المتقاضين الأوغاد.. مثل

- ماذا تعلم عن بقرة "مانوباى"؟

- "مانوباى"، فى الحقيقة لم يمتلك بقرة على الإطلاق

كان فخورًا بقدرته على التأثير فى مسار العدالة، وعلى إحلال الباطل محل الحق، دون أن يشعر بذنب

أو تـأنـيـب ضـمـيـر... فى تـلك الأثـنـاء عـرضت عـلى المحـكـمـة قـضـيـة بقـرة مسـروقـة، وشـهـدت جـلسـات المحـكمـة الكثير جداً من النقاش والجدل بين العـائلتين المـتـنـازعـتـين، والـعـديـد من المـراوغـات والمسـاجلات الشـكلية، حتى تلاشى شيئًا فشيئًا ذلك الفارق الواضح بين الحق والبـاطل، حتى أصبح البـحث عن الحقيقة النـاصعـة قضيـة خاسـرة يتـراجع فيها الصدق والحق أمام الكذب والخداع.

ازدهـرت تجـارة تدبيـر شـهـود زور أمـام المحـكـمـة، فـاشـترى القـائم عـليهـا دراجـة قـديمـة نصـف عـمـر من نوع هـرقل فـى مقـابل خمس وثلاثين روبية، وأصبح من المـألوف مشـاهـدته راكبًـا دراجته فى أنـحـاء المدينـة... وانتعشت آماله بعد إنجابه طفله الوحيد "جيمـوباى" الذى كان يلف أصابعه الصغيـرة الخمسة حول أصبع والـده، الـذى شـعـر بقـوة قـبضـة الـيـد الـصـغـيـرة، واتـخـذ ذلك دلـيـلاً عـلى تـمـتـعه بـالـعـافـيـة، الأمـر الـذى جـعـل شـاربه يمـتـد أفـقـيًـا راسـمًـا ابتـسـامـة لا تـغيب عن فـمه، واتسعت الابتسامة أكثر بعد ما ألحق ابنه بمدرسة الإرسالية التبشيرية.

كل صـبـاح، طـوال أيـام الأسـبـوع، كـانت والـدة جيموباى توقظه من نومه قبل طلوع الشمس لاستذكار دروسه

- لا.. من فضلك.. لا.. خمس دقائق أخرى

يتخلص من قبضتها، وعيناه مغلقتان، وكله رغبة فى مـواصلة نـومه، فهو لم يعتـد الاستيقـاظ فى مثل

هذا الوقت المبكر إلا على صوت عواء ذئب، أو صوت عصابة لصوص، أو غير ذلك من الأصوات التى لم تكن تعنى شيئًا لتلميذ صغير فى مدرسة الأسقف "كوتون"... كان كل شىء أسود ومعتمًا أمام عينيه نصف المغمضتين: العديد من الأقارب غارقون فى نومهم.. أبقار مربوطة بحبال تشد إلى الأشجار، ويتخلل أنوفها حلقات معدنية دائرية.. أمه تبدو كشبح أمامه فى ظلمة الفناء، تصب على رأسه الماء البارد، وبيديها المتمرستين بأعمال الحقل، تفرك جسده، وتدلك شعره بالزيت لشحذ قدراته العقلية.

كانت أمه تغذيه إلى حد الإفراط، ففى كل يوم تناوله قدحًا من الحليب كامل الدسم، وتحرص على ألا تنزل القدح من شفتيه إلا بعد أن يفرغ تمامًا، ويكون الحليب قد سال من فمه إلى رقبته وملابسه وقد استشعر صعوبة فى التقاط أنفاسه... ودائمًا تكون معدته ممتلئة بقشدة اللبن، وعقله محشوًا بما يدرسه، وورقة نبات الكافور داخل حافظة صغيرة من القماش معلقة فى عنقه لإبعاد المرض عنه، وهو فى طريقه إلى المدرسة محمول على ظهر دراجة والده.

تتصدر أعلى مدخل المدرسة صورة شخصية للملكة فيكتوريا فى ثوب يشبه ستارة المسرح ذات الأهداب، وشال على الكتفين، وقبعة لافتة للنظر بسبب الريش الطالع منها كسهام على وشك الانطلاق... وفى كل صباح، عندما يمر "جيموباى" تحت صورة الملكة فيكتوريا، يتأمل تعبيرات وجهها

الآسرة، ويكون انطباعًا بأنها امرأة بسيطة وصريحة وشديدة القوة، ومرة بعد مرة يزداد لديه احترامه لصاحبة الصورة وللإنجليز، ويراوده الأمل فى النبوغ، حتى وإن لم يكن النبوغ من صفات نسل عائلة "باتيل" من قبل... فهو فى استطاعته حفظ صفحة من كتاب فور قراءتها، وإجراء عملية حسابية من عشرة أرقام أو أكثر فى رأسه دون عون من ورقة وقلم... وكان والده ينظر إليه مزهوًا وهو يحاول النفاذ بخياله إلى داخل عقل ابنه فيراه كثمرة قرنبيط كثيرة الأوراق شديدة الخصب، كذلك شقيقاته كن يؤثرن جيموباى على أنفسهن ويمنحنه أفضل ما لديهن من حب وطعام. كانت آمال جيموباى مشوشة غير واضحة، لكن والده كان أول من أعلن عن أمله فى أن يلتحق ابنه بالعمل فى الإدارة الحكومية.

عند بلوغ "جيمو" الرابعة عشرة من عمره، وبعد تصدره لفصله الدراسى فى امتحان آخر العام، قام مدير المدرسة مستر ماك. كو باستدعاء والده، واقترح عليه أن يتقدم ابنه لاجتياز اختبار محلى يمكنه من العمل سكرتيرًا بمحكمة.

- ولد ذكى.. يجب أن يكمل تعليمه ليعمل بالمحكمة العليا

قال الأب فى سره وهو يغادر المدرسة: حسنًا.. إذا أمكنه أن يجتاز امتحانًا فيمكنه اجتياز امتحان أكبر ، ويصبح قاضيًا يجلس على المقعد العالى؛ الذى عادة ما يقف إلى الأسفل منه هو الأب الفخور بقدرته

على تكدير أمن النظام.. ربما يصبح ابنه حاكم مقاطعة أو قاضيًا بالمحكمة العليا، ويرتدى الشعر الأبيض المستعار، ويضرب بمطرقته المنصة العالية معلنًا رفع الجلسة.

اقتسم الأب حلمه مع ابنه؛ فكان حلمهما المشترك الذى كانا يتوقان إلى تحقيقه على أرض الواقع، بالرغم من منطق الاحتمالات، الذى يؤدى بالقطع إلى فشلهما فى أن يصبح حلمهما حقيقة، لأن النسبة المخصصة للهنود للعمل فى سلك القضاء، والتى لا يتم شغلها فى العادة، يحصل عليها أبناء الطبقة العليا من الهنود، وليس أبناء الطبقة الدنيا.

حصل "جيموباى" على منحة للدراسة فى بيشويز موليدج، ثم سافر إلى كمبردج لدراسة القانون، وعاد إلى الوطن ليصبح أحد أفراد الهيئة القضائية ويعين فى ولاية أوتار براديش البعيدة عن مسقط رأسه.

- كان لديه الكثير من الخدم فى ذلك الوقت.. لكن الآن، ليس لديه غيرى بالطبع

علمت ساى من الطباخ أنه بدأ العمل فى العاشرة من عمره، نظير أجر شهرى يعادل نصف عمره (٥ روبيات) كصبى صغير فى مطبخ النادى مع والده الذى كان يصنع حلوى البودينج.. وفى الرابعة عشرة عمل لدى القاضى نظير١٢ روبية فى الشهر.. قال:

- كنا دائمًا على سفر.. نسافر ثلاثة أسابيع فى الشهر الواحد، ونتوقف فقط فى الأيام التى تهب فيها

الريح الموسمية.. كان جدك لا يقود سيارته، لأن طرق المقاطعة كان معظمها غير معبد.. كان يعبر الأنهار على ظهر جواد، ومن حين لآخر يقطع الغابات والمياه العميقة على ظهر فيل، وكنا نسافر قبله بقطار البضائع المحمل بالعجول والخيام والأثاث والسجاد وكل شىء.

- وأين كنت تنام؟

- كنا ننصب الخيام فى القرى التى نمر بها.. خيمة كبيرة للنوم مخصصة للقاضى، ملحق بها خيمة لدورة المياه، وخيمتان للاستقبال وتغيير الملابس، وخيمة لتناول الطعام، وداخل الخيام سجاد من كشمير وأطباق من الفضة، وكان جدك يرتدى للعشاء جاكيت أسود وربطة عنق، حتى لو كنا فى الغابة. كنا نغادر أولاً حتى إذا ما وصل جدك يجد كل شىء فى مكانه الصحيح، وكان يفقد صوابه وعقله إذا وجد اختلافًا يسيرًا عما اعتاد عليه.كان برنامج السفر حافلاً ومزدحمًا، ولم يكن فى استطاعة أحد التأخير عن موعده، لذلك كان لابد من أن نتعلم معرفة الوقت من الساعة.. ففى الساعة السادسة إلا الربع صباحًا، كان علىّ أن أعد الشاى وأحضره له فى سريره بالخيمة.

بعد أن يمارس القاضى لعبة الشطرنج لبعض الوقت، تأخذه ذاكرته إلى بدايات عمله كأحد أفراد الإدارة الحكومية متنقلاً من مكان إلى آخر.. ويبدو أن ما كان يدخل السكينة إلى صدره برغم برنامج عمله

المزدحم، هو استمتاعه بممارسة السلطة على الطبقات، التى مارس أفرادها على عائلته كل ألوان القهر لقرون مضت.

فى السادسة والنصف يأخذ حمام الماء الساخن برائحة دخان الخشب المحترق، وبعد أن يدهن شعر رأسه بمرهم معطر، يبدأ فى تناول شرائح الخبز المحمص، التى تفحمت حوافها على اللهب، بعد أن يكسو سطحها بالمربى. وفى الثامنة والنصف يتجه إلى الحقول مع الموظفين المحليين متبوعًا بحاجب يرفع مظلة يحمى بها رأسه من وهج الشمس أثناء قيامه بقياس المساحات المزروعة من الحقول، والتحقق من صدق قياس موظف المساحة.

كانت الحقول المزروعة تنتج أقل من عشرة "موند"(١) لكل أكر(٢) من الأرز والقمح، بواقع روبيتين لكل موند، وكان كل فلاح تقريبًا فى القرية مدينًا للوحدة الزراعية... لم يكن يعلم أحد أن "جيموباى" نفسه من وقت بعيد، قد وقع فى هذا الشرك فى المدينة الصغيرة "بيفيت" التابعة لإقليم جوجارات، وتعرض لازدراء المقرضين ولسخريتهم من طموحه وفقره.

بعد تناوله الغداء فى الثانية بعد الظهر، كان القاضى يجلس إلى طاولته تحت ظل شجرة، ينظر فى القضايا، ومزاجه غير رائق بسبب بغضه للتعامل

(١) (وحدة وزن هندية تعادل ٢٨ـ ٨٢ باوند).

(٢) ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو ٤٠٠٠ متر مربع.

غير الرسمى، والمشكلة المعقدة التى يواجهها، والقضايا المكتوبة من قبل كاتب محكمة باللغة الأردية، ويستمع إلى تفاصيلها بالهندية، ويقوم بترجمتها وكتابتها بالإنجليزية، فضلاً عن الشهود الذين يجهلون القراءة والكتابة ويطبعون بصمات إبهامهم أسفل الأوراق.

لا أحد يمكنه التأكد بالطبع من قدر الحقيقة التى سقطت بين لغة وأخرى، وبين تعدد اللغات والجهل بالقراءة، لكن من المؤكد أن ما يتطلبه تحقيق العدالة من الوضوح غير متحقق... لكن بالرغم من التشوش الناجم عن تعدد اللغات المتداولة فى القضايا إلا أن "جيموباى" اكتسب سمعة مخيفة بسبب حديثه الذى بدا وكأنه لا ينتمى إلى أية لغة، وبسبب وجهه الخالى من أى تعبير، وكان أن وصل فى النهاية إلى المحكمة العليا فى "لاكنو"، حيث يجلس فى مقعد الرئيس وفوق رأسه الشعر الأبيض المستعار، والمسحوق الأبيض الذى يخفى ندوبًا بوجهه، ويطرق بمطرقته فوق المنصة معلنًا رفع الجلسة، وقد بلغ به الضيق والانزعاج مداه، من أولئك السذج المخالفين للقانون، الذين يقطعون ذهابًا وإيابًا القاعة الكئيبة للمحكمة التى على أحد حوائطها تعلق صورته الفوتوغرافية بزيه القضائى، إلى جانب صور آخرين، دلالة على تاريخ تقدم القانون والنظام الهندى.

من المهم أن يكون شاى الرابعة والنصف على خير ما يرام، ومعه كعكة، يتناولهما وهو عاقد

الحاجبين، وكأنه يفكر مليًا فى شىء على جانب كبير من الأهمية... لكن بعد تقاعده، تحولت تلك الصرامة فى وجهه الناجمة عن كثرة العمل إلى تعبير ساكن.

فى الخامسة والنصف يحين موعد الخروج بصحبة بندقية الصيد إلى الريف الذى تحلق فى سمائه طيور شهر أكتوبر المهاجرة، السمان والحجل وصغارهما... لكنه يعود من رحلة الصيد هذه وليس فى جعبته أى صيد لعدم إتقانه الرمى، وينقذ الطباخ سمعته، عندما يقوم بإعداد دجاجة مقدمًا للعشاء.

عندما بدأ الهنود يعملون بالقضاء، لم يجد هذا الأمر قبولاً لدى بعض الخدم القدامى.. كذلك شعر الطباخ بخيبة أمل لدى عمله فى خدمة "جيموباى"، وأدرك أن خسارته كبيرة؛ لأنه ليس كوالده الذى اقتصر عمله على خدمة الرجال البيض، ولأنه أيضًا كان ينافسه فى فرصة العمل لدى "جيموباى" شخص آخر معه خطابات تزكية.

- ١٢ -

واصلت ساى حياتها فى كاليمبونج بين لولا ونونى والعم بوتى والأب بووتى والقاضى والطباخ، والتقت "جيان" عند بلوغها الستة عشرة من عمرها، بعد ان اكتشفت نونى عدم استطاعتها تدريس مادة الفيزياء لها... كان الوقت بعد ظهر يوم شديد الحرارة، ولولا ونونى جالستان فى شرفة منزلهما "مون آمى" المواجهة لجانب الجبل، حيث درجة الحرارة المرتفعة جعلت كل سكان المدينة فى حالة من الخدر والسبات، وعشرات من الثعابين ارتمت ميتة على الأحجار بفعل الجو الملتهب، حيث الزهور فى أوج وعنفوان تفتحها.

جلس العم بوتى يقلب النظر فى الوهج والحرارة الشديدة بالخارج، وجهه فى الظل وأصابع قدميه فى الشمس، مطلقًا تنهيدة، وقائلاً فى سرّه: كل ما فى العالم يسير فى نظام واتزان.. الحرارة تقابلها البرودة، ومياه المحيطات والأنهار هنا، ومسطح الأرض

هنـاك، والـشـمـس والظل. والأب بووتى فى مـزرعته، وجد نفسه وقد انتقل إلى حالـة من التأمل، بينـما أبقاره تمضغ طعامها فى صوت أقرب إلى الهمهمة، وسأل نفسه: ما مذاق الجبن المستخرج من حليب ثور التبت الضخم طويل الصوف؟. وفى الجوار الأميرتان الأفغانيتان كانتا تطلقان التنهدات، ثم قررتا تناول الدجاج باردًا.

غير متأثرة كثيرًا بحرارة الجو، بدأت مسز سن تحث الخطى فى اتجاه مون آمى، وفى جعبتها آخر الأنباء التى بلغتها من ابنتها "من من" التى على وشك أن تعمل مع تليفزيون سى. إن. إن بأمريكا.. فكرت مسز سن مليًا والسعادة تغمرها، فى علامات الضيق التى ستعلو وجه لولا.. ماذا تحسب لولا بانيرجى نفسها؟.. دائمًا تتباهى بابنتها التى تعمل فى محطة الإذاعة البريطانية بى. بى. سى.

دون أن يخامرها أى شك فى الأنباء التى هى بصدد سماعها، كانت لولا فى الحديقة، تلتقط يرقة فراشة بعيدًا عن ثمر القرنبيط الإنجليزى، وتفكر مليًا فى تلك المخلوقة الرائعة ذات اللونين الأبيض والأخضر بعينيها الزرقاوين، وأقدامها الثمينة المضحكة، وذيلها، وأنفها الذى يشبه أنف الفيل.. لكنها ألقت بها إلى طائر فى الانتظار، التقطها بمنقاره الحاد، فانبثق من اليرقة سائل أخضر لزج القوام مثلما ينبثق معجون الأسنان من الأنبوبة المثقوبة عند الضغط عليها.

في شرفة مون آمي، جلست نوني وساي وأمامهما كتاب مفتوح على درس النيوترون والبروتون والإلكترون، غير قادرتين على استيعاب موضوع الدرس، في الوقت نفسه اجتذبهما مشهد ضوء الشمس الباهر يغمر الكائنات خارج الشرفة، وسرب فراشات اتخذ شكل بقع من الضوء تتراقص في الفضاء المنير.

شعرت نوني بإجهاد مفاجئ، فوضعت الكتاب جانبًا، وعندئذ وصل الخباز إلى "موني آمي"، وكعادته بعد ظهر كل يوم، قام بإنزال صندوق من فوق رأسه وفتحه ليكشف عما يحتويه من سويس رولز، كوين كيك، زبد.. أخذا ما يحتاجان من الكعك وشرعا في تناول أطراف الحديث.

- كم عمرك الآن.. ساي؟.. خمسة عشر؟

- ستة عشر

فكرت نوني في أن من الصعب تحديد عمرها من النظرة الأولى، ونظرت إلى "ساي" نظرة متأملة.. كانت ترتدي ثوبًا كاكي اللون وقميصًا كتب عليه "التبت حرة"، وقدماها عاريتان، وشعرها منقسم إلى جديلتين يصل طولهما إلى أسفل كتفيها.. كانت نوني ولولا قد ناقشتا معًا مؤخرًا كيف أنه من المؤسف أن تستمر "ساي" في حياتها على هذا النحو.. فلن تكتسب مهارات اجتماعية طالما أنها لا تعرف أحدًا يقاربها في العمر.

- ألا تجدين صعوبة فى العيش وحدك على هذا النحو؟

- الطباخ يتحدث معى كثيرًا

جال بخاطر "نونى" أن "ساى" كان من الممكن أن يهبط مستواها إلى طبقة الخدم لولا وجودها وشقيقتها إلى جانبها

- ما الذى يتحدث عنه؟

- حكايات عن قريته، وكيف ماتت زوجته، وقضيته التى ينازعه فيها شقيقه، وأمنيته أن ينجح "بيجو" ابنه فى جمع أموال كثيرة.

فكرت "ساى" لحظة وقالت:

- عائلته من أكثر عائلات القرية فقرًا، وبيتهم لايزال مبنيًا من الطين وسقفه من أعواد القش.

لا ترى "نونى" فى المعلومات التى تستقيها "ساى" من الطباخ شيئًا يناسبها، ففى رأيها أنه من المهم وجود مسافة ما بين الطبقات، وإلا فإن الأذى سيلحق بمن على جانبى الفجوة الكبيرة.. لكن مع ذلك فإن الخدم الذين لديهم معرفة بكل أنواع الأفكار عندما يدركون أن العالم من حولهم لن يمنحهم وأطفالهم مثلما يمنح الآخرين، عندئذ سيستشيطون غضبًا وحنقًا.

كان على "لولا" و"نونى" أن يبذلا محاولات مستمرة لمنع خادمتهما "كيسانج" من البوح بمعلومات

شخصية، لكن "نونى" أدركت أن من الصعب الاستمرار فى ذلك الأمر.. تتذكر الشقيقتان كم كانتا راغبتين فى أن تتوقف خادمتهما عن إخبارهما بعلاقتها العاطفية مع بائع الحليب.

- لقد أحببته كثيرًا.. لذا أخفيت على والدى أنه من ديانة أخرى حتى يوافقا على زواجى منه، وكان حفل زفافنا جميلاً.. واعتنى بوالدىّ عندما مرضا.. منذ البداية أقسمنا معًا ألا يترك أحدنا الآخر، وألا أموت وأتركه، وألا يموت ويتركنى

وأجهشت "كيسانج" بالبكاء وظهرت أسنانها البنية غير الثابتة التى تتحرك فى كل اتجاه.. ملابسها رثة ملطخة، وشعر رأسها معقود بأشرطة. وكانا قد قبلا بها خادمة غير مدربة من قبيل الشفقة، لكنها تعلمت كيف تعد الخضار الإندونيسى بالزبد وصلصة فول الصويا والخل والكاتشب والرقائق المجرية بالطماطم واللبن المتخثر..

كانت "لولا" تقول دائمًا إن الخدم لا يعرفون الحب بالطريقة نفسها التى يعرفها أناس مثلها وشقيقتها، اللتين تقيمان علاقات اقتصادية عملية تبتعد كثيرًا عن الحس والشعور.. وغمر "لولا" شعور بالدهشة من انها لم تجرب الحب الحقيقى، وأنها و"جويديب" لم يتناولا أبدًا أحاديث الحب التى لا تعرف المنطق والعقل.. ربما لم تكن قد عرفت الحب إذًا؟.. وسريعًا أغلقت عليها باب التفكير فى الإجابة على السؤال.

لم تعرف "نونى" الحب على الإطلاق، ولم يسبق لها أن جلست فى غرفة التذكارات لتتحدث عن مثل هذه الأمور، التى تجعل الروح ترتعش كشمعة.. هى لم تقدم نفسها كفتاة تبحث عن الحب فى مجتمع حفلات كلكتا، فتلف جسدها فى السارى لإظهار خطوطه وهى تحسو شراب الصودا المثلج فى دلال.. إذًا، ما الذى حصلت عليه؟.. لم تحصل حتى على الضغائن أو المرارات أو الأسى والحزن.. كل ما حصلت عليه ليس سوى غضب وسخط على أشياء كثيرة.

ما أوقع الذعر فى نفسها، هو اكتشافها أن شعورًا بالغيرة من "كيسانج" قد ساورها بالفعل.. اهتزت المرئيات أمام عينيها، وأدركت أن الحظ قد عاندها ورفض أن يحالفها.. وخطر على ذهنها السؤال: من سيحب "ساى" وتحبه؟

رأت نونى نفسها فى "ساى".. فى خجلها الذى كسبته من التحاقها بنظام تعليمى غير سوى.. وفى مدرسة "ساى" الشبيهة بمدرستها، حيث يمكن للدارس فيها أن يظل خارج الشرك، إذا جاهد فى إخفاء نفسه، وإذا ظل هادئًا عند توجيه سؤال له، وإذا لم يعبر عن رأى، وإذا جاهد حتى لا يراه أحد.. إذا لم يفلح فى ذلك، فسوف يصلون إليه ويقتحمونه ويدمرونه.

بعد أن تأخر بها الوقت طويلاً، استعادت "نونى" ثقتها، خاصة بعد أن مرت تلك الأيام التى كانت تجرى

فيها الأحداث سريعًا بالنسبة لفتاة، والتى بعد مرورها لا شىء يحدث على الإطلاق.

- ألا تريدين الالتقاء بآخرين فى مثل عمرك؟

أجابت "ساى" فى خجل، وقالت ما هى متأكدة منه

- أحب السفر

جعلتها الكتب قلقة، وهى فى بداية قراءاتها السريعة والمكثفة، إلى أن شعرت، والصفحات تتوالى، أنها الراوى وأن الراوى بداخلها، وأنها لم تعد قادرة على التوقف.. على هذا النحو قرأت "مقتل طائر غرد"، و"الحياة مع الأب"، وغيرها من الكتب من مكتبة نادى "جيمخانا"، واكتشفت أن هذه الكتب أثرت فيها كثيرًا.. تذكرت أثناء قراءتها والديها ورغبة والدها فى السفر إلى الفضاء، وعندئذ شعرت برغبة عارمة فى التعرف أكثر على والدها الذى لم تعرفه.. وداعب خيالها ربما ذلك الدافع نفسه الذى كان بداخل والدها لعمل شىء يتجاوز العادى والمألوف وما اعتاد القاضى عمله فى "تشو أويو"

أطلقت "نونى" تنهيدة وهى جالسة ترنو إلى الجبال وقالت:

- أرغب فى العيش إلى جوار البحر، فعلى الأقل لا شىء يمنع الموج من الهدير

قالت "ساى" شيئًا قرأته:

- جبال الهيمالايا، كانت فى وقت من الأوقات تحت مياه البحر، والدليل وجود أصداف وحفريات فوق جبل "إيفرست".

"تونى" و"ساى" أمسكتا بكتاب الفيزياء مرة ثانية، ثم وضعتاه فى موضعه مرة أخرى.. وتحدثت "تونى" إلى "ساى"

- إذا صادفتك فرصة، فاحصلى عليها ولا تترددى.. انظرى إلى.. كان علىّ أن أفكر فى المستقبل عندما كنت صغيرة السن.. اعتدت أن أحلم بأن أصبح عالمة آثار، لذلك كنت أذهب إلى المجلس البريطانى وأنظر فى كتب تتحدث عن توت عنخ آمون.. لكن والدى ووالدتى لم يستوعبا جيدًا رغباتى، فقد كانا من الطراز القديم، الذى تربى وتعلم فقط كيف يعطى الأوامر.

مرة أخرى لم تستطع "تونى" استيعاب درس الفيزياء، وقالت فى سرّها: يتعين على "ساى" إذًا أن تبحث عن مدرس أكثر كفاءة فى مادتى العلوم والرياضيات.. وبعثت بملاحظتها هذه مع "ساى" إلى القاضى.

- عليها اللعنة.. هذه المرأة غير المسئولة

قال القاضى فى غضب، وفى وقت متأخر من ذلك المساء، أملى على "ساى" خطابًا لمدير إحدى الكليات المحلية، يقول فيه: من فضلك، إذا تواجد لديك مدرس أو حتى طالب لتدريس مادتى الرياضيات والعلوم، أعلمنى بذلك.

## - ١٣ -

أسابيع قليلة مرت قبل أن يبدى مدير المدرسة موافقته على أن يذكى "جيان" كتلميذ واعد أنهى درجة البكالوريا، ولم يتمكن من الحصول على عمل.. "جيان" تلميذ المحاسبة الهادئ، كان يعتقد أن الاشتغال بالأرقام والإحصاءات هو ما يناسبه، لكن اتضح له أن الواقع مختلف تمامًا.. كان يستمتع بالسير فى اتجاه "تشو أويو"، برغم مشقة صعود التل الذى يستغرق منه ساعتين، منذ مغادرته قريته "بونج بستى"، يرافقه فى رحلته هذه ضوء الشمس الذى يتخلل أشجار البامبو، ويرصعها بالنجوم والوميض.

فى البداية، لم تكن "ساى" راغبة فى أن تضطر إلى ترك مجلة ناشيونال جيوجرافيك لكى تجلس إلى "جيان" فى حجرة الطعام وأمامهما متطلبات الدرس من أدوات قام الطباخ بوضعها وترتيبها على الطاولة: مسطرة، أقلام، كرة أرضية، مبراة، قلم رصاص، ورقة

رسم بيانى، منقلة، وفرجار، وهى الأدوات التى أوحت للطباخ بأجواء العيادة الطبية، ومعمل التحاليل، ومقياس الوزن، ودرجة الحرارة، والقارورة الزجاجية، والأنبوبة الماصة، والدودة الشريطية، وغاز الفورمالدهيد عديم اللون نافذ الرائحة.

أحضر الطباخ الشاى وشرائح الخبز المكسوة بالجبن والفلفل، بعدها جلس على كرسيه بالخارج قريبًا من الباب، ينظر إلى "ساى" والمعلم الجديد، ويهز رأسه فى رضا عن طبقة الصوت التى يتحدث منها "جيان"، وكلماته الواثقة التى تجيب بدقة وترتيب على المسائل الحسابية قبل التأكد من صحتها بالنظر إلى الإجابات المدونة فى نهاية الكتاب.

لم يدرك الطباخ لسذاجته أن كلمات "جيان" الواثقة مصدرها ليس الإيمان بالعلم الذى لا يحتمل الشك أو الخطأ، وإنما مصدره شىء آخر أعمق من مجرد علاقة بين مدرس وتلميذة، وربما اتضح ذلك الشىء عند انتهاء ساعتى الدرس ومغادرة "جيان" دون أن ينظر إلى عينى "ساى" التى لها تأثير قوى عليه.

- غريب أمر هذا المدرس النيبالى.. كنت أعتقد أنه بنغالى

قال الطباخ "لساى" بعد مغادرة "جيان".. وفكرت "ساى" فى الانطباع الذى تركته فى "جيان"، الذكى بعينيه الجادتين، وصوته العميق، وشعره المجعد، ووقفته المرتبكة التى تثير التهكم.

ـ البنغاليون أذكياء جدًا

ـ لا تكن سخيفًا

ـ إن سكان الساحل أكثر ذكاءً من ساكنى المدن التى لا تطل على البحر

ـ من يقول ذلك؟

قال الطباخ:

ـ الجميع يعرفون ذلك.. فسكان السواحل من البنغاليين والمالاويين والتاميل أذكياء لتناولهم كميات كبيرة من الأسماك، وعلى العكس منهم الذين يتناولون الكثير من الحبوب بطيئة الهضم، فيذهب الدم إلى المعدة وليس إلى الرأس.. أيضًا النيباليون جنود على درجة عالية من الشجاعة لكنهم لا يستمتعون بقدرة كبيرة على استيعاب الدرس، ولا يرجع ذلك إلى خطأ منهم بقدر ما يقع الخطأ على حالة الفقر التى يعيشونها.

ـ يبدو أنك فى حاجة إلى تناول السمك، فكل ما تقوله هو الحمق بذاته.

ـ لقد قمت بالعناية بك هنا، وغمرتك بكل الحب.. والآن انظرى ماذا تقولين لى.

فى تلك الليلة وقفت "ساى" أمام المرآة وحدقت فيها طويلاً.. شعور قوى بإدراكها لنفسها والوعى بها، غمرها أثناء جلوسها إلى "جيان" بسبب تحديقه فيها.. ففى كل مرة ترفع رأسها لتلقى عليه نظرة

عجلى، تجده يسارع بتوجيه نظراته فى اتجاه آخر.. ترى نفسها فى المرآة جميلة أحيانًا، لكن عندما تبدأ فى التأكد من ذلك، تكتشف أن الجمال شىء متغير، لا يمكنها بأى حال من الأحوال أن تحدده وتعرّفه أو أن تمنع نفسها من استثمار طبيعته المتقلبة المرنة لصالحها.. تخرج لسانها لصورتها فى المرآة وتدور بنظرة عينيها فى كل اتجاه، وترسم بشفتيها أكثر من ابتسامة وعلى ملامح وجهها تعبيرات مختلفة. وبينما كانت تنظف أسنانها بالفرشاة لاحظت رجرجة نهديها، أمعنت النظر جيدًا إلى نهديها ووجدته صلبًا ورجراجًا، متماسكًا ولينًا.

جسد "ساى" المدملج اللدن، المتماسك اللين، من المؤكد سيوفر لها إمكانية المقايضة.. لكن إذا استمرت فى دورانها فى فلك القاضى والطباخ فى ذلك البيت الكائن فى مكان يفتقد إلى الأهمية، فلن يكون بإمكانها الاحتفاظ بجمالها طويلاً، وسيذوى وتنتهى صلاحيته، ولا توجه له كلمات الغزل.

أعادت "ساى" النظر فى المرآة فوجدت وجهها غارقًا فى الحزن.. فكرت أن عليها أن تقدم نفسها للمستقبل بأية وسيلة ممكنة، وإلا فإنها ستجد نفسها سجينة إلى الأبد فى مكان أصبح خارج خارطة الزمان والمكان.

بمرور الأيام، استحوذ وجهها على اهتمامها بشكل مستمر، وأصبحت أكثر وعيًا بأن ذائقتها

وشهيتها يأخذان منحى مختلفًا واتجاهًا مغايرًا.. السؤال الذى ألحّ عليها طويلاً: كيف تبدو؟.. بدأت تطيل النظر إلى مظهرها.. إذا لم تتواجد مرآة فهناك السطح اللامع لأوانى وأدوات المطبخ، والمسطح الأخضر للبحيرة.. وجدت نفسها بدينة مستديرة فى الملاعق، ونحيلة طويلة فى السكاكين.. وتعود مرة بعد أخرى إلى المرآة لتكشف لها عن شىء ثم تكشف لها عن شىء آخر، دون أن تعطيها إجابة كالمعتاد.

## ـ ١٤ ـ

فى الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة صباحًا، توجه "بيجو" إلى مخبز "كوين أوف تارتس"، وهو يتحسس طريقه بحذر خوفًا من رجال الشرطة وأسئلتهم: أين ذاهب؟ ماذا تفعل؟ مع من تعمل؟ وفى أى وقت؟ ولماذا؟.. وخوفًا أيضًا من أفراد الشرطة المختصة بشئون الهجرة الذين استوقفوه أكثر من مرة، وبسبب ذلك كان يفضل العمل فى المخابز، التى تنتج الخبز فى الصباح الباكر.

أعلى المخبز تسير قطارات "الساب واى" على قضبان حديدية مثبتة فى طريق علوى يستند إلى ركائز معدنية تصله بالأرض، ومع مرور كل قطار يعلو صوت صريخ حاد يصاحبه نثار من شرر النار يتصاعد من احتكاك العجلات بالقضبان، ويضىء ما تحت عباءة ليل حى "هارلم" من قسوة وعنف.. كان فرن المخبز يصدر أزيزًا مع شعلة النار التى تومض

وتخفت، وفأر كبير الحجم يتحرك بسرعة فى اتجاه ركن معتم، مصدرًا صوتًا كالنخير، دون أن تتمكن مصيدة صغيرة من اصطياده.

فى "كوين أوف تارتس"، حاز "سعيد سعيد" على إعجاب "بيجو"، الذى رغب بشدة فى أن يكون صديقه، مثله فى ذلك مثل كثيرين رأوا فيه الملجأ والملاذ، ليس فقط مواطنيه الزنجباريين، وغيرهم ممن يقيمون فى أمريكا إقامة غير شرعية، بل العديد من الأمريكيين أيضًا.

لم يكن سعيد باكستانيًا، لذا أحبه "بيجو" الذى لم يكن يحب الباكستانيين، وكان يكره الكثير من المسلمين.. لم يأبه سعيد بنصائح البعض بأن يحذر الهنود، لأن صفاته الطيبة جعلته لا يهتم بمثل هذه التحذيرات.. وعندما كانت فتيات جميلات يأتين لشراء كعكات القرفة المحلاة بالسكر، كان سعيد يصف لهن جمال وطنه زنجبار، والفقر الذى يعانى منه مواطنوه، فتغمرهن موجة من الحنو والإشفاق ويجدن فى أنفسهن رغبة فى ملاطفته وفى دعوته إلى بيتهن لمشاركتهن الحديث ومشاهدة التليفزيون، وكم كن يباهين صديقاتهن بصحبة رجل وسيم جذَّاب مثله، فارع الطول، تعلو رأسه خصلات من الشعر المجدول.

كان عمله بالمسجد الكائن فى شارع السادس والتسعين هو أول عمل له فى نيويورك وأمريكا، فقد أسند له إمام المسجد مهمة إقامة الأذان فى صلاة الفجر لعذوبة صوته وقوته، لكنه كان مولعًا، قبل

توجهه لعمله فى المسجد، بالتوقف أمام أندية الليل فى انتظار قدوم المشاهير، لكى يخرج من جيب سترته كاميرا يلتقط بها صورًا له معهم، مثل "مايك تايسون" و"نعومى كامبل"، وفى كل مرة يقدم نفسه: "أنا سعيد من إفريقيا.. لا تنزعج يا رجل فنحن لم نعد نأكل البيض!".. ومع استمرار تردده على أندية الليل، سمح له بدخولها.

رغم الصور الفوتوغرافية التى يبدو فيها سعيد واقفًا جنبًا إلى جنب مع مشاهير أمريكا، إلا أنه تم ترحيله عائدًا إلى زنجبار، وهناك قوبل بترحاب وكأنه مواطن أمريكى، فتناول أجود أنواع السمك المطبوخ بحليب ثمرة جوز الهند، مستلقيًا فوق الرمال الناعمة، ومستظلاً بظلال أشجار النخيل، وبصحبة فتيات "ستون تاون" اللاتى وجدن التشجيع من آبائهن الذين كانوا يأملون فى أن يقع "سعيد" فى حبائل واحدة منهن.. ولأنه ظل يبدد وقته فيما لا طائل منه، أثناء وقوفه بلا عمل على ناصية الشارع، فضلاً عن إثارته المشكلات، فقد ساهم الجيران فى جمع ثمن تذكرة السفر التى تأخذه بعيدًا إلى أمريكا، ومع ذلك فقد وجد من يقدر قيمته ويطلب من الله أن يتزوج من "فاطمة" البدينة، أو سلمى الجميلة، أو "خديجة" ذات العينين الرماديتين بصوتها الذى يشبه مواء القطة.

لم يكتب لمحاولات الفتيات وآبائهن النجاح، فقد سافر "سعيد" مرة أخرى ومعه صورهن المكتوبة عليها عبارات تذكره بهن أثناء إقامته فى نيويورك التى عاد

إليها بعد غياب شهرين بجواز سفر جديد واسم جديد: "رشيد ذو الفقار".. عند وصوله إلى مطار "جون كيندى"، وفى اللحظة التى شاهد فيها نفس ضابط الجوازات، الذى قام بترحيله من نيويورك، تسارعت دقات قلبه وغمره الخوف، لكنه عندما لم يتذكره الضابط، قال سعيد فى سرّه: شكرًا لله، فنحن جميعًا نشبه بعضنا البعض بالنسبة لهم.

أمريكا، التى تملقها، واحتال عليها، واستشعر الضعف والولاء تجاهها، أخيرًا أثنت على مواهبه وكافأته، بعد أن أعمل سحره فيها.. سعيد الذى عرف طريقه بالحيلة إلى كل الأبواب الخلفية، واستمتع بخرقه القانون والنظام، كانت عيناه تطفران بالدموع، ويغلب التأثر على صوته، عند رؤيته لعلم تلك الدولة، التى أدركت أن علاقة عاطفية تربط بينها وبينه.. تقوى هذه العلاقة أحيانًا، وتضعف أحيانًا أخرى، وربما تسوء هذه العلاقة فى وقت ما، وتفقد حلاوتها، ورغم ذلك لا يمكن لهذه العلاقة الرومانسية إلا أن تتجاوز كل ما يواجهها من مشكلات وعقبات.

فى السادسة صباحًا، وأرفف المخبز جاهزة لبيع الخبز والبسكويت بنكهة المشمش والتوت، والمحلى بالسكر والمربى، جلس "بيجو" تحت أشعة الشمس الواهنة بالخارج يتناول قطعة بسكويت يمسك بها بأصابع يده الدقيقة الطويلة.. لكن براءة صباح نيويورك لم تستمر طويلاً، فقد عبرت مسرعة سيارة إسعاف ومن خلفها سيارة إطفاء الحريق، وفى الأعلى،

أصدر قطار الساب واى صريخه الحاد، الذى جعله يتوقف عن المضغ ويتذكر والده ويذكر نفسه بأن ما انتابه من ذعر ليس إلا نتيجة صخب وسائل المواصلات، وسرعان ما عاد إلى قطعة البسكويت التى ذابت داخل فمه واختفت.

فى "كاليمبونج"، كان الطباخ يكتب خطابًا: "عزيزى "بيجو".. هل يمكنك مساعدة......". قبل أسبوع قام أحد الخفراء بزيارة رسمية إلى الطباخ ليبلغه أن ابنه لا يجد عملاً، ويطلب منه أن يقوم "بيجو" بمساعدته فى السفر إلى أمريكا، والحصول على عمل هناك، مثل رجل فى قريته كان قد سافر إلى إيطاليا وعمل طباخًا ويحصل على آجر طيب.. للوهلة الأولى، انزعج الطباخ وداهمه شعور بالقلق، وتصارع بداخله الكرم والبخل، لكنه قال: "لماذا لا؟.. سأطلب منه ذلك.. ربما من الصعب تلبية ذلك الطلب، لكن لا ضرر من المحاولة".. فى جلستهما خارج المنزل، تقاسم الرجلان، الطباخ والخفير، التدخين، وحديث رجلين متقدمين فى العمر عن الشباب الصغير.

إعلاءً من شأن ابنه "بيجو" وإظهارًا لزهوه به، كتب الطباخ على ظهر المظروف الذى يحمل خطابه المرسل بالبريد الجوى: "أرجو أن تبلغنى إذا كان باستطاعتك مساعدة ابن الخفير".. فى تلك الليلة نام الطباخ سعيدًا هانئًا إلى أن أيقظته الجلبة المصاحبة لعودة البقرة المفقودة، وعندئذ عاد من جديد إلى التفكير فى ابنه وفى الالتماس المدون على المظروف

المرسل، الذى يعلى من شأنه، ثم عاد إلى النوم مرة أخرى.

كل عام، يتقدم سعيد ضمن المتقدمين سنويًا إلى السحب العشوائى للحصول على الجنسية الأمريكية، وهو السحب الذى يتقدم إليه بلغار وأيرلنديون ومواطنو مدغشقر وجنسيات أخرى عديدة، ولا يسمح فيه للهنود بالتقدم إليه.

عندما كان القلق يداهم "بيجو"، يجد نفسه وقد توجه إلى النهر، ليس إلى الجزء الصاخب الذى تلعب فيه الكلاب مع أصحابها، ولا إلى الجزء الذى تسير فيه فتيات يرتدين جيبات تغطى سيقانهن وقمصان طويلة الأكمام مع رجال يرتدون بدلات سوداء وقبعات، بل إلى حيث رجل بلا مأوى ينام فى غالب الأحيان داخل تجويف من شجر ونباتات حديقة صغيرة، وإلى دجاجة بلا مأوى أيضًا، يراها "بيجو" من وقت لآخر وهى تنقر بمنقارها فى القاذورات، ويناديها فتجرى بعيدًا فى ارتباك كفتاة خجولة على علم بتأثير جاذبيتها.

سار بيجو فى اتجاه أناس مثله يجلسون على الصخور وينظرون إلى "نيو جيرسى" الهاجعة على الجانب الآخر من النهر، دون أن يتمكن من التخفيف من شعوره الحاد بالغضب من والده الذى أرسله وحيدًا إلى هذه البلاد البعيدة، لكنه كان يعلم أنه لم يكن سيغفر لوالده أيضًا عدم بذل محاولة لإرساله إلى هذه البلاد.

## - ١٥ -

خارج عيادة كاليمبونج الطبية، وتحت شجرة البرقوق المزهرة، والملوثة بدماء متخثرة عطنة، وعلى المقعد الذى يجلس عليه المتزوجون حديثًا لالتقاط صور فوتوغرافية، جلس الطباخ على حافة المقعد مرتديًا نظارته لكى يقرأ الخطاب المرسل إليه من بيجو، غير مكترث بتوسلات عروسين لكى يترك المقعد لهما حتى يمكنهما التقاط صورة تذكارية بمناسبة زواجهما.

"حصلت على عمل جديد فى مخبز صاحبه يترك لنا مهمة إدارته".. طوى الطباخ ورقة الخطاب ووضعها فى جيب قميصه، وشعور بالسعادة يغمره أثناء سيره المتعجل بين نساء نيباليات تتدلى من أنوفهن حلقات ذهبية، ونساء من التبت بجدائلهن وحبات الخرز اللاتى يستخدمنه فى صلاتهن، القادمات سيرًا على الأقدام من قرى بعيدة لبيع نبات الفطر المغطى بأوراق نبات أخضر والذى أصبح نصف

مطهى بفعل حرارة الشمس، ورجال يعرضون أنواعًا من المساحيق والزيوت وملابس الجينز والأجهزة الإلكترونية وأسنان صناعية وأغطية من البلاستيك تقى من المطر.

عند قدوم الطباخ والقاضى لأول مرة إلى كاليمبونج، كان من المألوف مشاهدة قوافل العربات المغطاة بأغطية صوفية، وتجرها بغال من التبت، تنتعل وقاءً من الفرو، وتتدلى من آذانها أقراط تتأرجح أثناء السير... فى تلك الأثناء، كانت الرائحة العطنة للرجال والحيوانات تنال بعض الشىء من رائحة أشجار الصنوبر الذكية التى تعرفها جيدًا "لولا" و"نونى" منذ قدومهما من كلكتا.. تذكر الطباخ أيضًا، تلك القوافل التى تجرها ثيران التبت الضخمة طويلة الصوف.

- ابنى يعمل فى نيويورك.. يعمل مديرًا لمطعم

لم يترك الطباخ أحدًا يلتقى به دون أن يباهى أمامه بابنه

- نيويورك، مدينة كبيرة جدًا.. السيارات والبنايات هناك مختلفة تمامًا عن هنا.. فى تلك المدينة الكبيرة، هناك طعام يكفى الجميع.

- متى ستسافر إلى هناك، باباجى؟

- فى يوم ما.. سيأتى لكى يصحبنى معه

على جانب الطريق، شاهد الطباخ خشب الأزاليا الصحراوى العطرى، والعرعر من فصيلة الصنوبر، فى

رزم ملفوفة بورق الصحف ومصفوفة على الأرض، وتذكر اليوم الذى قدم فيه "الدلاى لاما" إلى كاليمبونج، عندما أحرقت له تلك الأخشاب لتنتشر رائحتها الذكية على طول الطريق.. فى ذلك اليوم كان الطباخ الذى لا يدين بالبوذية وسط الزحام، وكان صوت الهدير المكتوم للصلاة يدوى فى الجبال، والبغال والجياد فى ترقب، والأجراس تدق.. صلى الطباخ مع المصلين من أجل بيجو، وذهب إلى الفراش مستشعرًا فى داخله التقوى والنظافة رغم علمه أنه لم يكن نظيفًا.

سار فى اتجاه محطة الحافلات الملوثة بالشحم ورائحة عادم السيارات الخانقة، ومر بدار سينما متواضعة تعرض أفلامًا من نوع "اغتصاب عذراء"، و"أسرار امرأة متزوجة"، يتردد عليها أناس لا أحد منهم بالطبع لديه أى اهتمام بابن الطباخ.. وأمام وكالة سفريات "سنوليون"، توقف الطباخ راغبًا فى لفت انتباه المدير "تاشا" المنشغل بالحديث إلى سائحة من تلك النساء الأجنبيات اللاتى يلحظن افتتانه بهن ويجدن فيه ما يجعلهن يكتبن إلى بلادهن عن علاقتهن الغرامية برجل من التبت يقطن نيبال إلى الجنوب من جبال هيمالايا.. داخل وكالة السفريات ملصقات وكتيبات فى كل مكان عن رحلات إلى الأديرة ينظمها "تاشا"، وصور فوتوغرافية عن فنادق صممت مبانيها واختير أثاثها على الطراز القديم، وبالطبع كان "تاشا" يغفل حقيقة أن المبانى التى يمتد

عمرها إلى قرون مضت قد تم تحديثها بإدخال الخرسانة المسلحة، والإضاءة بمصابيح الفلورسنت، والقرميد الذى يكسو أرضية وجدران الحمامات.

بعد أن قام "تاشا" بحجز رحلة إلى "سيكيم" للسائحة، قال للطباخ:

ـ عندما تسافر إلى أمريكا، خذنى معك

ـ نعم، نعم.. سنسافر معًا.. لماذا لا؟.. تلك البلاد التى بها العديد من الفنادق والحجرات، على العكس من بلادنا المزدحمة جدًا.

فى أحد خطاباته، كتب "بيجو": "لا تقلق، فأنا أدخر نقودى لشراء تذكرة السفر لك.. كيف حالك؟.. كيف صحتك؟".. فى يوم ما سيحقق ابنه كل الذى فشل والدا "ساى" فى تحقيقه، وكل الذى فشل القاضى فى تحقيقه.

تابع الطباخ سيره بمحاذاة محل الترزية "أبولو ديف"، ودخل متجر "لارك" لشراء شاى توش ولبن مجفف وشرائط مكرونة بالبيض.. وعند قدوم الطبيبة إلى المتجر لتستعيد اللقاحات المحفوظة داخل الثلاجة، قال لها الطباخ: "ابنى حصل على عمل جديد فى الولايات المتحدة الأمريكية".. كان ابن الطبيبة هناك، لذا أحس الطباخ أن هناك شيئًا مشتركًا بينه وبين الطبيبة، التى تعد من الشخصيات المتميزة فى المدينة.. وأثناء عودته إلى المنزل عند الغسق، قدم نصيحة لمن كانوا يحملون أحمالاً ثقيلة بأن يأخذوا

قسطًا من الراحة على يمين الطريق قبل أن يواصلوا صعود التل.

قال للسيدة "سن" التى لها أيضًا ابنة فى أمريكا: "إنها أفضل بلاد العالم.. كل من سافروا إلى إنجلترا يشعرون بالأسف الآن".. أومأت بإشارة من يدها ذات مغزى مشيرة إلى جيرانها فى "مون آمى".. وبعد أن ذهب الطباخ وأبلغ "لولا" بما جرى، أبدت استياءها الشديد من محاولة "سن" الانتقاص من إنجلترا.. كانت ابنة السيدة "سن" تمثل تهديدًا لما تباهى به "لولا" ولما يباهى به الطباخ أمام الأميرتين الأفغانيتين، اللتين قامتا بتزويده بنقود يشترى بها دجاجة فى كل مرة يذهب فيها إلى السوق.. وبالطبع فور إحضاره الدجاجة لهما يقومان بوضعها فى ماء مغلى وطهيها بالكارى أو صلصة فول الصويا أو صلصة الجبن أو صلصة نبات الفطر مع البراندى، فلم يكن لديهما ثلاجة تحفظ لهما الدجاج لطهيه فى وقت لاحق.

وبعد أن تحدث الطباخ عن ابنه للرهبان الذين يلعبون كرة القدم خارج مكان العبادة، وللعم بوتى وللأب بووتى، اللذين كانا يرقصان معًا فى الشرفة على أنغام الموسيقى، توقف أمام كشك لشراء البطاطس، ليجد ابنة البائع ترتدى ثوبًا طويلاً فضفاضًا تساير به الموضة، التى تتبعها كل النساء والفتيات فى السوق اللائى يرتدين أثوابًا طويلة فضفاضة وشعورهن الطويلة منسابة على ظهورهن،

مشكلين فى ضوء النهار مشهدًا أقرب إلى الحلم الجميل.

كانت ابنة البائع فتاة شابة جميلة وممتلئة، يطل من فتحة ثوبها عند الصدر نهداها الرجراجان اللذان يجذبان أنظار الرجال والشباب وحتى النساء، وربما أيضًا بيجو.

ـ ثلاثة كيلو جرامات بطاطس

طلب الأب من ابنته بصوت هادئ غير معتاد بالنسبة للطباخ

ـ ماذا عن الأرز؟.. وماذا عن نظافته؟

ـ لا يا عم.. ما لدينا من أرز غير نظيف ويمتلئ بحجارة صغيرة، وقد يتسبب فى تحطيم أسنانك إذا تناولته

قال فى سره: على أية حال.. المال ليس كل شيء.. فهناك تلك السعادة البسيطة التى يستشعرها المرء عند قيامه بالاعتناء بآخر، وعند شعور المرء بأن هناك من يعتنى به.

- ١٦ -

بدأت "ساى" تضع الحب وعلاقات الآخرين الغرامية فى دائرة اهتمامها، لذلك ألحت على الطباخ بالسؤال عن القاضى وزوجته، قال: "عندما التحقت بالعمل فى منزله، أخبرنى قدامى الخدم بأن موت جدتك هو سبب القسوة البادية عليه، فقد كانت امرأة عظيمة، ولم يحدث أن ارتفع صوتها أثناء حديثها إلى الخدم، وكان حب القاضى لها شديد العمق.

- هل أحبها ذلك الحب الكبير؟

- نعم.. لكنهم قالوا أنه لم يكن يظهر حبه

- ربما لم يكن يحبها؟

- أنت فتاة شريرة.. بالطبع أحبها جداً

للحظة، فكر الطباخ فى زوجته، وقال:

- لا أحد كان يعلم بحقيقة ذلك الحب، ولا أحد قال شيئًا عن تلك الأيام.. لكن هناك طرقًا عديدة

لإظهار الحب تختلف بالطبع عن الطريقة التى نراها فى أفلام السينما.. دعينى أقول إنك فتاة شديدة الحمق؛ لأنك لا تعلمين أن أعظم الحب هو الذى لا يبدو للعيان

ـ أنت تقول ما يحلو لك قوله

بعد تفكير، قال الطباخ:

ـ نعم.. لقد وجدت أن من الأفضل فعل ذلك

ـ قل لى.. هل أحب القاضى زوجته أم لا؟

على سلالم الدرج المؤدى إلى الحديقة، جلس الطباخ و"ساى" والكلبة "مات" ترقبهما فى ألفة وهما يخرجان من جسدها حشرة القمل، وهو العمل الذى يستغرق منهما فى المعتاد حوالى الساعة.. كان من السهل عليهما قتل الحشرات الكبيرة، لكن الصغيرة البنية منها صعب عليهما قتلها بحجر على مسطح حجرى، ففى برهة يجدانها وقد طارت بعيدًا.. وأثناء قيام "ساى" بمطاردة هذه الحشرة عند طيرانها كانت تخاطبها قائلة: لا تجرى بعيدًا.. إياك أن تتسلقى ظهر "مات".. حاولا إغراق الحشرات فى إناء صغير به ماء، لكنها كانت تسبح وتتسلق الواحدة بعد الأخرى زاحفة إلى خارج الإناء، وتعود "ساى" إلى مطاردتها وإعادتها إلى الإناء، وتسارع بإلقاء ما فيه فى دورة المياه وتسكب عليه سيلاً من الماء المتدفق، لكن الحشرات تعود إلى السطح من جديد بعد سباحة مجنونة داخل تجويف دورة المياه.

سرح الطباخ ببصره لبعض الوقت فى الماضى وذكرياته، وقال لساى:

- لا.. لا.. القاضى لم يحبها على الإطلاق.. لقد فقدت عقلها.

- هل حدث ذلك؟

- نعم.. قالوا إنها سيدة مجنونة

- هل تعرف عنها شيئًا؟

- لم أعد أتذكر اسمها، لكنها كانت ابنة رجل غنى، ومستوى معيشة عائلتها أعلى من مستوى معيشة عائلة جدك، وإن لم تكن أعلى كثيرًا عن بقية طوائف الهندوس.. كانت ملامح وجهها دقيقة حتى يكاد المرء يخطئ ويحسبها أجنبية.

سألت "ساى" جدها القاضى، أثناء جلسته المتأملة لرقعة شطرنج أمامه

- قل لى شيئًا عن جدتى.. هل تنحدر من عائلة ثرية؟

- ألا ترين أننى ألعب الشطرنج؟

عاد ببصره إلى رقعة الشطرنج، ثم نهض وسار متجهًا إلى الحديقة، حيث الضباب الرقيق يغشى المرئيات، والسناجب تطارد بعضها البعض، وقمم الجبال التى تشبه قرون وعول تخترق السماء.. لكنه عاد من جديد إلى رقعة الشطرنج، وقام بنقل حجر من مكان إلى آخر فى حركة بدت كأنها حركة قديمة فى لعبة قديمة.. وخطرت على ذهنه صورة كانت قد

انطبعت فى مخيلته، فتركت على ملامحه شيئًا من رقة تثير دهشة الناظر إليه.

كانت عائلة "باتل" تحلم بإرسال ابنها إلى إنجلترا، لكن لم يكن لدى والد "جيمو" المال الكافى لذلك، فلجأوا إلى أماكن تقدم قروضًا مالية، قامت بدراسة حالة الأب والابن، وبعد معاناة من إجراءات بطيئة بطء السلحفاة، تم الحصول على قرض قيمته عشرة آلاف روبية بنسبة فائدة ٢٢٪ .. لم تكن قيمة القرض كافية، ومع ذلك بدأت العائلة فى البحث عن عروس لجيمو، الذى سيصبح أول ابن لها يلتحق بجامعة إنجليزية، الأمر الذى جعل والده يرفض عروسًا بعد أخرى، إما لوجهها الدميم أو لشحوب بشرتها، وأخيرًا استقر اختيار العائلة على فتاة دميمة شديدة السمرة لأب غنى.

بالقرب من معسكر كبير للجيش على الجانب الآخر من مدينة "بيفيت"، كان يقطن رجل يدعى "بومانباى باتل"، قصير القامة له أنف تتجه إلى أعلى مثل أنف وحيد القرن، ويحمل عصا، ويرتدى معطفًا طويلاً من قماش مطرز.. والده كان يساعد فى سرية تامة الطرف صاحب الكفة الأرجح فى النزاع الحادث بين الإنجليز وإحدى الجماعات المناوئة لهم، وفى مقابل ذلك حصل من أحد العسكريين الإنجليز على عقد يسمح له بتوريد علف الجياد لمعسكر الجيش البريطانى الموجود بمدينة "بيفيت"، ثم بعد ذلك أصبحت عائلة "باتل" تحتكر توريد معظم ما يحتاجه

الجيش البريطانى من سلع وأطعمة جافة.. وعندما حل "بومانباى" محل والده سلك طرقًا إضافية تحقق له الكثير من الربح مثل قيامه بشكل غير قانونى بمساعدة جنود بريطانيين على قضاء وقت فى مكان ما بالمدينة، غير مرخص له بمزاولة البغاء مع نساء غير مرخص لهن بممارسة هذه المهنة.

على أية حال، ظلت زوجة بومانباى وبناته بمنأى عن كل ذلك خلف جدار عازل أغلق عليهن، وكتب على لوحة معلقة بأعلى المدخل "منزل "بومانباى باتل" متعهد تموين الجيش".. فى ذلك المكان عاشت العائلة حياتها خلف حجاب صارم زاد من علو شأنها فى المجتمع المحيط، الذى تعرف على بعض مظاهر ثروتها، برغم عدم تخلى بومانباى عن معطفه الطويل المطرز وعصاته المصقولة الناعمة.

أمام المدخل كان البائعون الجوالون الصينيون فى انتظار أثواب الحرير وأشرطة الزينة والأدوات المنزلية التى تقوم نساء المنزل بفحصها، وكان الجواهرجية يعرضون قطعًا نادرة من المجوهرات للفتيات فى سن الزواج، كما كانت تعرض على قاطنى المنزل أيضًا أمتعة من الطراز العتيق تخص مهراجا هندى تعرض للإفلاس.. وبسبب ثقل قطع الألماس النادر المجلوب من جنوب إفريقيا، استطالت شحمة أذن زوجة "بومانباى"، وفى يوم من الأيام، تمزقت شحمة أذنها وسقطت منها قطعة الألماس وقد لوثت بالدماء، واختفت داخل أنبوب الصرف الصحى بحمام المنزل.

"بومانباى" الذى لم يكن سوى بائع صغير فى الأصل، وأصبح أكثر ثراء من كل أفراد الطبقة العليا الهندوسية فى المدينة، بلغ ذروة انتصاره مع قيامه بإلحاق طباخ من البراهما للعمل عنده.. وفى أحد الأيام تزاحم عدد من الرجال أمام منزله للتحقق من رحيل ابنه "جيمو" الوشيك إلى إنجلترا، عندئذ خرج إليهم وقد عقد حاجبيه مفكرًا فيما سيصرح به لهم، وعندما تحدث إليهم لم يشبع فضولهم، بينما كان يرتشف من كأس زجاجية مصنوعة فى البندقية بها براندى مخفف بماء ساخن.

لم يتوقف طموح "بومانباى" عند حد بعد استخدامه للطاهى البراهمى، فكان يعلم جيدًا أن العالم من حوله أكثر رحابة، وأن التاريخ لا يشفق على الضعفاء، ولا يمنحهم رفعة وتميزًا.. وبعد مرور أسبوع استقل بومانباى عربته ذات الغطاء القابل للطى يقودها اثنتان من أنثى الخيل لونهما أبيض، وأثناء مروره بالنادى البريطانى الكائن فى طريق ثورنتون، والذى لا يمكنه الانضمام إلى عضويته مهما بلغ من ثراء، خطرت على ذهنه أجمل بناته "بيلا" وشقيقاتها يحاصرهن الملل فى أسرّتهن وتحت ثريا من الكريستال الفاخر بلون الثلج فى حرارة الصيف، وقال فى سره إنه إذا نجح "جيمو" فى مسعاه فسوف تتزوج "بيلا" من أكثر الرجال ثراء ونفوذًا فى الهند.

***

في حفل الزفاف الباذخ الذى استمر لمدة أسبوع، عندما انحنى بومانباى لضيوفه، طالبًا منهم فى تواضع جم أن يتوجهوا إلى القاعة المخصصة لتناول الطعام والشراب، أدرك الضيوف زيف تواضعه عند رؤيتهم للحلى والمجوهرات الوفيرة التى تتزين بها العروس إلى درجة أنها كانت تسير بصعوبة تحت ثقل ما ترتديه من جواهر وأحجار كريمة، اعتادت العروس الهندية جلبها إلى عريسها عند الزواج مثل الذهب والزمرد من فنزويلا، والياقوت من بورما، وأحجار الألماس، وأقمشة صوفية لصنع بدلات يرتديها الزوج عند سفره إلى إنجلترا، وبالإضافة إلى كل هذا، تذكرة سفر بالباخرة من بومباى إلى ليفربول موضوعة بعناية داخل مظروف أنيق.. وبالطبع بعد انتهاء مراسم الزفاف، تغير اسم العروس إلى اسم تختاره عائلة "جيمومباى"، وكان أن تحول فى خلال بضع ساعات اسم العروس من "بيلا" إلى "نيمى باتل".

***

حاول جيمومباى"، وقد استمد شجاعة مما احتساه من شراب كحولى، أن ينزع سارى زوجته بشىء من عنف، أثناء جلوسها على حافة الفراش، تمامًا كما نصحه أعمامه وهم يداعبونه ويدفعونه بقوة فى ظهره، لكنه دهش عندما اكتشف وراء المظهر الجذاب الخادع، وجهًا آخر مختلفًا لفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها، تبكى وتصرخ فى فزع وخوف، وفى

الحال انتقل إليه خوفها، وتخلت عنه غطرسته الزائفة، وقال لها بصوت يشى بالهلع، محاولاً التقليل من حجم الضرر: "لا تبكى.. اسمعى.. أنا لا أنظر إليك".. وأعاد السارى إليها.. لكنها استمرت فى البكاء والنشيج.

ضحك الأعمام فى صباح اليوم التالى وهم يومئون إلى غرفة النوم: "ماذا حدث؟.. لا شىء؟".. وتزايدت ضحكاتهم وحل محلها القلق فى الأيام التالية: "استعمل القوة معها، ولا تدعها تتصرف معك بما لا يليق".

فى الوقت الذى استمعت فيه العروس إلى تحذيرات تقول: "عائلات أخرى لن تطيق معك صبرًا"، أمر الأعمام جيموباى: "طاردها وقيد أطرافها بالسرير".. وبينما كان هناك من يتساءل عن سبب عدم شعورها بالسعادة مع "جيمو" الذكى، أول من يسافر إلى إنجلترا من بين شباب المدينة، بدا جيمو يشعر بالأسف لها وله على اعتبار أنهما شريكان فى المحنة التى تمتد من ليلة إلى أخرى.

اقترح "جيمو" على عروسه أن يصطحبها معه على دراجة والده، لكنها هزت رأسها رافضة الفكرة، وعندما استقل الدراجة تغلب فضول الطفلة فيها على دموعها، وتسلقت الدراجة من أحد جانبيها، وانطلق بها بعيدًا بين الأشجار والأبقار محذرًا: "احتفظى بساقيك بعيدًا عن العجلة".. استدار جيموباى بوجهه

وألقى نظرة خاطفة على عينيها، وقال فى سره: عينان لا مثيل لهما، ولا مثيل للطريقة التى تنظر بها إلى العالم.. وعندما زاد من سرعة الدراجة، وأثناء مرورهما بمنحدر، سقطا من فوقها، وتوقفت دقات قلبيهما للحظات، وهما مستلقيان على أوراق الشجر الخضراء، وسماء زرقاء من فوقهما.

***

رفع القاضى نظره من فوق رقعة الشطرنج، ورأى "ساى" وقد تسلقت شجرة بالحديقة حتى يمكنها إلقاء نظرة على منعطف الطريق، تتيح لها رؤية "جيان" من على بعد.

مع توالى دروس الرياضيات الأسبوعية، كان الإحساس بالتشويق والترقب يتنامى عند "ساى" و"جيان"، ويجدان نفسيهما لا يستطيعان الجلوس فى نفس الحجرة بدون أن تأتيهما رغبة فى الابتعاد عن بعضهما، ويختلقان الأعذار لذلك، فقد تشكو هى من الصداع، وقد يضطر هو للمغادرة مبكرًا، لكن فى اللحظة التى يفارق فيها أحدهما الآخر يستشعران قلقًا وغضبًا، وينتظران ثانية موعد الثلاثاء التالى.

اتجه القاضى إلى "ساى" فوق الشجرة وقال:

- اهبطى

- لماذا؟

- تسلقك الشجرة يجعل الكلبة مات عصبية المزاج.

تطلعت "مات" إلى "ساى"، وتحركت يمينًا ويسارًا

- حقيقة

- آمل ألا يجول بخاطر مدرسك أفكار مضحكة

- أية أفكار مضحكة؟

- اهبطى فى الحال

هبطت "ساى" من فوق الشجرة، ودخلت المنزل، وأغلقت على نفسها حجرتها، وهى تفكر بأنها فى يوم ما ستغادر هذا المكان، وتذكرت ما قالته "نونى": "الزمن لا يتوقف، لذا كونى مستعدة لاستقبال أحداث حياتك.. هذا ما أفعله، وهذه نصيحتى لك.

## - ١٧ -

أمسك سعيد سعيد بذيل فأر فى مخبز "كوين أوف تارتس"، بعد أن ضربه بحذائه عدة مرات، وحاول أن يتبادله مع "بيجو" الذى جرى بعيدًا، ثم قذفه إلى أعلى، وعند هبوطه ضربه بحذائه مرة أخرى، قائلاً: أنت إذًا من يأكل الخبز والسكر؟.. وبعد أن أنهى سعيد فاصل اللهو، عاد إلى العمل.

فى كاليمبونج، كان الطباخ يكتب على مظروف رسالة البريد الجوى عنوانًا باللغة الهندية، ثم كتب نفس العنوان بحروف إنجليزية غير واضحة.. حاصرته طلبات المساعدة من آباء يريدون سفر أبنائهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية مثل بيجو، وتقبل هدايا الدجاج وعلب الزبيب والجوز ودعوات لاحتساء الشراب، وشعر وكأنه صاحب أفضال يتوجب عليه أن يتقبل الشكر عليها.

قد لا يعلم الكثيرون أن العديد من الرسائل التى أرسلت إلى بيجو فى الولايات المتحدة الأمريكية قد

ضلت طريقها إليه، ربما بسبب مزاج ساعى بريد فى يوم ممطر، أو انهيار فى صخور التربة فى المنحدرات على طول طريق عربة البريد إلى "سيليجورى"، أو بسبب البرق والرعد والضباب المحيط بالمطار فى "كلكتا" التى تبدأ منها رحلة الرسائل البريدية الجوية، إلى حيث تنتهى فى مكتب البريد بشارع ١٢٥ بحى هارلم فى نيويورك، الذى تتواجد فيه حواجز التفتيش تمامًا مثل حواجز التفتيش التى يقيمها الجيش الإسرائيلى فى غزة.. هناك أيضًا ساعى بريد تيرك الرسائل أعلى صناديق البريد التى تخص المقيمين بطريقة قانونية، وقد تسقط الرسائل على الأرض وتسحقها الأقدام.. ومع ذلك، فقد وصل إلى "بيجو" ما يكفى ويزيد من الرسائل، التى شعر بالحيرة والعجز أمامها: "إنه ولد ذكى وعائلته فقيرة جدًا.. أرجوك ابحث له عن عمل.. فى الحقيقة شقيقه أيضًا مستعد للسفر.. حاول مساعدتهم".

ـ أنا أعرف يا رجل.. أعرف ما تشعر به

قال سعيد، الذى كانت أمه توزع رقم تليفونه وعنوانه إلى ما يقرب من نصف سكان مدينته "ستون تاون".. وكانوا يصلون إلى مطار جون كيندى وفى جيب الواحد منهم دولار واحد ورقم تليفونه، ويأمل منه أن يوفر له مكانًا فى شقة مزدحمة أصلاً بالرجال: راشد، أحمد، جعفر، عبدالله، حسن، موسى، لطفى، على، وغيرهم كثيرون يتشاركون النوم فى سرير بنظام اقتسام الوقت.

أحلى الفاكهة مذاقًا فى كل أراضى "ستون تاون"، تنمو بجوار المقابر، وأكثر ثمار الموز جودة تنمو بالقرب من مقبرة جد "دولى" المشاكس العنيد، الذى لم توفق السفارة الأمريكية فى دار السلام فى الحكم عليه، ومنحته تصريحًا بدخول أمريكا.. كان سعيد يخبر من معه بذلك، عندما ألقى نظرة خاطفة إلى خارج النافذة، ثم فى لمح البصر كان قد اختبأ أسفل الطاولة، وهمس: "يا إلهى، إنهم من أفراد قبيلتى يا رجل.. يا إلهى، أرجوك أخبرهم أننى لا أعمل هنا.. كيف حصلوا على هذا العنوان؟.. أمى بالطبع.. لقد أخبرتها ألا تعطى عنوانى لأحد.. أرجوك يا عمر، اذهب واطلب منهم الرحيل.

وقفت مجموعة من الرجال يبدو عليهم الإرهاق الشديد خارج المخبز، يهرشون رءوسهم ولا يحولون أنظارهم عن "كوين أوف تارتس".. قال سعيد لعمر:

- لقد توقفت عن مساعدتهم، والآن هم يعلمون أننى لن أساعد أحدًا يأتى إلىّ

- لا وقت لمثل هذا الكلام

خرج عمر وسألهم:

- من؟.. سعيد؟.. لا أحد هنا بهذا الاسم.. هنا أنا وكفافيا وبيجو

- لكنه يعمل هنا.. أمه أخبرتنا

- لا.. لا.. من تريد رؤيته ليس هنا، فغادروا ولا تثيروا المشاكل

قال سعيد:

- حسن جدًا.. أشكرك.. لقد رحلوا؟

- لا

- ما الذى يفعلونه؟

قال بيجو متأثرًا بالوضع السيئ الذى يعانون منه:

- مازالوا واقفين فى حالة ترقب

خرج إليهم بيجو، وكانوا يهزون رءوسهم غير راغبين فى تصديق ما سمعوه، وعندما عاد، قال:

- يقولون إنهم سيتوجهون إلى عنوان منزله

شعر بيجو بشىء من الزهو لحصوله على هذه الأخبار المهمة، وأيقن أنه أضاع على نفسه لعب مثل هذا الدور الشائع فى الهند، دور الانخراط فى حياة أناس آخرين، الأمر الذى يكسبه بعض الأهمية.

- سيعودون، أنا أعرفهم، ولن يكفوا عن محاولاتهم تلك.. ربما يمكث أحدهم هنا ويذهب الباقون.. أغلق الباب، أغلق النافذة.

- لا يمكن إغلاق باب المخبز، ولن نستطيع إغلاق النافذة بسبب حرارة الجو

- أغلقها

- لا.. وإذا زارنا مستر بوتشر؟

يأتى مستر بوتشر صاحب المخبز دائمًا على حين غرة، وفى أوقات غير متوقعة ليفاجئ العاملين بالمطعم وليتأكد أنهم لا يتجاوزون ما هو مطلوب منهم عمله.

بعد إغلاق النافذة والباب، توجه سعيد إلى جهاز التليفون وطلب رقم تليفون شقته:

ـ أحمد.. لا تجيب على التليفون يا رجل.. دولى وآخرون قدموا من المطار.. أغلقوا باب الشقة وابتعدوا عن النافذة

ـ لماذا يمنحونهم تصريحًا بدخول أمريكا؟.. كيف أمكنهم شراء تذكرة الطائرة؟

دق جرس التليفون فى المخبز، وبينما بيجو فى طريقه إليه، قال سعيد:

ـ لا تجيب

ـ سعيد، عليك أن تحادثهم

فكر بيجو فى أنه من الممكن أن يكون صاحب المخبز، وربما تكون مكالمة من الهند، من والده.. أمسك كفافيا بسماعة التليفون، وسمع كل من بالمخبز الصوت المنزعج: "نحن قادمون من المطار".. وضع كفافيا السماعة مكانها، وفصل الحرارة عن التليفون، وقال سعيد:

ـ شباب يائس.. إذا استقبلتهم عندك فلن يغادروا أبدًا.. وإذا استمعت إلى قصتهم لا يمكن أن تقول لا، لأنك تعرف عماتهم وخالاتهم وأولاد أعمامهم، ويتعين عليك إذًا أن تساعدهم.. وإذا ما بدأت فى مساعدتهم فسوف يحصلون منك على كل شىء.. لا يمكنك أن تقول مثل الأمريكيين: "هذا طعامى وسآكله بمفردى".. ففى زنجبار ما يملكه شخص واحد لابد أن يقتسمه

مع الآخرين.. هذا جيد، ولكن بسبب ذلك، الجميع لا يملك شيئًا، ولهذا السبب أيضًا، غادرت زنجبار.

شعر بيجو بالإشفاق على سعيد، وعلى نفسه، وشعر أيضًا بالعار مثل سعيد، الذى لن يساعد من ينتظرونه يوميًا بالساعات على أمل الحصول على م ساعدته.. بيجو أيضًا وصل المطار ولم يكن فى جيبه سوى بضعة دولارات اشتراهم من السوق السوداء فى كاتامندو، وعنوان صديق لوالده "ماندو" الذى كان يقيم مع اثنين وعشرين سائق تاكسى فى حى كوينز، وأيضًا لم يجب "ماندو" على تليفونه، وحاول الاختفاء عندما اقترب بيجو من مقر سكنه، وبعد أن اعتقد أن بيجو قد غادر قام بفتح الباب وإذا به يفاجأ بوجود بيجو الذى ظل واقفًا على قدميه فى انتظاره لمدة ساعتين، فقال ماندو:

- من الصعب أن تجد عملاً هنا.. لو كنت شابًا لعدت إلى الهند، التى تزيد فيها الآن فرص العمل.. لكن فات الوقت بالنسبة لى لكى أفعل ذلك.. يتعين عليك إذًا أن تستمع لما أقوله.. ربما ينصحك كثيرون بأن تمكث هنا حيث الحياة أفضل، لكن أقول لك إن من الأفضل كثيرًا أن تعود.

بدون البطاقة الخضراء، لا يمكنه المغادرة، لذلك يتعين عليه أن يحصل على البطاقة الخضراء حتى يمكنه شراء تذكرة طائرة ويعود إلى وطنه.. كان يراقب الأجانب المقيمين إقامة شرعية ويمكنهم المغادرة فى

أى وقت لبدء حياة جديدة فى أرض جديدة.. وهناك بالطبع من عاش فى أمريكا ومات ولم ير عائلته قط.. كيف يمكن لأحد أن يفعل ذلك؟

صباح كل يوم أحد، كانوا يشاهدون فى مخبز كوين أوف تارتس، على القناة الفضائية الهندية برنامجًا يتحدث فيه أحد المحامين المتخصصين فى قضايا الهجرة والمهاجرين ليجيب على أسئلة ضيوف البرنامج، ومنهم سائق سيارة أجرة، جاء إلى نيويورك بسبب حبه لأفلام الكاوبوى، واستقدم إليها كل أفراد عائلته ومعظم رجال قريته، وعملوا جميعًا بطريقة غير قانونية فى قيادة سيارات أجرة بمدينة نيويورك.. لكن كيف يحصلون على البطاقة الخضراء؟.. قد ترغب امرأة لديها بطاقة خضراء فى الزواج من سائق سيارة بعد مشاهدتها له على شاشة التليفزيون.. إن أية امرأة حاصلة على البطاقة الخضراء يمكنها أن تؤدى الغرض، حتى لو كانت معوقة جسديًا أو عقليًا.

أتى سعيد، وليس أحد غيره بالطبع، بعربة صغيرة لنقل السلع، واصطحب عمر وكفافيا وبيجو إلى منطقة "واشنطن هايتس"، وهناك انتظروا على ناصية شارع فيه كل المحال التجارية مزودة بحاجز ذى قضبان حديدية، حتى المتجر الصغير الذى يبيع السجائر واللبان، وكذلك الصيدليات ومحال بيع المشروبات الروحية، جميعها مزودة أيضًا بجرس يضغط عليه أحد ما فيسمح له بالدخول إلى مكان ضيق ذى قضبان، يمكنه من خلالها رؤية الأرفف وما

عليها، فيشير إلى ما يريد، ثم بعد أن يضع النقود فى طبق دوار أسفل كوة من الزجاج المضاد للرصاص، يحضر له الطبق الشىء الذى طلب شراءه مع بقية النقود.. وفى المكان الذى يبيع الفطير الجاميكى، يقف بين البائعة والفطائر وبين المشترى حاجز أمنى لا يمكن لأحد اختراقه.

فى حركة الرائحين والغادين، حيوية ونشاط.. رجل دين خارج كنيسة "ديون"، وأمامه صف طويل من الناس، ينثر قطرات من سائل على كل منهم ليطهرهم من خطاياهم.. امرأة تنصح أخرى: "الحياة قصيرة يا حبيبتى، وأنت شابة والحياة السعيدة أمامك، فتخلصى منه وألقى به بعيدًا عنك".

يتصرف سعيد كأحد أبناء المنطقة، متلقيًا التحايا من الكثيرين فى الشارع الذى يقطن على بعد شارعين منه.

- سعيد!

تلقى سعيد لطمة على ظهره من شاب بدين يرتدى سلسلة ذهبية وتبدو عليه علامات الثراء.. سأله بيجو:

- ماذا يعمل هذا الشاب؟

أجاب سعيد ضاحكًا:

- يتكسب من الاحتيال

روى سعيد كيف كان يساعد أحد مواطنيه فى الانتقال من مكان إلى آخر، وبينما كانا يقومان بحمل صناديق تحتوى على ملابس وأوان وأحذية وساعة منبه وأشياء أخرى وضعتها امرأة باكية من زنجبار بالصناديق، ظهرت بندقية من نافذة سيارة، وصرخ صوت: "ضعها فى الخلف يا شباب".. امتثل الشباب للأمر، وفتحوا حقيبة السيارة، ووضعوا الصناديق داخلها، وسأل صاحب الصوت: "هذا كل شىء؟".. وانطلقت السيارة مسرعة.

انتظروا على ناصية الشارع، والعرق يتصبب منهم.. أخيرًا اقتربت عربة صغيرة لنقل البضائع، وأخذ شخص بداخلها النقود والأوراق المطلوبة من كل منهم.. وبعد مرور أسبوعين، وقفوا على ناصية الشارع ذاتها، وانتظروا طويلاً، لكن العربة لم تظهر.. كانت النتيجة أن المحاولة الفاشلة لشراء البطاقة الخضراء قد أودت بالقسم الأكبر من مدخرات "بيجو".

اقترح "عمر" بأن يعزوا أنفسهم بصحبة النساء، طالما أن أجرهن لم يرتفع واستقر عند خمسة وثلاثين دولارًا لكل منهم.. وافقه "كفافيا"، لكن الحمرة علت وجه "بيجو" عندما تذكر قوله لهم أيام العمل فى الهوت دوج: "نساء سود.. رائحتهم مزعجة"، وقال: "الجو حار جدًا بالنسبة لى".. وضحكوا

- سعيد؟

لم يكن سعيد مضطرًا لمصاحبة بغى فهو على علاقة بامرأة جديدة.. سأله بيجو:

ـ ماذا حدث لـ"ثيا"؟

ـ ذهبت فى نزهة طويلة سيرًا على الأقدام خارج المدينة.. على أية حال، أنا على علاقة بأخرى لا تعلم "ثيا" عنها شيئًا

قال عمر:

ـ النساء البيض يبدون جميلات وهن شابات، لكن عندما يصلن إلى سن الأربعين، يصبحن قبيحات، وتتغضن بشرتهن، وتنتشر البقع على جلودهن.. أنت تعرف ما أتحدث عنه.

أدرك سعيد أن الغيرة تختفى وراء كلمات عمر، فأجاب ضاحكًا:

ـ أنا أعرف.. أنا أعرف

أحد زبائن المخبز، وجد فأرًا داخل رغيف خبز، فسرعان ما جاء فريق من مفتشى الصحة، وكما يفعل جنود البحرية "المارينز"، وأفراد المباحث الفيدرالية "إف. بى. آى"، ووكالة المخابرات المركزية "سى. آى إيه"، صرخوا: "أيديكم إلى أعلى". وجد الفريق الصحى أنبوبة صرف طافحة، وأخرى قد أوشكت على الانسداد، وروث جرز على أرضية المخبز.. هذا المشهد كان قد تكرر حدوثه أثناء وجود كريم، ونديم، قبل بيجو، وسعيد، وعمر، وكفافيا.

- تعال وزرنى فى يوم ما، بيجو

سريعًا، وجد "سعيد" عملاً فى "بانانا ريببليك".. خطر على بال "بيجو" أنه من المحتمل ألا يراه مرة أخرى، لأن المهمشين الذين يعيشون فى الظل من أمثالهما، كتب عليهم التنقل من مكان إلى مكان آخر، ولا يطول بهم المقام فى مكان واحد، فإما إلى أعمال أخرى، أو مدن أخرى، أو يتم ترحيلهم ويعودون إلى أوطانهم، أو يغيرون أسماءهم.. بعد أن عانى "بيجو" من ألم فراق "سعيد" وغيره، أدرك فى النهاية أن عليه ألا يسمح لنفسه بترف الدخول فى صداقة حميمة قد لا يحتمل تبعاتها.

فكر بيجو وهو مستلق فى حجرة بالطابق السفلى" فى قريته التى عاش فيها برفقة جدته والنقود التى كان يرسلها والده إليهما فى كل شهر، وفى العشب الذى كان ينمو ويرتفع عن الأرض بطول إنسان، ويصدر صوتًا شجيًا مع كل هبة ريح تذهب به فى أى اتجاه.. وسرح خياله فى الأخدود أحد روافد نهر "جامون"، الذى يعبره الرجال وهم يمتطون ظهور الجاموس المسافر بهم مع جريان النهر، وعند وصولهم إلى مناطق صخرية ضحلة، ينزل الرجال من فوق ظهور الجاموس، ثم يقومون بجرّه بعد أن يكون قد أنهى مهمته كقارب.

عبر "بيجو" تلك المياه الضحلة فى رحلاته إلى السوق والعودة بصحبة أمه التى كانت ترفع طرف

الساري، وتحمل فوق رأسها في بعض الأحيان كيس أرز، بينما النسور تحوم فوق المياه الضحلة، وفي لحظة خاطفة تنهي حركة أفقية مباغتة باقتناص سمكة فضية تجاهد من أجل الخلاص.. في تلك المنطقة الضحلة كان يعيش ناسك يتخذ وضعية مشابهة لطائر اللقلق طويل الساقين والعنق والمنقار، في انتظار ومضة تدل على وجود سمكة تطفو على السطح ليقتنصها.. في "ديوالي" كان الناسك يشعل مصابيح إضاءة ويضعها في أفرع شجرة الشعب المجاورة للنهر.. وكم كان جميلاً مشهد تلك المصابيح التي تؤخر من قدوم أول الليل.

في كل مرة كان "بيجو" يزور والده في كاليمبونج، يجلسان معًا خارج المنزل في وقت المساء، ويعود والده في الحديث عن ذكرياته: ما كل ذلك السلام الذي تعيشه قريتنا؟.. ما أجمل مذاق الطعام هناك والخضراوات الطازجة التي تزرع باليد وليس بالماكينة، والزبد الطازج، واللبن الدافئ لم يمض وقت على حلبه من الجاموس.. كانت تطول جلساتهما إلى وقت متأخر من الليل، ولا يلاحظان "ساي" التي بلغت الثالثة عشرة من عمرها، وهي ترنو إلى خارج نافذة حجرة نومها، وعلى وجهها بعض الغيرة من حب الطباخ لابنه، وإلى الخفاش الصغير، الذي يشرب بفمه الأحمر من ماء النهر وينطلق يمينًا ويسارًا في اندفاعات قوية مفاجئة بجناحيه السوداوين.

## -١٨-

- خفاش.. خفاش

صرخت لولا فى فزع عند اقتراب الخفاش المندفع بقوة من أذنها، فقالت "نونى":

- الأمر لا يستحق منك كل هذا الضجيج

- كفى عن الكلام

وفى شىء من لين، وكأنها تعتذر عن الحدة التى تحدثت بها إلى شقيقتها، قالت "لولا": "الجو حار وخانق"

مرَّ شهران فقط على "جيان" منذ أتى أول مرة ليعطى دروسًا لـ "ساى" التى استشعرت شيئًا من التوتر والحيرة أثناء تواجده، والآن والرياح الموسمية التى تهب على الهند وجيرانها من الجنوب الغربى فى الطريق، أصبح كل شخص لديه ما يشكو منه، لكن عندما أوردت الصحف تقريرًا حول اقتراب سحب

تحمل مطرًا غزيرًا، هللت "لولا" وابتهجت قائلة: ألم أقل لكم؟

جلس القاضى و"ساى" معًا فى "تشو أويو" على أرض معشوشبة فى الخارج، و لمحت "مات" ظل ذيلها فقفزت فى محاولة الإمساك به، وبدأت تصدر أزيزًا وهى تدور يمينًا ويسارًا فى حيرة من أمر هذا الشىء العصى على الإمساك به، الذى يتحرك مع كل حركة لها، دون أن تدرك أن ذلك الشىء هو جزء منها، وفى يأس توقفت عن الحركة وانسلت سريعًا تجاه الحديقة.. قالت "ساى": "فتاة سخيفة".. ولكن بعد مغادرة "ساى" خشى القاضى من أن تكون "مات" قد تأذت مشاعرها من وصف "ساى" لها، فربت عليها وقال: "ماستى الصغيرة".

تناهى إلى أسماعهم أصوات صادرة من أشجار الموز وأعواد البامبو تحذر من العاصفة، التى استشعرت الكلبة "مات" قدومها، وسرعان ما هبت عاصفة شديدة أغلقت الأبواب والنوافذ فى صخب، وتغير لون السماء لاشتعال الحريق فى أشجار الصنوبر مطلقة دخانًا أسود كثيفًا على امتداد البصر، وهطل المطر المصحوب بعاصفة رعدية وبصوت صفير الريح فى الزجاجات الفارغة هنا وهناك.

- لا تخافى يا بطتى الصغيرة.. إنه المطر

حاولت "مات" الابتسام، لكن ذيلها ظل على وضعه المنخفض ملتصقًا بمؤخرتها، وعيناها كعينى جندى

فى حرب، غادرتها أساطير الشجاعة السخيفة، وراحت ترهف السمع لعلها تستشعر ما لم تأت به العاصفة بعد، وسط وابل من طلقات مدفعية الرعد.

يستمر الفصل الممطر لثلاثة أو أربعة أشهر وربما لخمسة أشهر، خلالها تجبر قطرات المياه المتسربة والمتساقطة فى "تشو أويو" "ساى" على استخدام مظلة عند دخولها الحمام، ويغطى بخار الماء الأسطح الزجاجية، وتظل الملابس المعلقة على الحبال بداخل المنزل مبللة لمدة أسبوع حتى تجف قليلاً، وتتفتت المادة القشرية التى تكسو الدعامات الأفقية، وينتشر الفطر فى الجدران والأسطح، وتطير حشرات هنا وهناك، ويتلون الخبز بلون الفطر والعشب.. ودائمًا تبدو "ساى" فى هذه الأشهر فى كاليمبونج هادئة ومرحة وفى حالة سلام مع نفسها لمعرفتها بأنه من غير الممكن أن تلتقى بأحد.

يختفى تمامًا عالم ما وراء منزل "تشو أويو" الذى لا تنفتح بوابته طوال الفصل الممطر، فلا يبدو "جيان" عند منعطف بالطريق الجبلى، ويستحيل على العم "بوتى" أن يأتى فى زيارة تقتضى منه خوض المياه الموحلة.. وفى "مون آمى"، كان على "لولا" المنهمكة فى تحريك مؤشر الراديو أن تتيقن من أن ابنتها "بيكسى" تقيم فى مكان آمن بعيدًا عن فيضانات النهار، وانتشار مرض الكوليرا، والتماسيح التى تهاجم الناس

فى بنجلاديش، وغير ذلك من الأنباء التى يأتى بها الراديو.. وتخرج "لولا" عن صمتها لتقول لنفسها: ربما يمنع هذا الطقس تواجد المجرمين فى الأسواق.

بسبب الطقس السيئ، تأجل إضراب كان من المقرر أن يستمر ثلاثة أيام، ضمن سلسلة إضرابات ترجع إلى تنامى السخط بين الناس، فلم يكن من المنطق السليم أن تغلق محال ومكاتب هى فى الأصل مغلقة بسبب الطقس، أو أن تخلو الشوارع من الناس فى وقت هى بالفعل خالية منهم، وحتى الطريق الرئيسى الذى يربط "كاليمبونج" بسوق "تيستا" كان من الصعب السير فيه.

بين عاصفة وأخرى، كانت تظهر شمس بيضاء فيسارع الناس إلى السوق برغم الوحل وبخار الماء، ويأتى "جيان" إلى "تشوأويو" ربما بدافع القلق على ما سيحصل عليه نظير إلقاء الدروس، ويرى "ساى" وسط كومة من صحف أسبوعين جاءت بهم جافلة سيليجورى، وهى مرتدية كيمونو أهداه لها العم "بوتى" بعد عثوره عليه داخل صندوق والدته، كانت قد جلبته أثناء رحلة لها فى اليابان بهدف مشاهدة تفتح زهور الكرز.

فى الكيمونو المصنوع من حرير قرمزى، بدت "ساى" مشرقة يكتنفها الغموض، وهى تقرأ عن مسلحين اكتشفتهم الشرطة فى اسام وناجالاند وميزورام، وعن البنجاب المشتعلة بعد مصرع "أنديرا

غاندى" فى شهر أكتوبر عام ٢٠٠٨، وطائفة السيخ التى لا تزال ترغب فى إضافة خالستان لتصبح إقليمًا سادسًا لها.. وعن إعلان حكومة دلهى عن خطتها المالية الجديدة بعد الكثير من النقاش والسرية، والتى تمثلت فى تخفيض الضرائب عن اللبن المجفف وملابس السيدات، وفى رفع الضرائب على القمح والأرز والكيروسين.

- مساء الخير

تطلعت "ساى" إلى "جيان" الذى شعر بغصة فى حلقه، وانتقلا إلى طاولة الطعام وعليها كتب الرياضيات.. كان "جيان" حائرًا لعدم جدوى محاولاته أن يبدو رائعًا أثناء قيامه بشرح الدرس، أو أن يبدو عاديًا كأنه فى بيته تمامًا، ووجد نفسه مضطرًا فى نهاية الأمر إلى أن يتحدث بصوت أعلى من صوت وقع قطرات المطر على سطح المنزل، فاستشعر كونه سخيفًا ومثيرًا للضحك.. وبعد مرور ساعة لم ينقطع فيها المطر، قال "جيان" فى يأس:

- من الأفضل أن أذهب الآن

- لا.. قد يصيبك البرق بأذى

- حقيقة، يجب أن أذهب

حذره الطباخ:

- لا.. فى قريتى، أخرج رجل رأسه من باب منزله فى عاصفة رعدية مصحوبة ببرق ومطر، فصعقته على الفور

اشتدت قوة العاصفة، ثم ضعفت عند حلول الظلام الحالك، الذى يصعب على جيان أن يتبين طريقه إلى منزله عبر التلال والجبال.. نظر القاضى فى انفعال إلى "جيان"، واستشعر فى ملامحه غطرسة قد يكون سببها رفع الكلفة سواء عن قصد أو عن حمق، ثم قال:

- ما الذى جعلك تخرج فى مثل هذا الطقس؟.. ربما تكون ماهرًا فى الرياضيات، لكن يبدو أنك تفتقد مهارة الحكم الصائب على الأمور.

على مائدة طعام العشاء، عندما لم يجب "جيان"، الذى بدا مستغرقًا فى أفكاره، أمعن القاضى فى تفحصه متأملاً افتقاده للحميمية وتردده أثناء تناوله الطعام، وقال فى سرِّه إن "جيان" لم يسبق له أن تناول طعامًا كالذى يتناوله فى "تشوأويو" أو بالطريقة التى يتناوله بها.. عندئذ استشعر القاضى مرارة فى فمه، وبينما كان بخبرة، يخلى بسكين، اللحم من العظم، وجه له سؤالاً، وإحساس شرير يدفعه إلى مهاجمة "جيان":

- من الشعراء الذين تقرأ لهم هذه الأيام يا فتى؟

قالت ساى:

- إنه يدرس العلوم

- وماذا فى ذلك؟.. العلماء غير محظور عليهم قراءة الشعر.. أليس كذلك؟

لم يكن جيان قد قرأ لأى من الشعراء، لذا بعد أن أجهد عقله أجاب وهو على يقين من أنه أصبح فى أمان:

ـ طاغور

أشهر القاضى شوكته فى قطعة لحم صغيرة، وأضاف إليها قطعة بطاطس، وهرس عليها بضع بسلات، ثم وضع المزيج كله داخل فمه بالشوكة التى يمسك بها فى يده اليسرى.. وبعد أن مضغ جيدًا ثم ازدرد ما فى فمه، هز رأسه وأومأ بإشارة آمرة من سكينته:

ـ حسنًا.. هل تسمعنا شيئًا من شعره؟

ـ "والرأس إلى أعلى، والمعرفة متاحة للجميع، والعالم غير منقسم إلى أجزاء صغيرة وحدود.. فى سماء الحرية تلك، اجعلنى يا أبى واجعل بلادى فى حالة يقظة".

لأن كل تلميذ فى الهند يحفظ هذه الكلمات، فقد انتابت القاضى نوبة ضحك فى غير ابتهاج حقيقى.. ربما لكراهيته وكلبته "مات" لذلك الطقس الردىء الذى يجعلهما تعساء تمامًا، فأينما يولى وجهه يجد التراب يغطى كل شىء. حتى فرشاة أسنانه، وفى غير خوف تتسلل الثعابين إلى فناء المنزل، بينما تدمرالعاصفة كل شىء.. شعر بتقدمه فى العمر وبانهيار كل شىء حوله، والأبواب التى أحكم إغلاقها داخل عقله، رآها تسقط بعد مرور خمسين عامًا منذ أن كان طالبًا يدرس الشعر.

***

لم تستمر المكتبة وقتًا طويلاً فى استقبال زوارها، لكنها استقبلته عند افتتاحها وقت وصوله، ولم تغلق أبوابها إلا عندما كان يستعد للرحيل.. كانت المكتبة بمثابة الملجأ للطلاب الأجانب مثله الذين يفضلون العزلة.. قرأ فى كتاب "مهمة إلى جوجارات": "ساحل مالابار يتخذ شكل الموجة فى اتجاه الخاصرة الغربية للهند، ثم فى حركة رشيقة يتجه إلى بحر العرب.. وجوجارات القريبة من أراضى دلتا النهر تقع بمحاذاة الساحل الذى أقيمت عليه مدن تعد نفسها للتجارة..."

ما هذا؟.. لا شىء فيما قرأه يتصل من قريب أو بعيد بما يتذكره عن وطنه وعن عائلته "باتل" وحياتها فى تلك المنطقة المكتظة بالسكان، وعندما أحضر الخريطة ونظر إليها وجد مدينته "بيفيت" فى حجم بعوضة إلى جانب نهر عابس.. تابع قراءته باندهاش عن وصول بحارة مغامرين بريطانيين وفرنسيين وهولنديين وبرتغاليين، وعن شركة الهند الشرقية التى استأجرت "بومباى" بعشرة جنيهات إسترلينية فى العام من الملك "تشارلز الثانى" الذى كان يمتلكها.

مع الوقت بذل "جيموباى" جهدًا أكبر فى الدرس والتحصيل، وعمل لوقت متأخر من الليل فى حجرته المستأجرة، وكان يتحول مباشرة من المقعد إلى السرير، الذى يتركه بعد كابوس مرعب إلى المقعد مرة أخرى، ليصبح مجموع ساعات مذاكرته لدروسه ١٨ ساعة فى اليوم، وأكثر من مائة ساعة فى الأسبوع،

وفى بعض الأحيان يمضى وقتًا فى إطعام كلب مالكة الحجرة، الذى عقد معه أول صداقة مع كلب، لأن الكلاب فى بيفيت كانت لا تشجع على ذلك.. وقبل موعد الامتحان لم ينم على الإطلاق طيلة ثلاث ليال، خلالها كان يقرأ الدرس بصوت مرتفع وهو يسير جيئة وذهابًا مكررًا ما قرأه مرة بعد مرة.

أحضرت مالكة الحجرة إليه طبق العشاء المكون من أربعة أصابع من نقانق دسمة أنيقة، وقالت:

- لا ترهق نفسك بالعمل أكثر من اللازم

- مسز رايس.. يتوجب على ذلك

جلس فى مقدمة صف من ١٢ ممتحنًا فى امتحان المسابقة المفتوح فى شهر يونيو ١٩٤٢ وأول سؤال وجهه إليه البروفيسور بجامعة لندن كان حول الكيفية التى يعمل بها القطار المستخدم للبخار.. وعندما طال صمت "جيموباى"، نظر إليه البروفيسور وخيبة الأمل بادية على وجهه، وتساءل:

- ألست مهتمًا بالقطارات؟

- إنه مجال رائع يا سيدى، لكنى كنت مشغولاً جدًا باستذكار الموضوعات التى من المتوقع أن تأتى الأسئلة فيها.

- لا فكرة لديك عن تشغيل القطار؟

اعتصر "جيمو" عقله على قدر ما يستطيع، لكنه لم يكن قد شاهد ما بداخل عربة قاطرة القطار

ـ لا يا سيدى

كان فى مقدوره وصف عادات الدفن عند الصينيين القدماء، فهو من نفس المنطقة التى أنجبت "غاندى".. كان يمكنه أيضًا أن يتحدث عن حركة العصيان المدنى، وعن رأيه فى حزب المؤتمر.

خيم الصمت على الحجرة.. كان "جيموباى" قد استمع يوم وصوله إنجلترا إلى هتافات، لو أنه هتف بمثلها فى شوارع الهند، لكان قد ألقى القبض عليه وزج به فى السجن.. رجع بذاكرته إلى عام ١٩٣٠ عندما كان صغيرًا وتذكر دعوة "غاندى" للعصيان المدنى، وقول والده عندما امتلأت السجون بمؤيدى غاندى: "إلى أى مصير سينتهى إليه؟.. ربما قلبه على صواب، لكنه يتصرف بغير عقل".

ـ أخيرًا، من كاتبك المفضل؟

ـ سير والتر سكوت

ـ ماذا قرأت له؟

ـ كل ما صدر له من كتب

ـ أتتذكر بعض قصائد له؟

غالبية المتقدمين للاختبار كانوا يدربون أنفسهم على التحدث بلغة إنجليزية سليمة، لكن "جيموباى" كان لا يتحدث كثيرًا بالإنجليزية، لذلك احتفظت إنجليزيته بإيقاع "جوجارات" القادم منها.. وأثناء

إلقائه أبيات الشعر، تطلع إلى من حوله فهاله تعبير السخرية والشفقة على وجوههم جميعًا.

***

- أحمق

قالها القاضى بصوت مرتفع، بعد أن هز رأسه يمنة ويسرة، ثم دفع كرسيه إلى الخلف ونهض واقفًا، وألقى بالشوكة والسكينة على المائدة، مغادرًا... كل شىء حاول القاضى جاهدًا تناسيه من أحداث حياته الماضية، تأتى أشياء صغيرة مثل قلق "جيان" وارتباكه لحظة إلقائه القصيدة لتستدعيها من جديد فى الحياة العادية أو فى حلم يقظة، أو فى كابوس أثناء النوم.. بعد مغادرته مائدة الطعام، تبعته الكلبة "مات" إلى حجرته، وأثناء جلوسه فى سكينة هناك، اقتربت منه وأسندت جسدها إليه وهى مسترخية، تمامًا مثل طفل عند اتكائه المريح على جسد أمه أو أبيه.

- أنا آسفة

قالت "ساى" وقد لونت حمرة الخجل وجهها

- من المستحيل أن أعرف الطريقة التى سيتصرف بها جدى.. أنا آسفة

بدا جيان وكأنه لم يستمع إليها، فلقد حطت عيناه بارتياح واشتهاء على جسدها.

رفع الطباخ الأطباق من فوق المائدة، ووضع طبقًا به حبات البسلة المتبقية فى خزانة الأكواب والأطباق

الضيقة المزدحمة والمغطاة بشبكة من السلك والمرتفعة عن الأرض بأربع دعائم خشبية وضعت فى أربع علب بها ماء لمنع صعود النمل والحشرات الأخرى للخزانة.. ثم قام بترتيب السرير فى حجرة إضافية، وثبت شمعتين فى طبقى فنجانين لوضعهما فى حجرتى "ساى" و"جيان".

- سريرك جاهز

قال الطباخ وهو يتنشق بأنفه رائحة غريبة فى جو الغرفة، لكن "ساى" و"جيان" كانا منشغلين عنه باكتشافهما ذلك الإحساس بالنضوج، وكان الطباخ أيضًا منشغلاً بخطابين وصلا إليه ذلك الصباح من بيجو، موجودين أسفل علبة سمك تونة فارغة بالقرب من سريره، ادخرهما للفترة المسائية حتى يخلو إلى نفسه.. وغادر الطباخ حاملاً معه مظلة، فقد بدا المطر يهطل ثانية.

فى حجرة الاستقبال، جلسا للمرة الأولى منفردين، يقلبان فى الصحف، ويقرءان العناوين بشىء من الأهمية، لكن تفكير كل منهما كان بعيدًا تمامًا عن الموضوعات التى يتحدثان فيها.. بعد فترة، لم يعد "جيان" قادرًا على تحمل حالة التوتر التى تلفهما معًا، وفجأة وضع الصحيفة جانبًا واستدار ليواجهها، وقال دون تفكير:

- هل تضعين زيت شعر؟

- لا.. لا أستعمله أبدًا

قالت والخشية بادية على وجهها من أن يكون هناك شيء ما خطأ بشعرها، وبعد برهة من الصمت، سألت:

ـ لماذا؟

ـ لا يمكنني سماعك من صوت هطول المطر

اقترب منها أكثر

ـ ماذا؟

ـ لماذا؟

ـ يبدو شعرك لامعًا وجميلاً فاعتقدت أنك تستعملين زيت الشعر

ـ لا

ـ يبدو ناعمًا جدًا.. هل تغسلينه بالشامبو؟

ـ نعم

ـ أى نوع؟

ـ سانسيلك

ـ وأى نوع من الصابون؟

ـ لوكس

ـ صابون الجمال الذى تستعمله نجمات السينما

لكن خوفًا ما غامضًا غمرها فمنعها من الابتسام.. وساد الصمت بينهما.

ـ وأنت؟

ـ أستعمل أى شىء فى المنزل، فالشباب لا يهمهم ذلك كثيرًا.

لم يستطع القول إن والدته تشترى صابونًا بنيًا يصنع فى المنازل ويباع بثمن زهيد على شكل أحجام كبيرة مستطيلة فى السوق، ويقطع على هيئة شرائح صغيرة.. وغيّر "جيان" مسار الحديث

ـ دعينى أرى يديك.. إنهما صغيرتان جدًا

ـ هل هما كذلك؟

ـ نعم.. أصابع طويلة، وأظافر قصيرة

أمسك بيديها ، وقال:

ـ وفى خفة عصفور

صمتت وشعور بالابتهاج يتسلل إليها.

***

جاء الفصل الممطر بخنافس بألوان كثيرة، وبفئران بأحجام مختلفة، تسللت من ثغرات بأرضية الطابق لها ذات الأحجام، فالفأر الصغير يتسلل من ثغرة صغيرة، والفأر الكبير يظهر عبر الثغرة الكبيرة، فضلاً عن النمل الأبيض، الذى تجده أينما توجه نظرك، فى الأثاث وعلى الأرضية والسقف، وجميعها تبدو وكأنها تختال بنفسها.. لكن يبدو أن "جيان" لم ير أيًا من الخنافس والفئران والنمل الأبيض، فلقد كانت نظراته المحدقة فى "ساى" أشبه بفأر حاول الاختباء داخل أكمام الكيمونو الذى ترتديه.. كان ينظر إلى

البريق واللمعان فى عينيها الواسعتين الناعستين المعبرتين، وعندما لم يستطع قول شىء، راح يمسك براحة يده رأسها، ويمرر أصابعه على حاجبيها، وفى جرأة مباغتة، حرك أصبعه فى اتجاه أنفها.

بينما صوت هطول المطر يأتى من كل اتجاه، من النافذة، وصفيح السقف، وحجارة الفناء، كان الصمت يخيم عليهما مفسحًا المجال أمام أصبع "جيان" لكى يثبت من فوق أرنبة أنف "ساى" إلى قوس شفتيها.. وعندئذ نهضت "ساى" فزعة، مطلقة صيحة احتجاج خافتة، وقالت بصوت خلا من الحميمية: "حسنًا، تصبح على خير"، وتوجهت صوب الباب ومدخل المنزل، ثم ألقت بنفسها فى الظلمة، وعينا "جيان" تتابعانها.. فى تلك الأثناء كان الجبن والخوف قد غمرا قلبيهما اللذين يفتقدان إلى الخبرة والتجربة.

والمياه تتسرب من كل جانب، كان القاضى ملقى فى سريره، فوق بطاطين رطبة، وثوبه الداخلى معلقًا بالقرب من المصباح حتى يجف.. مشهد محزن لرجل متمدن، حيث لا وجود لنسمة هواء، فقط هناك رطوبة فى الجو تشعر المرء أن المطر ينهمر فى الداخل كما فى الخارج، فضلاً عن روائح دخان وروث فئران وعفن وخشب متخمر مختلطة برائحة الكيروسين.

نهض من السرير ليبحث عن جوربه وقبعته الصوفية، وبينما هو يقوم بارتدائهما، لفت نظره عقرب داكن اللون إلى جانب الحائط، وقد انتصب

ذيله إلى أعلى قبل اختفائه داخل شق بين الأرضية والحائط.. قال: "اللعنة"!، ثم خرج يبحث عن قرص مهدئ ليبتلعه بجرعة ماء بارد من مياه كاليمبونج، التى تأتى مباشرة من ثلوج الهيمالايا، ونظر إلى كلبته النائمة "مات"، وقال "تصبحين على خير يا عزيزتى"، وفى تلك الأثناء لم يكن قادراً على منع نفسه من التفكير فيما أثار غضبه على مائدة العشاء.

***

بعد أدائه الضعيف فى الامتحان، ألقى بنفسه فى السرير، والدموع تملأ مآقيه وتزحف على أنفه وعنقه، ووجد نفسه فاقد القدرة على التحكم فى أعصابه المنهارة، حتى أنه ظل ملتصقاً بسريره يبكى لثلاثة أيام وثلاث ليال

- جيمس.. هل أنت على ما يرام؟

- متعب قليلاً.. لا شىء يدعوك للقلق

- جيمس؟

- انتهيت من الامتحان

- حسنًا فعلت ، جيمس

قالت بصوت يكشف عن سعادة مبعثها أن العالم من حولها مستمر فى تقديم نماذج شجاعة وجريئة، فى حين أن "جيموباى" الذى لم يكن فى مقدمة الناجحين وجاء ترتيبه متأخرًا، أرسل برقية إلى الوطن يقول فيها: "النتيجة لا لبس فيها"، مما جعل والده

يسأل كل من يقابله عن معنى البرقية، ولم يطمئن إلى إفادتها إلا بعد أن تلقى تهنئات ممتزجة بشيء من حسد.

لم يمر وقت طويل بعد إعلان النتيجة حتى حمل "جيموباى" حقيبته المكتوب عليها اسمه: السيد جيه. بى. باتل، واستقل سيارة أجرة مغادرًا منزل ثورنتون روود، فبعد أن كان يعيش بنحو عشرة جنيهات إسترلينية فى الشهر، أصبح له الحق فى الحصول على ثلاثمائة جنيه إسترلينى من وزارة الخارجية الهندية فى كل عام طوال الفترة الدراسية المقرر لها عامان، وأصبح فى استطاعته استئجار حجرة أفضل بأجر مرتفع أكثر وتكون قريبة من الجامعة.

فى المنزل الجديد الذى انتقل إليه ويشمل إيجار الحجرة فيه على المبيت ووجبات الطعام، التقى "جيموباى" بمستأجر آخر "بوز"، الذى أصبح صديقه الوحيد فى إنجلترا، فقد جمع بينهما نفس الملابس المفتقدة للأناقة، وحقيبتاهما اللتان تشى كل منهما بتساويهما فى درجة الفقر، ومنذ النظرة الأولى اطمأن كلاهما على الاحترام المتبادل بينهما لخصوصية وأسرار أحدهما الآخر، لكن "بوز" كان أكثر تفاؤلاً بالحياة من "جيموباى".

توثقت عرا صداقتهما فى لندن التى شاهدا فيها مراسم تغيير حرس قصر باكنجهام بالاس، وحمام ميدان ترافلجار سكوير، الذى يلقى بفضلاته هنا

وهنـاك، وأشـرطة الـتـسـجيل التى كان يشتريها "بوز" للمسجل الذى كان يفيده فى تصحيح طريقة نطقه لألفاظ اللغة الإنجليزية، ومعًا، "جيموياى" و"بوز"، قاما بقراءة كتب مختصرة تتحدث عن الفن والتاريخ والفلسفة، أو مقال عن كيفية تأليف السوناتة الموسيقية، وآخر عن صناعة الزجاج فى الصين.

استشعر "جيموياى" مبكرًا الخجل والارتباك نتيجة نطقه للغة الإنجليزية بلهجة ولكنة غريبتين، برغم محاولاته الرامية إلى إظهار عدم اهتمامه بذلك، من بينها وضع قناع الهدوء على وجهه.. وفى كل مرة كان يجد نفسه على خطأ، حتى وإن أيقن أنه على صواب، يداخله شعور بالحسد لكل ما هو إنجليزى، وإحساس بالنفور من الهنود، الأمر الذى جعله يعمل جاهدًا لكى يبدو إنجليزيًا، وانتهى إلى أن أصبح مثار احتقار الإنجليزى والهندى على السواء.

اقتربت خطوات حفيدته من حجرته، ودخلت الحمام، وكنت أسمع صوت صفير ناجمًا عن وجود هواء وقليل من الماء داخل صنبور المياه، غسلت "ساى" قدميها، ثم وجهها وأسنانها.. فى الوقت نفسه كان الطباخ يمسك برسالة مبللة بدأ حبرها الأزرق يخفى معالم حروفها، وبعد اطلاعه على رسالة ثانية، تأكد لديه أن هناك ذلك المحيط الذى يفصل بينه وبين ابنه، وأن عليه أن يذهب إلى فراشه ويغطى رأسه بالوسادة التى غير ما بداخلها من قطن مؤخرًا.

وفى الحجرة التى أعدت ليقضى فيها ليلته، كان "جيان" يفكر فيما حدث وفيما إذا كان قد تجاوز حدود اللياقة عندما داهمت قلبه تلك الجرأة الحمقاء، التى ربما كان سببها تناوله لطعام لم يعدته واحتساؤه لجرعات من شراب الروم جعلته يستشعر شيئًا من الزهو.

كل قاطنى المنزل استلقوا فى أسرتهم، لكن النوم جافاهم جميعًا.. وفى الخارج كان صوت انهمار المطر وقصف الريح، وكانت الأشجار تطلق تنهداتها، والأضواء تخفت شيئًا فشيئًا فى سماء "تشوأويو".

## - ١٩ -

- بيجو.. هاى.. لقد تزوجت يا رجل

كان "سعيد سعيد" يرتدى منامة بيضاء ونظارة شمس وسلسلة ذهبية حول عنقه، وحذاءً رياضيًا، ويربط جدائل شعره على شكل ذيل حصان.

- أنت متزوج؟!

- بالضبط يا رجل

- تزوجت ممن؟

- نادلة غريبة الأطوار فى المطعم الذى أعمل فيه.. سألتها: "هل تتزوجيننى لكى أحصل على أوراق الإقامة؟"، وذهبنا معًا لتوثيق زواجنا تحت العلم المؤلف من ألوان الأحمر والأبيض والأزرق.. وحتى يتأكدوا من أن زواجنا ليس خدعة، سألونا: "ماذا يرتدى زوجك من ملابس داخلية"؟.. "أى نوع من معجون الأسنان يفضله زوجك"؟.. ولم يداخلهم الشك فيما

إذا كان زواجنا كان لمجرد حصول أحدنا على أوراق الإقامة فى أمريكا وإلا لكانوا قد وضعوا أحدنا فى حجرة والآخر فى حجرة أخرى، ويسألوننا الأسئلة ذاتها محاولين اكتشاف حقيقة الأمر.

متشككًا فى الأمر برمته، سأل "بيجو":

- هل أقاربها سمحوا لها بذلك؟

- إنهم يحبوننى، وأمها تحبنى

مع زيارة سعيد المتكررة لعائلة زوجته فى فيرمونت وجدهم من الهيبيز ذوى الشعر الطويل، وقد اعتادوا تناول شرائح الخبز الأسمر والبنى اللون المكسوة بالثوم والباباغنوج، ويظهرون أسفهم البالغ لمن يتناولون طعامًا مصنعًا غير صحى، لكن سعيد الذى يحب الخبز الأبيض وكل شىء أبيض، فقد اضطر إلى مشاركة كلبهم الطعام لازدرائهما معًا طعام العائلة الصحى.

فى رأى سعيد أن الولايات المتحدة الأمريكية بلد رائع، وشعبها من أكثر شعوب العالم حيوية وبهجة، وفى المقابل كانت عائلة زوجته تبدى ابتهاجًا بحكاياته عن عائلته فى زنجبار، وعن أوراقه الرسمية المزورة وحمله جوازين سفر، الأول باسم "سعيد سعيد"، والثانى باسم "ذو الفقار"، كما كان كل أفراد العائلة يهرعون لمساعدته فى أى شىء يتعلق بالأوراق الرسمية الحكومية، مثل الجدة التى بعثت بخطاب إلى جهات رسمية أمريكية تؤكد لها أن "ذو الفقار" من زنجبار

يلقى كل الترحيب والاحترام، باعتباره عضوًا جديدًا فى عائلة "وليامز" الأمريكية.

براحة يده ضرب "سعيد" ظهر "بيجو" وأخبره أنه ذاهب لكى يتدرب على تبادل القبلات مع زوجته استعدادًا للمقابلة المحددة من قبل السلطات للتأكد من أن زواجهما حقيقى وليس خدعة:

- على المرء أن يبدو طبيعيًا وإلا سيساورهم الشك.

وتابع سعيد طريقه محييًا ومبتسمًا لفتيات أمريكيات: "هاى.. هاى"، لكنهن لم يأبهن بالنظر إليه.

توجه الطباخ إلى مكتب البريد، وقال:

- الرسائل تسلمونها لنا مبللة، ولا تولونها أية عناية.

- انظر إلى الخارج، كيف يمكننا أن نحتفظ بالرسائل جافة؟ أثناء نقلها من العربة إلى المكتب يلحق بها البلل.

- هل هناك رسائل قادمة؟

- لا رسائل اليوم، فالطرق مغلقة.. ربما يتحسن الجو بعد الظهر.. عد فى وقت لاحق

"لولا" أيضًا كانت تحاول بعصبية إجراء مكالمة هاتفية مع ابنتها "بيكسى" لتهنئتها بعيد ميلادها

- ماذا تعنى بأن الخطوط الهاتفية لا تعمل؟.. يمر أسبوع ولا تزال الخطوط معطلة؟

فى هدوء، قال شاب ينتظر دوره:

ـ منذ شهر والخطوط الهاتفية لا تعمل.. هناك عطل فى شبكة الميكروويف.

غادر الطباخ مكتب البريد متوجهًا إلى الجزار، وغادرت لولا كذلك مكتب الهاتف لشراء مبيد للآلاف من الحشرات التى تنتشر فى مثل ذلك الفصل.. بعوض ونمل ودود وعناكب وخنافس.. ماذا يفعل المبيد وكل يوم تولد ألف حشرة جديدة؟

- ٢٠ -

والمطر يهطل، كان "جيان" و"ساى" يتفحصان الآذان، والأكتاف، والضلوع، وعظام الترقوة، وأهداب الجفون، والذقنين، والكعوب، وعظام الركبة، وقوس القدم، ومرونة أصابع اليد، وعظام الخد والعنق، وعضلات أعلى الذراع، ومفصل العظام، والأوردة الخضراء والأرجوانية.. وقامت "ساى" بأغرب عرض للسان، كانت قد تعلمته من "أرلين" صديقة الدير، وهو لمس أنفها بلسانها.. و"جيان" كذلك أمكنه تحريك حاجبيه فى حركة راقصة، ودس رأسه داخل عنقه من جهة اليسار إلى اليمين ثم إلى اليسار مرة أخرى مثل راقصة هندية.. ومن وقت لآخر كانت "ساى" تتذكر بغض ما توصلت إليه أثناء وقفات الاستكشاف أمام مرآتها وتخبر بها "جيان"، الذى أثار إعجابها بطريقته فى النظر إليها كامرأة.

معًا، لعبا لعبة التودد والغزل، فى إقبال وإدبار، وفى كرّ وفرّ، وكم كان جميلاً أن تلامس أيديهما

وجسديهما كان بغرض المعرفة والكشف ولا شيء غير ذلك.. وكم كان جميلاً أيضًا أن تلتهم لعبة التودد والغزل تلك كل الوقت.. وكم كان مؤرقًا لهما ما سكتا عنه مراعاة للاحتشام.

- قبلينى!

قالها "جيان" فى توسل

- لا.

قالت وشعور بالابتهاج والخوف يغمرها.. مرت لحظات ثقيلة فى نهايتها لم تستطع "ساى" التحمل.. أغلقت عينيها وشعرت بحرارة ملامسة شفتيه لشفتيها.

بعد أسبوع أو أسبوعين، لم يأبها بذلك الشعور الذى انتابهما بأنهما كشحاذين استعذبا توسل المزيد من ألعاب الغزل.. قبل "جيان" أنفها وأذنيها وخديها وأصابع يديها العشرة.. ومعًا تعرفا على جسديهما أكثر.

فى البداية، كان "جيان" البالغ من العمر عشرين عامًا، و"ساى" التى أكملت ستة عشر ربيعًا، لا يأبهان كثيرًا بالأحداث التى تجرى على الجانب الآخر من التل، أو بالملصقات فى السوق، التى تشير إلى سخط قديم، أو بالشعارات التى تكتب على جدران المقار الحكومية: "نحن بدون جنسية".. "كالعبيد نعيش ونموت".. "أعيدوا لنا أرضنا من البنغال".. وكانت

لافتة "احتساء الويسكى خطر" تبدو للمتجه إلى تيستا"، على طول الطريق المؤدى إلى منطقة معسكر الجيش.

## - ٢١ -

قالت "نونى" لشقيقتها "لولا" وهما جالستان فى غرفة الاستقبال ومعهما "ساى":

- ربما كان لديهم بعض الحق فى مطالبهم

قاطعتها "لولا" قائلة:

- غير معقول.. هؤلاء النيباليون وراء كل الأعمال العدوانية، ثم يسارعون بالاختباء فى نيبال.

عبر النافذة، بدا المنظر المعتم بعض الشىء فى الخارج أشبه بإحدى اللوحات المصورة القديمة، حيث عباءة السماء تظلل سلسلة جبال رمادية، وصفًا من البقر الأبيض أعلى التل.. وفى داخل "مون آمى"، حيث يشتعل المصباح الكهربائى، وإلى جانبه زهرات صناعية فى آنية، قفز القط "ماوماو" فى حجر "ساى"، التى خطر على ذهنها كيف أنها أصبحت أكثر فهمًا للقطط منذ بدأت علاقتها الرومانسية مع "جيان".

أضافت "لولا" :

ـ هذه الدولة المصنوعة هى أكبر خطأ ارتكبه الأحمق "نهرو" الذى كان فى مقدوره المطالبة بدولة جديدة والحصول عليها.. أليس كذلك "ساى"؟

ـ نعم

أجابت "ساى" وهى شاردة الذهن، فلقد سمعت القصة مرات عديدة: "أجرت "أنديرا غاندى" فى دهاء استفتاءً عامًا، صوت فيه النيباليون، الذين كانوا قد تدفقوا على "سيكيم"، ضد الملك، وابتلعت الهند المملكة التى كانت تلالها الزرقاء تُرى من مسافة بعيدة، ومنها يأتى البرتقال الرائع".

قالت نونى:

ـ لكن عليك معرفة وجهة نظرهم.. فى البداية ألقى بالنيباليين خارج "آسام" و"فيغالايا" ثُم تعرضوا لغضب ملك "بوتان".

ـ مهاجرون غير شرعيين

ـ من الواضح أن النيباليين يشعرون بالقلق، فغالبيتهم أقاموا هنا لعدة أجيال، فلماذا إذًا لا يمكنهم أن يتعلموا فى المدارس؟

ـ لأنه إذا حدث ذلك، سيطالبون بدولة لهم وتجرى حركة انفصالية هنا وحركة انفصالية هناك، ثم يظهر إرهابيون يجدون التشجيع من عصابات السيخ ومن كشمير والبنجاب وأسام.

فكرت "ساى" فى لمسات يد "جيان" وهى تتحسس جسدها

ـ هالو.. هالو

قالت مسز سن وهى تحرك أنفها المعقوف داخل الباب المفتوح:

ـ أرجو ألا أسبب إزعاجًا.. كنت فى طريقى واستمعت إلى صوتكما.. هذه فطائر ومعجنات!

من فرط سرورها، صدر عن مسز سن صوت رفيع أشبه بصوت طائر أو فأر.. وقالت لولا:

ـ هل علمت بالخطاب الذى بعثوا به إلى ملكة إنجلترا؟.. جورباتشوف وريجان؟.. الفصل العنصرى، والإبادة الجماعية، ورعاية باكستان، وتجاهلنا نحن الذين استعمرونا واستعبدونا، وتقطيع أوصال نيبال.. منذ متى "دارجيلنج" و"كاليمبونج" تنتميان إلى نيبال؟.. فى الحقيقة، كانت دارجيلنج تابعة لـ"سكيم"، و"كاليمبونج" تابعة لـ"بوتان".

أضافت نونى:

ـ هؤلاء البريطانيون الملاعين.. كم كانوا سيئين جدًا فى رسمهم للحدود.

سرحت "ساى" بتفكيرها إلى فترات بعد الظهر التى تجمعها مع "جيان"، فينصهران كقالبى زبدة، ويكون من الصعب أن يعود كل منهما إلى حالته الطبيعية.

قالت مسز سن وهى تمسك بطرف الحديث المفضل لها:

- باكستان هى المشكلة، هى النوبة القلبية الأولى التى هاجمت بلادنا ولا شفاء منها.

أوضحت لولا:

- إنها قضية الحدود المخترقة، حيث لا يمكنك معرفة هذا من ذاك، النيبالى الهندى من النيبالى النيبالى، كما لا يمكنك معرفة الطريقة التى يتكاثر بها النيباليون.

- مثل المسلمين

- ليس كذلك المسلمون الموجودون هنا

- يثيرون الاشمئزاز.. فهم لا يتحكمون فى أنفسهم

- كلهم يتكاثرون وفى كل مكان، ولا يمكن لوم مجموعة منهم دون الأخرى.

- مسلمو الهند أكثر من مسلمى باكستان رغبة فى زيادة النسل.. هل تعلمين أن "جناح" هذا كان يأكل شرائح لحم الخنزير مع البيض فى الإفطار كل صباح، ويشرب الويسكى كل مساء، وفى الوقت نفسه يصلى خمس مرات فى اليوم؟

ودائمًا، كان نقاشهن ينتهى إلى أن تعاليم القرآن صارمة وتتجاوز القدرات الإنسانية، ومن ثم تجبر المسلم على أن يقول شيئًا ويفعل شيئًا آخر.. يشرب

ويدخن ويأكل لحم الخنزير ويرتاد دور البغاء، ثم ينكر كل ذلك، على العكس من الهندوسى الذى لا ينكر ما يفعله.

بدا القلق يعترى "لولا"، لذا شربت الشاى ساخنًا جدًا، فقد كانت الشكوى من الزيادة فى مواليد المسلمين موضوعًا غير محبب لمن ينتمى إلى الطبقة التى تقرأ روايات "جين أوستن". كما كانت الشقيقتان تنظران دائمًا إلى مسز سن باعتبار أنها من طبقة أدنى.

- أخبرينا عنك، ساى

قالت نونى التى أرادت بشدة تغيير مسار الحديث

- لا جديد

كذبت "ساى"، وسرحت بمخيلتها فى علاقتها مع "جيان"، فى الوقت الذى كانت فيه السيدات الثلاث يرمقنها بنظرات قاسية، لفشلهن فى قراءة تعبيرات وجهها، وهى جالسة فى مقعدها وقد اعتراها خجل واضطراب.

قالت لولا:

- أليس لك صديق حميم؟.. لماذا لا؟.. عندما كنا فى سنك كانت لنا مغامرات.

## ـ ٢٢ ـ

"بريجيتيس"، مطعم فى حى المال فى نيويورك، تكسوه المرايا من كل جانب، يرى المترددون عليه أنفسهم أثناء تناولهم للطعام، فيسرون لذواتهم لكونهم مثار حسد من الآخرين.. فى الصباح وبينما "بيجو" وبقية طاقم عمال المطعم يروحون ويجيئون فى همة ونشاط، كان صاحبا المطهم "أوديسا" و"باز" يجلسان إلى طاولة فى أحد الأركان يحتسيان الشاى ويقرءان معًا بعناية أخبار العالم من صحيفة نيويورك تايمز: عبيد الماضى سكان الأرض الأصليين، شعب الإسكيمو وهيروشيما.. هنود الأمازون وشيلى.. الهنود الأمريكيون.. الهنود الهنود.. سكان البلاد الأصليون فى أستراليا.. أناس من جواتيمالا وكولومبيا والبرازيل والأرجنتين وبورما وأنجولا وبيرو والأكوادور وبوليفيا وأفغانستان وكمبوديا ورواندا والفلبين وإندونيسيا وليبيريا وغينيا الجديدة وجنوب أفريقيا والعراق وإيران وتركيا وأرمينيا وفلسطين وفرنسا وجوانا

وهولندا وسورينام وسيراليون ومدغشقر والسنغال وجزر المالديف وكينيا وبنما والمكسيك وهاييتى والدومنيكان وكوستاريكا والكونغو وموريتانيا وجزر مارشال وتاهيتى وغينيا بيساو والكاميرون ولاوس وزائير.. صرخات ضد العبودية والاستعمار.. وشركات المناجم والنفط.. ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية.. كيسنجر الذى لم يسمح بإلغاء ديون العالم الثالث.. وصرخات لومومبا والليندى.. وصرخات ضد ألبان نستله الملوثة.. وتعاملات زيروكس القذرة والبنك الدولى والأمم المتحدة وصندوق النقد الدولى وكل شىء يديره الجنس الأبيض... زيروكس ونستله كانتا شركتين مستقيمتين وكانت العمود الفقرى للاقتصاد.. كذلك كان كيسنجر محبًا لوطنه متحمسًا فى الدفاع عنه.. كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية دولة شابة مبنية على مبادئ عليا.. كم كان التغير كبيراً؟!

- "قانون الطبيعة"

قالت "أوديسا" التى كان "باز" يزهو بذكائها ويحسها الكوزموبوليتانى..

وقال "أشوتان" غاسل الطباق لـ"بيجو" فى المطبخ:

- هؤلاء البيض عليهم اللعنة، لكن هنا أفضل قليلاً من إنجلترا، فهم هنا يصيحون فى وجهك بصراحة: اذهب إلى المكان الذى جئت منه!

أمضى "أشوتان" ثمانى سنوات فى كانتبرى بإنجلترا، ولم يرغب خلال وجوده بأمريكا فى الحصول على البطاقة الخضراء بالطريقة التى اتبعها

"سعيد سعيد"، وإن كان يرغب فى الحصول عليها كوسيلة للانتقام.. وعندما طلب "أشوتان" من "أوديسا" أن تضمنه، قالت له غاضبة:

ـ لماذا إذًا تريد البطاقة الخضراء وأنت تكره كل شىء هنا؟

نعم، كانت لدى "أشوتان" الرغبة فى أن يحصل على البطاقة الخضراء، لأن كل فرد يرغب فى الحصول عليها.. سواء كان يحب ذلك أو لا يحب، ففى بعض الأحيان كلما كره شخص شيئًا ما كلما أصر على الحصول عليه.

يقدم المطعم قائمة طعام واحدة مكونة من شرائح اللحم المشوى وسلطات وبطاطس مقلية، وكان القائمون عليه يفخرون بالبساطة التى تتمتع بها الطبقة الغنية

ـ كيف تريدينها يا سيدتى؟

ـ مطهية قليلاً

ـ وأنت يا سيدى

ـ نفس الشىء

فى جلستها إلى طاولة بالقرب من أحد الأركان تحتسى شاى الصباح، لم تستطع "أوديسا" إخفاء أمر ازدرائها لمن يطلب شرائح اللحم المشوية جيدًا، وقالت لبيجو ضاحكة:

ـ ألا يدعو للسخرية ألا تجد أحدًا يتناول لحم البقر فى الهند؟

فى مطعم بريجيتيس، موظفو بنوك هنود يأكلون لحم البقر.. أثناء قيامه بإخلاء الطاولات من أطباق الطعام، نظر "بيجو" إلى مواطنيه موظفى البنوك نظرات ذات مغزى، وأدركوا مغزى نظرته، وتظاهروا أنهم لم يعرفوا أنه عرف، ونظروا إلى بعيد متشاغلين عن نظرته الساخرة.. أحد رجال الأعمال قال لرجل أعمال آخر على مائدة الطعام فى المطعم: "علينا أن نقتحم الأسواق الصاعدة كالصين والهند بقوتهما الشرائية الكبيرة وبأعدادهما الضخمة المستهلكة للسجائر والمنسوجات ودجاج كنتاكى وخطوط التليفون".. كان المال يتحدث، ولا أحد يجرؤ على وصف المتحدثين بالحمق، فأرقام حساباتهما فى البنوك ستدحض كل اتهام.

فكر "بيجو" فى "سعيد سعيد" الذى لا يزال يرفض تناول لحم الخنزير، "إنها قذرة يا رجل.. إننى مسلم أولاً، ثم زنجبارى، ثم سأكون أمريكيًا".. كان "سعيد" فى وقت سابق قد أطلع بيجو على نموذج لمسجد مزود بساعة من الكوارتز مبرمجة على إطلاق صوت بعد كل خمس ساعات ينادى للصلاة: الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله اكبر.

- لماذا تريد أن ترحل؟

سألت "أوديسا"، وقد اعترتها دهشة من رفضه فرصة العمل لديها بالمطعم، ومن عدم إدراكه كم هو محظوظ؛ لأنه حصل على هذه الفرصة، وقال "باز" موافقًا:

ـ فلن يحرز نجاحًا فى أمريكا طالما هو كذلك

غادر بيجو ممتلئًا برغبة عارمة فى ألا يفقد براءته ونقاءه وسأل صاحب مطعم آخر:

ـ هل تقدمون طعامًا بلحم البقر

ـ نقدم شطائر بشرائح لحم البقر

ـ آسف، لا يمكننى العمل هنا

أثناء مغادرته سمع بيجو صاحب المطعم متحدثًا إلى آخر:

ـ إنهم يعبدون البقرة

فكر "بيجو" أثناء سيره فى الشارع فيما حدث للهنود فى الخارج من تغير مروع لا يعلمه إلا الهنود أنفسهم، وعند أول منعطف، لفت نظر بيجو، الذى يستمع إلى صوت بلاده وهى تنادى عليه، الحروف الأولى من اللافتة GAN عندئذ تعلقت روحه ببقية الحروف DHI وعند بلوغه "غاندى كافيه"، وجده غارقًا فى العتمة، وعندما اختبر باب المطعم بيده، انفتح على فضاء مظلم قليلاً.. وسط طاولات مهملة، عليها ملابس لوثها الشحم، جلس "هاريش هارى" الذى يدير مع شقيقيه "غاريش هارى" و"دانسوخ دانى" أفرعًا ثلاثة لمطعم "غاندى كافيه" فى نيويورك ونيوجيرسى وكونيتيكيت.. لم يتطلع "هاريش" إلى "بيجو" لحظة دخوله، فقد كان ممسكًا بقلم يكتب به طلب تبرع للجالية الهندوسية

- لحم بقر؟.. أمجنون أنت؟.. كلنا هندوس ولا يوجد بيننا باكستانيون أو بنجلاديشيون، فهم لا يعرفون كيف يصنعون الطعام.. هل تذوقت طعامهم فى الشارع السادس؟

بعد أسبوع كان بيجو بالمطبخ، وكانت الألحان المفضلة لغاندى تصل إلى أذنيه من سماعات الصوت.

## ـ ٢٣ ـ

قويت أواصر العلاقة الرومانسية التى ربطت بين "جيان" و"ساى" على خلفية الاضطرابات السياسية المستمرة، لكن أثناء تناولهما الطعام معًا فى مطعم "جومبوس" كان "جيان" يستعمل يديه دون أن ينتبه إلى أن "ساى" تستعمل الملعقة، الأداة الوحيدة المتاحة من أدوات المائدة، لكن عند ملاحظته الفارق بينهما، شعر الاثنان بالحرج ولم يعلقا على الأمر.

قادهما الحب الجديد إلى الخروج للتنزه والتريض، فذهبا إلى "دورين دارا" التى تطل على السهول والوديان والأنهار، ومناظر طبيعية جميلة ترى من كل مكان. استفسر "جيان" عن عائلة "ساى"، لكنها لم تعرف بالضبط ما الذى يتعين عليها قوله، لأنها ظنت أنها لو أخبرته عن برنامج الفضاء ووالدها فربما يشعر بأنه أقل منزلة منها

ـ والداى تزوجا بدون موافقة الأهل الذين

قاطعوهما، ثم ماتا فى روسيا، حيث كان والدى عالم فضاء هناك.

أخبرها "جيان" بزهو أن والديه أيضًا عرفا بعضهما فى الخارج وشعر كل منهما أن لديهما أشياء مشتركة تجمعهما على غير ما كانا يتوقعان.

***

فى عام ١٨٠٠ غادر أسلاف "جيان" قريتهم فى نيبال وقدموا إلى دارجيلينج وكلهم أمل فى العمل بمزرعة شاى، وهناك فى قرية حدودية صغيرة امتلكوا جاموسة تدر اللبن الدسم، وعلى مقربة منهم استقر الجيش الإمبراطورى ونشر جنوده فى كل القرى الواقعة على التلال، وأصبح جد "جيان"، الموفور الصحة والقوة بسبب لبن الجاموسة، والذى هزم ابن بائع الحلوى بالقرية فى مباراة مصارعة الأذرع، أحد المجندين فى الجيش، الذى كان يغدق المال ومختلف الخدمات لمجنديه نظير السير جيئة وذهابًا فى طريق "جراند ترنك روود". ومنذ اللحظة التى أقسم فيها جد "جيان" يمين الولاء للتاج، بدأت العائلة مسيرة التزامها بخوض حروب الإنجليز لأكثر من مائة عام.

فى البداية كان كل شىء على ما يرام، والحياة جميلة كحلم، فلم يكن هناك من شىء يفعله جد "جيان" كجندى فى الجيش الإمبراطورى سوى السير جيئة وذهابًا والاصطفاف فى صفوف منتظمة لتحية العلم، واستمر كذلك لسنوات، خلالها تزوج وأنجب

ثلاثة أبناء، لكن بعد أن أرسله الجيش إلى "ميسوبوتاميا" وأثناء وجوده فى أرض المعركة هناك، استقرت طلقات رصاص من بنادق الجنود الأتراك فى قلبه ونزف دمه حتى مات. وكنوع من الشفقة بالعائلة، قام الجيش بتجنيد الابن الأكبر بالرغم من موت الجاموسة التى تدر اللبن الدسم، ومن ضعف بنيته، وفى ذلك الوقت كان الجنود الهنود يحاربون فى بورما وجبل طارق ومصر وإيطاليا.

وقبل مرور شهرين له فى خدمة الجيش لقى الجندى ضعيف البنية الذى لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره مصرعه فى بورما فى عام ١٩٤٣ أثناء دفاعه عن البريطانيين فى قتالهم ضد اليابانيين. وكان إلحاق شقيقه الأصغر أيضًا بالجيش، وكان الموت مصيره كذلك على أطراف فلورنسا بإيطاليا، لكن موته لم يكن فى معركة وإنما أثناء قيامه بصنع مربى المشمش لقائد الكتيبة بإحدى الفيلات، التى تشغلها القوات البريطانية، وكان قد أضاف عصير ست ليمونات إلى أربعة أكواب من السكر، وأثناء قيامه بمزجهما معًا بملعقة حدث انفجار كان له دوى فى الريف الإيطالى الهادئ؛ حيث يعمل الفلاحون فى حقول الزيتون والعنب.

سأل "جيان" عمه فى إحدى الجلسات التى جمعتهما معًا:

- كيف تبدو إنجلترا؟

- لا أعلم

- كيف لا تعلم؟

- لأننى لم أكن هناك

سنوات كثيرة مضت عليه بالجيش البريطانى، ولم يذهب إلى انجلترا.. كيف؟.. لم يصدقه أحد.. أين كان إذاً؟.. لم يجب العم، الذى كان يذهب مرة كل أربعة أسابيع إلى مكتب البريد لكى يحصل على سبعة جنيهات معاشه الشهرى، وفى معظم الأوقات، كان يجلس على المقعد القابل للطى، وفى صمت يحرك وجهًا لا يحمل أى تعبير.

عمل والد "جيان" بالتدريس فى مدرسة تتبع مزارع شاى على أطراف دارجيلينج، ماذا عنه؟.. لم تضغط "ساى" عليه كثيرًا، بعد أن أدركت عدم رغبته فى الاستمرار فى الحديث.

انخفضت درجة حرارة الجو ليلاً، وأرخى الظلام سدوله مبكرًا، وبينما "ساى" تتلمس خطاها عائدة فى الظلمة، توقفت أمام منزل العم "بوتى" طلبًا لمصباح ينير لها عتمة الطريق.

- أين صاحبك الوسيم؟

العم "بوتى" والأب "بووتى" اعتادا الضحك والتحدث معها بخبث:

- يا إلهى.. الشاب النيبالى يتمتع بعضلات قوية وأكتاف عريضة، مثله قادر على فعل الكثير.. تقطيع

الأشجار وبناء الحواجز وحمل الأثقال و.. أنت تعلمين ما أريد قوله.

عندما وصلت "ساى" أخيرًا إلى "تشوأويو"، كان الطباخ منتظرًا عند البوابة وممسكًا بشمعة مشتعلة، ووجهه المتغضن الغاضب يلوح من خلال سترة جلدية سميكة وملفحة تغطى رأسه وتلف عنقه.

- فى هذه الظلمة، مكثت طويلاً لكى أنتظر عودتك إلى المنزل

لم يكف عن الشكوى منها وهو يتهادى أمامها طوال الطريق من البوابة إلى المنزل وهو ينظر حواليه.

- لماذا لا تتركنى بمفردى؟

غمرها شعور لأول مرة بأنها لم تعد تحتمل فضول أهل المنزل والأصدقاء وتدخلهم فيما لا يعنيهم، وذلك بعد أن وجدت فى الحب الحرية والاكتفاء، وفى اللحظة ذاتها كان الطباخ قد شعر بأن إهانة لحقت به، فصاح:

- أنت تستحقين الضرب.. لكم اعتنيت بك منذ طفولتك حتى كبرت، وغمرتك بكل الحب.. فهل هكذا تتحدثين إلىّ؟.. فلن أعيش طويلاً وعندئذ إلى من ستلجئين؟.. نعم، نعم.. سرعان ما سأموت، وربما ستكونين سعيدة عندئذ.. أنا شديد القلق والانزعاج عليك وأنت لا تبدين أى اهتمام.

- أووو.

وكالمعتاد؛ حاولت "ساى" استرضاءه، لكنه أبدى عدم الرضا.. ثم بعد ذلك أبدى القليل من الرضا.

## ـ ٢٤ ـ

الإضاءة الخافتة فى "غاندى كافيه"، إضاءة مثلى لإخفاء البقع الملوثة فى مفارش الطاولات وملابس العمال.. قال هاريش هارى:

ـ تعرف على السوق أولاً، وادرسه جيداً، ثم قدم له ما يحتاجه من طعام.

ربما تكون تلبية احتياجات السوق هى نقطة التوافق الهندى الأمريكى، ولذلك ينجح الهنود كمهاجرين، لأنهم يمارسون شكلاً متطوراً من الرأسمالية لم تكن تعرفه أمريكا.. نعم الهند مهد الحضارة الإنسانية.

الزبائن من الطلبة الفقراء، والأساتذة الذين لم يتم تعيينهم بعد، يملئون غاندى كافيه فى وقت تناول الغداء، حيث العرض المكتوب على زجاج الواجهة.. "كُل حتى تشبع، مقابل ٥ دولارات و٩٩ سنتًا".. ومن أجل زيادة أعداد زبائن الكافيه فى صباح كل يوم أحد،

تـأتى زوجـة "هـاريش هـارى"، بـعـد أن تـغـسل شـعـرهـا، وتلفه على شكل ذيل حصان، وتعقده بشريط ودبوس ذهبى.

- كيف حالك بيجو.. ما الأخبار؟

"مـالـيـنى" هـى الـتى اقـتـرحت أن يـبـيت طـاقم العاملين بالطابق السفلى فى المطبخ.. قال "هـاريش هارى" لبيجو:

- السكن مجانًا

فى نظير السكن بالمطبخ، كان يقتطع ربع الأجر، ويحصل المطعم على نقود البقشيش، فضلاً عن ضمان إحكام الرقابة على طاقم العاملين والتأكد من اشتغالهم ١٧ ساعة فى اليوم... كل الطاقم: ساران، جيف، ريشى، مستر لالكاكا، والآن بيجو، جميعهم يعملون بدون تصريح عمل.. قالت "مالينى":

- نحن عائلة سعيدة هنا

غادر "بيجو" الطابق السفلى فى هارلم مبكرًا ذات صباح، ليلحق بآخرين بالطابق السفلى فى غاندى كافيه، يقومون بغسل وجوههم وأسنانهم فى حوض المطبخ، ويمشطون شعرهم أمام مرآة معلقة على حائط، ويعلقون بناطيلهم إلى جوار فوط تجفيف الأطباق، على حبل يمتد بعرض الحجرة، وفى الليل ينامون فى أى مكان.

الفئران التى صاحبت بيجو فى المطاعم السابقة، لم تتخل عنه، وتعرف عليها فى غاندى كافيه، أثناء

حركتها التى لا تنقطع فى صندوق النفايات، وهروبها إلى شقوق بين الأرضية والحائط، وأيضًا عندما قرضت شعر رأسه فى إحدى الليالى.

وجه "هاريش هارى" اللوم لابنته التى تبدو فى مظهرها أمريكية، بارتدائها الحذاء العسكرى والملابس الشبيهة بزى جنود البحرية الأمريكية "المارينز".. قالت زوجته:

- اصفعها على وجهها حتى ترتدع

- الصفع لن يجدى شيئًا

قالت ابنتهما:

- لم أطلب منكما أن تأتيا بى إلى الدنيا.. لقد أنجبتمانى لأسباب خاصة بكما.. أردتما خادمة.. أليس كذلك؟.. فى هذه البلاد لا أحد يضرب أحدًا على مؤخرته بدون سبب يا أبى.

أفرط "هاريش هارى" فى احتساء الشراب، وجلس إلى ماكينة تسجيل النقود، ولم يذهب إلى المنزل فى موعده كالمعتاد، بينما طاقم العاملين فى انتظار انصرافه حتى يمكنهم النوم على الطاولات واستخدام مفارشها كأغطية.. وبدأ يضحك..

- ويعتقدون أننا معجبون بهم!.. فى كل مرة، يدخل أحدهم المطعم، ابتسم وأهلل، وأسأله عن أحواله.. بينما كل ما أريده هو أن أكسر عنقه.. لا أستطيع ذلك، ولكن ربما ابنى يستطيع.. وهذا هو كل ما آمله وأتمناه.

وانخرط فى البكاء، وذراعه على كتف بيجو

ـ أرأيت.. بيجو.. هذا العالم الذى نعيش فيه!

ما جعله يهدأ هو قيامه بجمع النقود بدرج الماكينة، لأنه وجد سببًا معقولاً جدًا لوجوده هنا.. فيوم آخر يعنى إضافة دولار آخر.. قال بيجو:

ـ على المرء أن يكسب عيشه.. ماذا يمكنك أن تفعل؟

ـ أنت على حق يا بيجو.. ماذا يمكننى أن أفعل؟

تمنى "هاريش هارى" منزلاً كبيرًا، ثم تمنى منزلاً أكبر، ولا يهم إذا ما تركه لفترة غير مفروش، مثل صديقه اللدود مستر شاه، الذى امتلك سبع حجرات كلها فارغة إلا من جهاز تليفزيون وأريكة، والذى سارع بإرسال صور لحجراته من الخارج إلى كل أقاربه فى "جوجارات"، وصورة لزوجته وهى جالسة أعلى سيارة بيضاء فارهة، وعلى وجهها تعبير يشى بالتحقق وبالثقة فى النفس.

## - ٢٥ -

اصطحبوا الكلبة "مات" إلى ترزى أبوللو لأخذ مقاسها وتفصيل معطف شتوى لها من جزء من بطانية حتى يقيها من الشتاء القارص، برغم عدم سقوط رذاذ الثلج على كاليمبونج التى غمرها ضباب معتم على عكس أعالى الجبال المحيطة بالمدينة، فقد كساها لون أبيض تحول إلى ثلج فى الصباح... فى المساء انضمت ساى إلى الأب بووتى والعم بوتى فى مون آمى، واللذان كانا يغنيان معًا احتفالاً برأس السنة بعد أن أفرطا فى الشراب... وقفز القط "ماوماو" إلى مكانه المفضل على حجر "ساى" متجهًا بوجهه أولاً إلى النار ثم إليها، وشيئًا فشيئًا استشعر فى بدنه ليونة ورقة، وبدأت تسيل قطرات من نصفه الخلفى إلى أسفل المقعدة وفجأة قفز إلى الأرض مصدرًا مواءً وهو يحملق فى ساى، وكأنها المسئولة عن ذلك الشىء غير اللائق.

أحضرت الشقيقتان لهذه المناسبة هدايا، عبارة عن جوارب مشغولة بخيوط الإبرة يدويًا من قرية يسكنها لاجئون من التبت، وأقراط من المرجان الأحمر والكهرمان الأصفر الضارب إلى الحمرة، وزجاجات براندى من المشمس من صنع الأب بووتى، وبعض كراسات من ورق الأرز الشفاف للكتابة والرسم عليه.

بعد أن شريت لولا إلى حد الثمالة، وبدأت نار الموقد تذبل، صفت نفسها، وبدأت حديث الذاكرة والأعماق الدفينة: "فى تلك الأيام الخوالى، فى الخمسينيات، والستينيات، كنا نقطع رحلة طويلة صعبة حتى نذهب إلى سيكيم أو بوتان، فلم تكن هناك طرق بالمعنى المعروف، واعتدنا السفر على ظهور الجياد ومعنا الخرائط وزجاجات الويسكى.. فى ذلك الوقت كانت الغابات ضخمة كثيفة الأشجار تبعث على الرهبة، حتى أننا كنا نصدق أن حيوانات أسطورية تعيش بداخلها، وكنا نتسلق قمم الجبال التى بنيت على جوانبها الصخرية أديرة تعكس جدرانها البيضاء ضوء شروق الشمس.. فى ذلك المكان الذى شهد مهد البوذية، دخلنا ديرًا قالوا لنا عنه إنه شيد فى زمن طار فيه راهب بوذى من قمة جبل إلى أخرى، كما شيد دير آخر عندما أضاء قوس قزح أعلى تلال كانشينجونجا.

"كان الوصول إلى ثيمبو يستغرق منا أسبوعين من السير فى طرق وعرة داخل الغابة، كنا خلالها نقضى بعض الوقت فى تلك الحصون التى تشبه السفن

المبنية دون استخدام مسمار واحد.. وعند اقترابنا من هذه الحصون، كنا نرسل رجلاً يخبرهم بقرب وصولنا، وكان يعود محملاً بهدية تعلن عن ترحيبهم بنا.. كانت هذه الحصون مكتفية بذاتها، وبجيشها وفلاحيها وأرستقراطييها وسجنائها.

قال الأب بووتى: هل تذكرين الحمامات؟.. كان الخدم يأتون إلينا ونحن فى المغطس بالأحجار الساخنة، التى تحتفظ بسخونة الماء الذى يتصاعد منه البخار، فى الوقت نفسه كان نثار الثلج يحيط بجبال الهيمالايا والغابات كثيفة الشجر.. لكن فى وقت لاحق، زرت بوتان، فوجدت الحمامات قد استعاضت عن الأحجار الساخنة بأنابيب المياه الحديثة والقرميد الوردى والأدشاش الملونة.

قالت نونى: لماذا لا نرتب رحلة ونذهب جميعًا إلى هناك؟.. لماذا لا؟.

ساى وجيان، كانا قد ذهبا معًا إلى متحف دارجيلنج الذى يضم نصبًا تذكاريًا لأشهر متسلقى الجبال فى العالم "تينزينج"، أول من استطاع تسلق جبل إيفرست، وهناك نظرا مليًا إلى قبعته، والكسارة التى كان يستخدمها فى تكسير ثلوج جبال الهيمالايا، والحقيبة، التى كان يحملها على ظهره وبها الطعام المجفف والمصباح الكهربائى وأشياء أخرى.

قال جيان: تينزينج كان بطلاً حقيقيًا.

ارتسمت علامات الدهشة على وجه ساى وقالت:
هل يتعين على الإنسان أن يقهر الجبل أم أن يستحوذ الجبل على الإنسان الذى يهب نفسه له؟

## ـ ٢٦ ـ

بعد ليلة رأس السنة الميلادية، وأثناء قيام جيان بشراء أرز من السوق، سمع صوت صياح، وشاهد جمعًا من الناس متجهين صوب منيترى روود، يتقدمهم شباب يصيحون "جاى جورخا".. من بين زحام الوجود تعرف على أصدقاء كليته، الذين لم يعودوا فى دائرة اهتمامه منذ بدأ علاقته الرومانسية مع "ساى"، وهم: بادام، جانجى، داوا، وديليب، لكنه نادى عليهم بألقابهم بومة، حمار، ..

كانوا يصيحون بأعلى الصوت: "النصر لجيش تحرير جورخا".. وبينما لم يكن "جيان" قد استوعب جيدًا ما يقولون، وجد نفسه وبدون أى مجهود منه وسط الزحام المتجه إلى شارع ماروارى الذى يصطف على جانبيه تجار اعتلى التأثر وجوههم الصامتة.. وفجأة داهمه شعور بأن صفحة من كتاب التاريخ بصدد أن تكتب من أولئك السائرين فى التظاهرة،

الذين يتصرفون وكأنهم فى فيلم وثائقى عن الحرب.. أطل على المشهد بعين الحنين إلى الماضى وإلى الثورة، لكن نظرة منه إلى الخوف فى وجوه الفقراء من البائعين، جعله يردد هتاف الحشد بأعلى الصوت، وقد استحوذ عليه شعور بأن شيئًا ما يجذبه إلى حيث الحدث الذى سيجد مكانه عند كتابة التاريخ.

ناظرًا إلى التلال، فكر "جيان" متسائلاً: كيف يمكن للإنسان الفرد العادى أن يتغير؟.. كيف يمكن للفرد إدراك أهمية التحرك داخل المجموعة؟.. هل يأتيه الحدس الثورى من قصص الاحتجاجات القديمة، أم من توقه إلى أن يضيف إلى هذه القصص قصة جديدة؟.. هل يرون ما وراء اللحظة الآتية من أشياء تخفى على آخرين غيرهم؟..

فكر "جيان" فى الرغبة التى اعترته مرات عديدة فى أن يقف فى الصف أمام السفارة الأمريكية أو السفارة البريطانية ليحصل على فيزا ويغادر البلاد.. استعاد قوله إلى "ساى": "دعينا نذهب إلى أستراليا"... إنه السفر بالطائرة، والتخفف من أثقال التاريخ، ومن مطالب العائلة، ومن ديون ثقيلة تراكمت عبر مئات السنين.

فجأة، أثناء سيره فى المظاهرة، شعر أن الزيف يلف كل ما يقال عن حب الوطن.. ربما هو الشعور بالإحباط وخيبة الأمل فى القادة الذين يسيطرون على مشاعر الغضب والسخط والازدراء عند المراهقين

ويقومون بتوظيفها لصالحهم أملاً فى يوم قادم يفوزون فيه بالسلطة التى تمنح المسئولين الحكوميين الحاليين القدرة على الفوز بصفقات تجارية كبيرة نظير رشاوى، وعلى تعيين أقاربهم فى الوظائف الكبرى، وعلى الاستئثار بالمنح الدراسية لأبنائهم، وغير ذلك من الامتيازات.

كان الهتاف يتصاعد من الحشود الكبيرة فى المسيرة الغاضبة، عندما أمعن النظر فى الوجوه، وشعر أنها لا تحمل ما يحمله هو من تشاؤم وشك، وأنهم يؤمنون بما يقولون نتيجة شعورهم بافتقاد العدل... مرت المظاهرة أمام مستودعات للبضائع ترجع إلى الفترة التى كانت فيها كاليمبونج مركزًا لتجارة الحرير، ووكالة سفر "سنو ليون"، ومكتب اتصالات الهاتف، ومتجر فيرازينير للوجبات السريعة، ومتجر تملكه شقيقتان من التبت يبيع شال الحرير "وارم هيرت شاوال شوب"، ومكتبة تعير مجلات الكرتون، ومظلات مكسورة معلقة تشبه طيورًا جريحة تحيط برجل قام بإصلاحها... وتوقفت المظاهرة عند بوابة قسم الشرطة المغلقة، ولا أثر لأفراد الشرطة الذين كانوا فى العادة يتواجدون خارج القسم وهم منخرطون فى الحديث.

تذكر "جيان" تلك القصص المثيرة حول حشود من المواطنين بالملايين تطالب البريطانيين بالرحيل، وتهتف فى نبل وجرأة وعظمة "الهند للهنود.. لا لفرض الضرائب.. لا لمساعدة بريطانيا وحروبها

بالبشر والمال"، وقال فى سره إن أمة لديها مثل هذه الجرأة والعظمة فى تاريخها وفى قلبها، ألا تتوق مرة أخرى إلى جرأتها وعظمتها ونبلها؟. اعتلى رجل المنصة، وقال:

"أيها الأخوة والأخوات، فى عام ١٩٧٤ طالب الحزب الشيوعى فى الهند بجورخستان، لكن طلبه تم تجاهله.. نحن الكادحين فى مزارع الشاى، والحمالين الذين نحمل على أكتافنا الأحمال الثقيلة، ونحن الجنود.. هل سمح لنا أن نصبح أطباء وموظفين حكوميين وملاكًا لمزارع الشاى؟.. لا بالطبع.. فقد جعلونا فى مرتبة الخدم.. لقد حاربنا بالنيابة عن البريطانيين على مدى مائتى عام.. حاربنا فى الحرب العالمية الأولى، وذهبنا إلى شرق إفريقيا وإلى مصر وإلى الخليج الفارسى.. وتنقلنا من هنا إلى هناك بناء على رغبتهم، وحاربنا فى الحرب العالمية الثانية فى أوروبا وسوريا وإيران والملايو وبورما.. أين كانوا سيذهبون بدون شجاعة أفراد شعبنا؟.. وإلى الآن نحن لا نزال نحارب من أجلهم.. عند الاستقلال والتقسيم، ذهب البعض منا إلى إنجلترا، والبعض الآخر بقى، وهؤلاء هم نحن الذين ظللنا نحارب بنفس الطريقة من أجل الهند.. نحن جنود مخلصون شجعان ولا سبب يدعو أحدًا إلى الشك فى إخلاصنا سواء للهند أم لإنجلترا.. كنا نحارب فى الحروب مع باكستانيين رفقائنا السابقين على الجانب الآخر من الحدود.. كم كان النحيب الصادر من أرواحنا عميقًا،

نحن أبناء جورخستان.. فهل منحنا جائزة أو تعويضًا أو احترامًا؟.. لا.. لقد بصقوا علينا".

استدعى "جيان" من ذاكرته آخر مقابلة أجريت معه للحصول على عمل منذ أكثر من عام، عندما سافر إلى كلكتا مستقلاً الحافلة طوال الليل، متوجهًا إلى مكتب صغير معتم فى أحشاء بناية أسمنتية.. كل شخص فى المكتب كان يبدو على وجهه خيبة الأمل.. كل المتقدمين إلى الوظيفة فى الحجرة وأيضًا القائم على إجراء المقابلات، الذى قام بعد قليل من الوقت بإطفاء مصباح الفلورسنت الذى يصدر ضوءًا خافتًا مرتعشًا، قائلاً "الفولت ضعيف"، ثم استكمل المقابلات فى الظلام، وفى نهاية كل مقابلة كان يكرر "حسن جدًا.. سوف نعلمك حال نجاحك".

"هنا، نحن نمثل ٨٠٪ من عدد السكان، وهنا تسعون مزرعة شاى، فهل يوجد نيبالى واحد يملك واحدة من هذه المزارع التسعين؟.. لا بالطبع.. هل يمكن لأطفالنا تعلم لغتنا فى المدرسة؟.. لا بالطبع.. هل يمكننا المنافسة للحصول على فرص عمل وعدوا بها آخرين بالفعل؟.. لا بالطبع.

"فى بلادنا التى حاربنا من أجلها، نعامل كالعبيد.. كل يوم تغادر الشاحنات حاملة أخشاب غاباتنا إلى البعيد، ويقوم ببيعها أجانب لتنتفخ جيوبهم بأثمانها.. وكل يوم تنقل أحجارنا من مجرى نهر تيستا لكى يبنوا بها منازلهم ومدنهم.. ونحن ـ العمال ـ

نعمل حفاة الأقدام فى كل الفصول.. أجسادنا نحيلة كالعصى، بينما هم يجلسون بأجسادهم السمينة فى منازلهم الفاخرة، ومع زوجاتهم السمينات، ومع حساباتهم البنكية السمينة، ومع أطفالهم السمان الذين يدرسون بالخارج، حتى مقاعدهم سمينة مثلهم.

"أيها الأخوة والأخوات.. علينا أن نقاتل حتى ندبر شئوننا بأنفسنا.. يتحتم علينا أن نتوحد تحت علم "الجبهة الوطنية لتحرير جورخا"، لنبنى مستشفيات ومدارس، ولنوفر فرص عمل لأولادنا، ولنحرر بناتنا من عبودية حمل الأثقال الثقيلة وتكسير الأحجار فى الطريق، ولندافع عن أرضنا التى ولدنا فيها وولد آباؤنا وأجدادنا، ولندبر شئوننا الخاصة بلغتنا الخاصة.

"جاى جورخا.. جاى جورخا.. جاى جورخا"

صاح المحتشدون وأطلقوا هتافات بأعلى الصوت، ثم تقدم ثلاثون فردًا كل منهم يرفع إبهام يده الذى يتفصد الدم منه، ويشرعون فى كتابة لافتة كبيرة بحبر دمائهم تطالب باستقلال "جورخا".. وامتلأ الفضاء على جانبى التل بأوراق كثيرة متطايرة كتب عليها "جنود جورخا الشجعان حماة الهند".

مع قدوم المساء وانخفاض درجة حرارة الجو، اكتشف "جيان" الذى شارك فى المظاهرة بطريق الصدفة، والذى أطلق هتافات تراوحت بين الجد والمزاح، أن الحماس الذى انتقل إليه قد ترك أثرًا

بداخله جعل دقات قلبه تتسارع، وعادت إليه نفسه الحقيقية.

أثناء جلوسه مع أصدقائه القدامى فى حانة صغيرة كانت تتبع وحدة عسكرية قديمة على طريق رينج كنج بونج، حكى لهم عن جده الأكبر وأعمامه، وتساءل غاضبًا: هل تعتقدون أنهم حصلوا على نفس راتب التقاعد، الذى كان يحصل عليه الإنجليزى، الذى له نفس الرتبة؟.. لقد حاربوا حتى لقوا مصرعهم، فهل كانوا يحصلون على نفس الراتب أثناء خدمتهم فى الجيش البريطانى؟.

بعد أن ألّف الغضب بين قلوبهم، تبين "لجيان" فجأة، لماذا هو يفتقد إلى المال وإلى فرصة عمل حقيقية.. ولماذا لا يمكنه السفر للدراسة فى إحدى الكليات بأمريكا.. ولماذا كان يعتريه الخجل إذا ما رأى أحد منزله.. وجال بخاطره كيف أنه لم يبد ترحيبًا برغبة "ساى" فى زيارة عائلته، وكيف كان خنوع والده يثير حنقه، وكيف وجد نفسه غير قادر على التحدث عنه أمام فصله الدراسى بمدرسة مزرعة الشاى.. وتكشف له كل ما كان يدعيه من أشياء تخالف الحقيقة من أجل أن يتجمل، وأدرك فى وضوح أنه لا مكان له فى مستقبل لا يرحب بأمثاله الذين يعانون كل أشكال وألوان الخجل والعار.. ووجد "جيان" نفسه، مثل كل شخص فى هذه البلاد، يسترجع من وقت لآخر، الضغائن القديمة، التى بمجرد أن تظهر إلى

النور، يراها على نحو أكثر صفاء ونقاء من أى وقت مضى.

اعترى الخجل "جيان" لأنه سمح لنفسه أن يبتعد بخاطره بعيدًا عن أصدقائه الذين يشاركونه الغضب والحنق، إلى حيث جلسات تناول الشاى والكعك وشرائح الخبز المكسوة بالجبن، التى جمعته مع "ساى" فى الشرفة، فضلاً عن مشاعر الود والدفء والألفة المتبادلة بينهما.

## ـ ٢٧ ـ

فى اليوم التالى، قدم "جيان" إلى "تشوأويو" بمزاج غير رائق، وعلامات الضجر على وجهه، يعتريه شعور بالضيق من قطعه مسافات طويلة سيرًا على قدميه فى الجو البارد، نظير نقود قليلة يحصل عليها من القاضى. وما زاد من حنقه أن هناك أناسًا يعيشون فى منزل كبير به حجرات كثيرة واسعة وحمامات مزودة بالماء الساخن... وفجأة تذكر طعام العشاء المكون من شرائح اللحم المشوية والبسلة، الذى تناوله مع "ساى" و"القاضى"، ذلك الذى قال له وهم إلى جوار المائدة: "يبدو أن روح الدعابة قد تخلت عنك، أيها الشاب".

ـ لقد تأخرت كثيرًا

قالت "ساى" لحظة وقوع بصرها على "جيان" بوجهه الغاضب على غير ما كان عليه فى الليلة قبل الماضية.. بدا عليه انزعاج لم يسبق أن اعتراه فى

صحبة "ساى" من قبل.. وفى محاولة منها لإخراجه من حالة الضجر هذه، أخبرته "ساى" عن حفلة رأس السنة، لكن "جيان" تجاهلها وقام بفتح كتاب الفيزياء، وقد ألم به سخط جعله يود لو كفت عن الكلام، خاصة بعد أن استشعر فيها سذاجة لم يكن قد لاحظها من قبل.

على غير رغبة منها وضعت وجهها فى صفحات الكتاب، الذى مضى وقت طويل لم يحصل منهما على أى اهتمام جدى: هناك شيئان، أحدهما يزن (...) والآخر يزن (...) أسقطا من أعلى برج بيزا المائل، فى أى وقت وبأية سرعة سوف يسقط كلاهما على الأرض؟

- مزاجك غير معتدل

تظاهر بأنه لم يسمعها

- تشعر بملل من الفيزياء؟

حمل سؤالها نوعًا من الاسترضاء

- لا على الإطلاق

- لماذا تثاؤبك إذًا؟

- لأننى أشعر بالملل منك أنت

مرت لحظة صمت لها وقع الصدمة.. وأضاف "جيان" صائحًا:

- أنا لست مهتمًا برأس السنة.. لماذا تحتفلون برأس السنة الميلادية؟.. أنتم هندوس، لا تحتفلون

بأعياد ميلاد آلهتكم، ولا بالعام الجديد بتقويم التبت.. أنتم تشبهون العبيد، تقلدون الغرب.. ويسبب وجود أناس مثلكم، فلن نحصل على مكان أو على أى شىء.

تحت تأثير كلماته القاسية غير المتوقعة، قالت:

- لا.. غير صحيح ما تقول

- ماذا إذًا؟

- عندما أريد أن أحتفل برأس السنة الميلادية، سأحتفل، وإذا لم أرد أن أحتفل بأعياد ميلاد آلهة الهندوس، فلن أحتفل.. ليس من الخطأ أن نحتفل ونبتهج.. كما أن اليوم الأول من السنة الميلادية إجازة فى الهند

- افعلى ما تشائين، فلا شأن لى بذلك.. فقط ما تفعلينه يظهر للعالم كله أنك حمقاء.

شدد على مخارج ألفاظه، وكل رغبة فى أن يلمح فى وجهها قدر الأذى الذى ألحقه بها.

- حسنًا.. لماذا لا تذهب الآن، طالما أنا حمقاء؟.. وما النفع فى أن تعطينى دروسًا؟

- حسنًا، سأفعل، أنت على حق.. ما النفع فى أن أعطيك دروسًا؟ من الواضح أن كل الذى تريدين فعله هو محاكاة الآخرين.. ألا يمكنك أن تفكرى فى نفسك؟.. ألا تعلمين أن الذين تقومين بتقليدهم ومحاكاتهم، هم أنفسهم لا يريدونك؟!

- أنا لا أقلد أحدًا

- هل تعتقدين وأنت تحتفلين برأس السنة الميلادية أنك نسخة أصلية؟.. من الحمق أن تعتقدى ذلك.

- حسنًا.. إذا كنت أنت بهذا الذكاء، إذًا كيف لم تستطع الحصول على عمل مناسب؟.. نتيجة كل مقابلة تدخلها من أجل فرصة عمل: راسب، راسب، راسب.

- السبب فى ذلك أناس مثلك!

- بسببى أنا؟.. أنت تقول إننى حمقاء.. من هو الأحمق؟.. اذهب إلى القاضى وأخبره.. وسوف يخبرنا من منا الأحمق.

أمسكت بكوب ماء، فانسكب بعض ما فيه قبل أن يصل إلى شفتيها، فقد كان جسدها يرتجف.

## - ٢٨ -

فكر القاضى فى البغض الذى يملأ قلبه.. عند عودته من إنجلترا، كان فى استقباله لتحيته نفس الفرقة الموسيقية النحاسية التى صاحبته عند بداية رحلته العلمية فى الخارج، وقد حال بينه وبين رؤيته لأفراد الفرقة وآلاتها سحب الدخان والتراب المتصاعدة من صواريخ ومفرقعات كانت تلقى على طريق القطار الذى يقترب من المحطة، وأصوات صفير وهتافات صادرة من ألفى شخص تجمعوا لمشاهدة الحدث التاريخى، فلأول مرة ينضم ابن من مدينتهم للعمل بالسلك القضائى بعد عودته من إنجلترا.

أثناء هبوطه من سلم القطار ووقوفه وسيره على رصيف المحطة، كانت الزهور تلقى عليه وتستقر على حواف قبعته.. وعند ركن قصى، كان هناك شخص ما ينظر إليه نظرة غامضة ومألوفة.. لم تكن إحدى شقيقاته أو بنات عماته وخالاته.. إنها "نيمى"، زوجته،

التى جاءت من منزل والدها الذى أمضت فيه فترة غيابه.. لم يكن قد تحدث إلى امرأة على مدى سنوات، ما عدا قوله عبارة "كيف حالك" فى المتجر، وعند قيامه بتسديد إيجار الحجرة للسيدة الإنجليزية العجوز.

جاءت إليه بإكليل زهر.. لم ينظر أحدهما للآخر، أثناء قيامها بوضع الإكليل على رأسه.. عيناه نظرت إلى أعلى، وعيناها نظرتا إلى أسفل.. كان فى الخامسة والعشرين وكانت فى التاسعة عشرة.

- خجولة جدًا.. خجولة جدًا

كثيرون من بين الزحام المحتفل كانوا يمنون أنفسهم بمشاهدة مشهد حب مؤثر، فدائمًا هناك من يرفض التصديق أن لا وجود لشىء اسمه الرومانسية.. ماذا عليه أن يفعل؟.. نسى تمامًا أن لديه زوجة.. بالطبع كان يعرف، لكنها مثل كل شىء فى ماضيه كانت صورتها قد انزوت بعيدًا.. والآن هى تتبع ظله مثل الزوجات اللاتى يتتبعن ظل أزواجهن.

طوال خمس سنوات مضت، كانت "نيمى" تتذكر الدراجة التى ركباها معًا، ودقات قلبها المتسارعة، وإثارتها لرغبته، الشىء الذى أرضى غرورها.. دققت "نيمى" النظر فى علبة الماكياج التى أتى بها "جيموباى" من كمبردج، وتنشقت شذا العبير الصادر عن مساحيق التجميل.. التقطت قطعة نسيج القطيفة المكسوة بالذرات الأرجوانية الناعمة، وبعد أن فكت أزرار

صداريتها، وراحت تربت بقطعة النسيج المحملة بذرات مسحوق التجميل على ثدييها، قامت من جديد بإغلاق صداريتها.. كانت تعلم جيداً أنها لم تعد طفلة حتى تسرق علبة الماكياج.

جلس "جيمو باى" منتصب الظهر، وقد اعتراه شعور بالملل والقلق، وبأنه أجنبى فى"بيفيت"، وفى تكاسل راح يفتش فى حقائبه، واكتشف عدم وجود شىء ما.. وصاح فى وجوه نساء عائلة "باتيل" اللاتى يفترشن الحصير فى منطقة الظل بالشرفة:

- أين علبة مسحوق التجميل

- ماذا؟

- شخص ما فتش فى حقائبى

فى حقيقة الأمر، لا أحد بالمنزل لم يفتش فى حقائبه، ولم يكن من اليسير عليهن إدراك أن فى ذلك مشكلة ما، أو استيعاب أفكاره الجديدة فى الحفاظ على الخصوصية.

- ماذا فقد منك؟

- علبة المساحيق

- ما هذه؟

حاول أن يشرح لهن، لكن بينما كن يتطلعن إليه فى دهشة، سألت إحداهن فى دهشة:

- لكن.. فى أى غرض تستخدم؟.. ما هذا الأبيض والأرجوانى الذى تضعه على بشرتك؟.. ولماذا؟

بدا الانزعاج على ملامح والدته، وسألت فى قلق:

- هل أصيبت بشرتك بأذى؟

ضحكت شقيقته التى كانت تنصت باهتمام، وقالت:

- سافرت إلى الخارج لكى تعود إلينا رجلاً له مكانته.. لكنك تبدو لنا كسيدة!

خطر على ذهن والد "جيمو باى" أن الشىء المفقود ربما له أهمية كبيرة فى عمل ابنه.. ولما تردد اسم الشىء المفقود، مثلما نطقه جيموباى باللغة الإنجليزية، لأنه لم يكن فى لغتهم كلمة تسمى هذا الاختراع، جفل جيموباى لغرابة نطقهم للكلمة الإنجليزية.. وبدءوا البحث عن علبه المسحوق الضائعة، وقلبوا فى ملابسه الداخلية، وبذلاته، ونظارة الأوبرا التى شاهد بها الباليرينا وهى ترقص فى باليه "جيزيل"، ولم يعثروا على أى أثر لها فى المطبخ والشرفة.

سألت أمه بنات أعمامه اللاتى كن يجاهدن لإخفاء ضحكاتهن:

- هل رأتها واحدة منكن؟

- ماذا؟

- علبة المسحوق

- ما علبة المسحوق هذه؟

- التى تحمى الجلد

- تحـمى الجـلـد من مـاذا؟.. مـسـحـوق أبـيض وأرجوانى، لأجل ماذا؟

"مـاذا تعـرفـون أنتم.. أنـاس جهـلة لا يتورعون عن السـرقـة".. قـال "جيـمـوبـاى" فى سـره، وهـو يـفـكـر فى التبجيل الذى كان ينتظر منهم إظهاره له ولما حققه من نجاح، لكن بدلاً من ذلك رآهم يتضاحكون ويتغامزون.. أخيرًا، وجه جيموباى" الاتهام إلى "نيمى":

- يجب أن تعرفى شيئًا

- لم أرهـا.. لماذا يتعيّن علىّ أن أبدى أى اهتمام؟

قـالت "نيمـى"، ودقات قلبهـا تتسارع تحت نهديهـا وقـد اكتسيـا بمسـحـوق التـجـميل المـعـطـر ذى اللـونـين الأبيض والأرجوانى الذى أتى به زوجهـا من إنجلترا.. لم يحب وجه زوجته، وإن كـان قد لان قلبه ورق عندمـا اعترى وجههـا الخوف والرغبة فى ذلك اليوم البـعيـد.. لـكن الآن، ليست هنـاك فتاة هـنـدية ترقـى إلى جمـال فتاة إنجليزية.. وبينمـا كان يقلب النظر هنـا وهنـاك، وجدهـا "جيمـوبـاى" مخبـأة هنـاك فى صدرهـا، وصاح بأعلى الصوت: "قذرة"، وجذب علبة مسحوق التجميل من صدرها.

- لن تحتملهما ألواح السرير الخشبية

قـالت خـالـة متقـدمـة فى الـعـمـر، عقب سمـاعهـا صوت عـراك داخل حجرة "نيمـى" و"جيموبـاى"، وتعـالت

ضحكات من بالمنزل، وهز البعض رأسه فى رضا.. وعلقت عجوز بصوت عميق:

- الآن، سوف تهدأ وتصفو، فهى مفعمة بالحيوية

داخل الحجرة التى أخليت ممن اعتادوا النوم فيها، ارتسم الغضب على وجه "جيموباى" الذى كان يمسك بخناقها، وعندما حررت نفسها من قبضة يده، اشتعل غضبه وحنقه.. هى من سرقت علبة مسحوق التجميل وجعلتهم يضحكون عليه.. هذه الفتاة القروية الجاهلة.. طاردها محاولاً الإمساك بخناقها مرة أخرى، فهرولت متجهة إلى الباب الذى أغلقته إحدى الخالات تحسبًا لحدوث شىء قد يجلب العار للعائلة، واقترب منها ونظرة عينيه تلقى فى نفسها الروع.. هرولت إلى النافذة، واعترض طريقها وأمسك بها، وبدون تفكير التقطت علبة المسحوق من فوق الطاولة القريبة من الباب وألقت بها فى اتجاهه، تملكها الرعب إذ تكسّرت العلبة إلى أجزاء وتناثر المسحوق هنا وهناك.. هجم عليها، وأوصلهما العراك إلى أرضية الحجرة، وبينما كان الغضب قد تمكن فيه، بدأ دبيب الرغبة يغزو جسده والدماء تتدفق إلى عضوه الذكرى، الذى شق طريقه وهو فى حال من الارتباك الشديد.. من خلال شق فى الحائط، كان هناك عم عجوز يراقب المشهد وقد دب دبيب الرغبة فى أوصاله.

ما جعل "جيموباى" يشعر بالغبطة، هو أنه استطاع أثناء الجماع إخفاء قلة خبرته وراء مشاعر

الغضب والحنق والكراهية، وهى الحيلة التى عرف كيف يستخدمها جيدًا طوال حياته فى مختلف المواقف.

سافر القاضى و"نيمى" لمدة يومين بالقطار والسيارة، وعندما وصلا إلى "بوندا"، قام القاضى باستئجار كوخ على حافة المدينة، نظير خمس وثلاثين روبية شهريًا بدون ماء وكهرباء، فلم يكن فى مقدوره استئجار كوخ أفضل حتى ينتهى من تسديد ديونه، لكنه احتفظ ببعض النقود جانبًا لتخصيص وصيفة لـ"نيمى" هى مس "إنيد بوت"، التى تضع قبعة أعلى وجهها الضخم القبيح، والتى كانت تعمل لفترة جليسة أطفال مستر "سينج" المفوض الحكومى، خلالها نجحت فى حملهم على أن ينادوا أمهم "مام" ووالدهم "فا"، وعلى تناول زيت كبد سمك القد.

لا تعرف "نيمى" الإنجليزية، التى ليس من المتعذر تعلمها فى رأى القاضى

What is this? .

سألها بغضب عن ثمرة كمثرى فى يده

What is this? .

أشار إلى فنجان على شكل مركب يستخدم لصلصة الطماطم، أخرجه من حقيبة أخرى، وكان قد اشتراه من متجر يبيع الأشياء القديمة، ويعود إلى عائلة ثرية حفرت الأحرف الأولى من اسمها عليه

JPP وهى ذات الحرف الأولى من اسم القاضى جيموباى لبوبا تلال Pباتل .P

What is this .

سألها وهو يمسك بلفة خبز، فكان الصمت جوابها أيضًا

- إذا أنت غير قادرة على نطق الكلمة، فلن يمكنك تناولها

بالتزامها الصمت، قام "جيموباى" بإبعاد لفة الخبز من طبق أمامها.. وفى المساء أيضًا، انتزع من يدها كأس شراب ترددت فى تذوقه، وقال:

- إذا كنت لا تحبينه، فلا تشربيه

لم يستطع أن يخرج معها إلى أى مكان، فقد ارتبك وشعر بالضيق، عندما هزت مسز "سينج" أصبعها فى اتجاهه وقالت: "أين زوجتك، مستر "باتل"؟.. آمل ألا تكون مرتدية البردة التى تختفى وراءها النساء الهنديات".. كانت مسز "سينج" تقلد لهجة.زوجها المفوض الآمرة، وتحاكى تصرفات امرأة إنجليزية تجمع بين اللطف والحزم فى مواجهة سلوك أحمق.

لم تصحب "نيمى" زوجها فى رحلة، مثل الزوجات الأخريات اللاتى كن يمتطين فى رحلاتهن ظهر حصان أو فيل أو جمل، وظلت وحيدة فى "بوندا" تسير الهوينا فى المنزل والحديقة، مثلما كانت طوال تسعة عشر

عامًا أمضتها داخل منزل والدها دون أن تفكر فى السير إلى البوابة المفتوحة أو تجاوزها إلى خارجها.. الآن تعيش فى عزلة وفى حرية لا طائل منها، ولا يكترث زوجها بواجباته تجاهها.

كانت تتسلق سلالم درج المنزل إلى الشقة التى بالسطح فى فترات الغسق فى أمسيات الصيف، تستمع إلى دقات أجراس المعبد وتراقب الأبقار فى طريق عودتها إلى المنزل، والطيور العائدة إلى أعشاشها فوق الأشجار، وأطلال منزل بعيد خلف النهر، كان مخصصًا للإقامة به فى مواسم الصيد، ويرجع إلى عصر "موجال" إمبراطور "جيهانجر"، الذى شهد محاربين يهبطون من الجبال لغزو الهند.

أسابيع مرت ولم تتحدث إلى أحد.. كان الخدم يضعون أمامها على طاولة بقايا طعامهم، ويسرقون من مئونة المنزل دون خوف، ولم يهتموا بنظافة المنزل إلا عند وصول "جيموباى" مستقلاً سيارته المستعملة.

ـ لماذا ترتدين ملابسك بهذا الشكل المبهرج الخالى من الذوق السليم؟.. أصفر وأرجوانى؟.. مجنونة أنت؟

ويقذف زجاجة زيت الشعر التى تستعمله بعيدًا

لاحظ فى يوم من الأيام آثار أقدام على مقعد دورة المياه، وأدرك على الفور أنها تجلس القرفصاء على المقعد، ولم يستطع التغلب على غضبه، فأمسك برأسها ودفع به إلى تجويف دورة المياه، ومنذ تلك

اللحظة، بدت متبلدة الحواس، يائسة، تنام طوال النهار وتستيقظ فى قلب الليل.. تحدق طويلاً فى الأشياء من حولها بغير تركيز، ولا تنظر فى المرآة، ولا تحتمل ضياع لحظة فى تمشيط شعرها أو فى ارتداء الملابس، تلك الأشياء التى يهتم بها فقط النسوة السعداء المحبوبون.

عندما رأى "جيموباى" بثورًا فى وجهها، خشى من انتقال مرضها الجلدى إليه، وأوصى الخدم بأن ينظفوا كل شىء بمطهر الديتول لقتل الجراثيم.. ثم بدأ يكسو جلده بمزيد من مسحوق التجميل، وفى كل مرة كان يتذكر علبة المسحوق التى كانت مخبأة بين نهديها.

- لا تطلى بوجهك إلى الخارج، حتى لا يفر الناس منك وهم يطلقون الصراخ.

فى نهاية العام، كانت تلك الأحاسيس المروعة شديدة القسوة التى تبادلاها معًا قد بلغت حدًا لا يمكن لأى أحد أن يتحمله.. وانتمى كلاهما إلى هذه المشاعر المروعة أكثر من انتماء كل منهما إلى الآخر.. وخبر كل منهما مشاعر غضب وأحاسيس كراهية إلى الحد الذى لا يمكن احتماله.

## - ٢٩ -

- كريسماس!.. حمقاء صغيرة!

قال "جيان" مغادرًا، يلاحقه صوت نشيج "ساى" وصياحها المختلط بالبكاء:

- ابن حرام قذر.. تأتى إلى هنا وتبدى تصرفًا شائنًا، ثم تهرول بعيدًا؟

رأى قسمات وجهها المتألمة، وانتابه خوف من غضبه، وأدرك أنها لم تكن هى السبب فى الشعور الذى اعتراه، إلا أنه أغلق بعنف الباب من خلفه.. أبدًا لم تتسبب ليلة رأس السنة فى إثارة ضيقه من قبل.. فكر "جيان" فيما قاله: "أليس لديك شىء من كبرياء؟.. تحاولين أن تكونى غربية؟.. إنهم لا يريدونك.. اذهبى إلى هناك وسترين إذا ما رحبوا بك وأذرعهم مفتوحة.. اذهبى إلى هناك لتجدى نفسك تقومين بتنظيف دورات مياههم ومع ذلك ستجدين أنهم لا يريدونك".

عاد "جيان" من جديد إلى "تشوأويو"، وقال:

- حسنًا.. أنا آسف

كان عليه أن يكثر من الملاطفة والتملق حتى أمكنه انتزاع ابتسامة، وقالت:

- وتصرفك الشائن المخزى!

- آسف

قبلت اعتذاره فى النهاية، لأنها أدركت أن علاقة رومانسية قد جمعت بينهما.. وسرعان ما أكدت قبلاته ما كانت تفكر فيه.. "لا قدرة لى على مقاومة ما أشعر به تجاهك.. هذه هى المشكلة".. وخطر على ذهنها أنها تلك الفتاة الفاتنة المغوية، وضحكت.

إنها طبيعة الإنسان التى لا تتغير ولا تتبدل.. كانت قبلاته مفرطة فى عاطفيتها، لكن بعد بضع دقائق، كان قد داخل اعتذاره الصادق شىء من الزيف، واستشعر غضبًا من نفسه؛ لأنه أظهر ضعفًا واستسلامًا.

عند غروب الشمس توجه "جيان" إلى الكانتين وهو يفكر فى تلك القبلات السخيفة التى نالت من طهارته، والتى يتوجب عليه أن يضحى بها حتى لا تتلوث روحه، وذهب به تفكيره إلى الطريقة السهلة التى منحت بها نفسها له، وإلى تعاليم الديانة البوذية فيما يتصل بالرغبة الجنسية عند الرجل والمرأة، وفكرت أيضًا "ساى"، وهى جالسة فى "تشوأويو"، فى

أحاسيس الرغبة والغضب والحمق التى تعتريها، فى محاولة منها للتخفيف من غضبها، وللتوصل إلى تسوية بين مشاعرها المتضاربة دون جدوى، وأسرت إلى نفسها فى غضب: "ما الخطأ فى حضورى حفلة رأس السنة؟" .. على كل حال، على المرء أن يستمر فى مناقشة قضية التحدث باللغة الإنجليزية، أو تناول الفطائر المحشوة باللحم فى محل "هاستى تاستى"، والموضوعات الأخرى التى تجعل من الصعب على "جيان" أن يدافع عن رأيه فيها.. وأمضت "ساى" بعض الوقت فى التفكير مليًا فى كيفية توجيه انتقادات ضد "جيان" ودحض ادعاءاته.. وبأعلى صوتها، قالت فى الفضاء الواسع من حولها: "ابن حرام.. ألف من أمثالك لا يساوونى منزلة ومكانة".

فى وقت لاحق فى المساء، سأل الطباخ: "أين ذهب بهذه السرعة؟"، وأجابت: "لا أعلم.. ولكن أنت على حق فى حكمك على النيباليين، فهو يفتقر إلى الذكاء، ولأنه لا يعرف الكثير عما يقوم بتدريسه لى، ولأننى أخبره بذلك، فهذا يجعله يستشيط غضبًا".. قال الطباخ متعاطفًا معها، وهو الذى كان قد بادر منذ البداية بوصفه بالحمق: "نعم".

فى كانتين "ثابا"، أخبر "جيان" كلاً من تشانج (البومة) وبانج (الحمار) كيف أنه اضطر إلى إعطاء دروس من أجل أن يكسب بعض النقود، وكم سيكون سعيدًا لو أنه عثر على فرصة عمل مناسبة ويترك "ساى" التى يصعب إرضاؤها، وجدّها القاضى

بإنجليزيته المتكلفة ذات اللكنة الغريبة.. ووجهه البنى القاتم المكسو بمسحوق التجميل الأبيض الأرجوانى.. وضحك كل من فى الكانتين عندما قام بتقليد صوت القاضى ولكنته ذات الرنين المصحوب بليونة مصدرها احتساؤه للكحول: "لمن تقرأ من الشعراء هذه الأيام يا فتى؟".. وشجعته ضحكاتهم إلى الانتقال الهادئ من التقليد إلى وصف المنزل ببنادقه المعلقة على الحائط، والشهادة الدراسية الحاصل عليها القاضى من جامعة كمبردج، التى أظهروا سخرية منها برغم عدم معرفتهم بها.

لماذا لا يتعين عليه أن يخدع "ساى"؟.. وهى التى لا تتحدث إلا بالإنجليزية وبلغة هندية مبسطة مع عدد قليل جدًا من أفراد طبقتها المعدودين.. وهى التى لا تعرف كيف تجلس القرفصاء انتظارًا لحافلة، والتى لم يسبق لها أن ارتادت معبدًا إلا لكى تتأمل عمارته، والتى عندما شاهدت فيلمًا هنديًا عادت إلى منزلها وهى فى حالة إعياء شديدة من مشاهد الفيلم الميلودرامى المغرق فى العاطفية المفرطة.. وهى أيضًا التى تبدى سعادة بالخضراوات الإنجليزية، وتشمئز ممن يضع زيتًا فى شعره، وتستعمل الورق فى التنظيف بدورة المياه.

كانا يشعران بالحرج أثناء تناولهما الطعام معًا، فمن جانبه لم يكن مستريحًا للطريقة التى تكبح بها مشاعرها، فضلاً عن كونها من النوع الذى يصعب إرضاؤه، ومن جانبها كانت تبدى امتعاضًا من

استعماله لأصابعه على المائدة، ومن ذلك الصوت المصاحب لمضغه وابتلاعه الطعام، فى حين كان القاضى إلى جانبه شديد الحرص على استعمال الشوكة والسكين وغير مستعد لتقبل أى تهاون فى ذلك من قبل ساى. وكان جيان على يقين من أن ساى مزهوة بنفسها وبتصرفها حياله وبكونها من طبقة أرقى، رغم تظاهرها بالخجل من عدم معرفتها بالكثير من أحوال الهند.

بتأثير الكحول أسرف جيان فى الحديث عن البنادق فى تشو أويو، وخزين المطبخ وزجاجات الشراب، وعن خلو المنزل من جهاز تليفون، ما يعنى افتقاد سكانه إلى آخرين يمكنهم تقديم العون والمساعدة لهم. وعند استيقاظه فى الصباح التالى، فكر فيما بدر منه الليلة الماضية، وشعر بالذنب، كما شعر بأن ذلك الشىء الذى يسمى الحب دائم التغير والتقلب كتحول الفصول وتغير الأسماء، وعندئذ بدأ الخوف من الحب يتسلل إلى قلب جيان.

## - ٣٠ -

خشى الطباخ من تأثير القلاقل المتزايدة فى الشارع والسوق على المواد التموينية لمطبخ المنزل، فراح يخزن منها بطريقته كميات أكبر. وبينما هو يزيل أوراق الصحف الملفوفة بداخلها لحم الجاموس وجدها منقوعة فى الدم، عندئذ، وعلى نحو فجائى، داهمته صورة ابنه "بيجو" غارقًا فى دمائه.

عندما لقيت زوجته مصرعها منذ سنوات، إثر سقوطها العنيف من أعلى شجرة أثناء قيامها بجمع أوراق خضراء لمعزتها، قال كل شخص فى القرية إن شبحها هدد بأخذ "بيجو" معها، وقال رجل دين إن روحها القلقة غير المستقرة تدل على أنها مازالت غاضبة من شىء ما، وأكد كثيرون أن زوجة الطباخ المعروف عنها هدوء الطبع، شاهدها ابنها "بيجو" على هيئة شبح أبيض شفاف فى ظلام الليل، وهى تحاول أن تنشب أظافرها فيه.

لم يهتم الطباخ كثيرًا بمعرفة اليوم الذى ماتت فيه زوجته، فقد تأخر وصول البرقية القادمة من قريته إلى منزل القاضى، وتفيد بمصرعها، وبضرورة قدوم الطباخ إلى القرية، لافتداء روح زوجته الهائمة فى فضاء القرية بذبح دجاجة فى ليلة لا يطلع فيها القمر، لكن القاضى رفض السماح له بالذهاب وعنفه: "إنها خرافات.. يا أحمق.. لماذا إذن لا تظهر الأشباح هنا؟.. ألم يكن فى مقدورها الظهور هنا كما تظهر فى قريتك؟".

. إنها تخشى الكهرباء، وفى قريتنا لا توجد كهرباء

. ما جدوى حياتك هنا إذن؟.. تعيش معى، وتذهب إلى الطبيب، وتتعلم القراءة والكتابة ويمكنك قراءة الصحيفة.. كل هذا وتترك نفسك للخرافة ولمروجيها الذين يسرقونك؟

مثل أفراد فى جوقة غنائية، قام الخدم جميعًا بنصح الطباخ بألا يوافق على آراء القاضى، وأن يذهب لإنقاذ ابنه ولتهدئة روح زوجته الهائمة القلقة.. واختلق القاضى قصة سقف كوخه بالقرية الذى انهار بسبب العاصفة الأخيرة، وعندئذ وافق القاضى على سفره، لكن الطباخ داخله القلق لأنه على مدى السنوات الأخيرة لم تأت أضحياته بنتيجة، وأسرّ إلى نفسه: ماذا لو لم يقبل افتداؤه سلامة ابنه وسكينة روح زوجته بذبح دجاجة، وماذا لو أن الروح الهائمة القلقة ظلت جائعة للاستحواذ على بيجو؟

***

منذ أربع سنوات، بذل الطباخ جهدًا لإرسال ابنه إلى الخارج، وذلك عندما قدم إلى كاليمبونج أحد الوكلاء لاستجلاب عمال يقومون بالخدمة فى المطبخ والكافيتريا والغرف لسفينة تتبع أحد الخطوط الملاحية، وقد صاحبت قدومه إعلانات نشرت فى صحيفة محلية وملصقات على الحوائط فى مختلف أنحاء المدينة تقول: "فرصة عمل شرعية فى الولايات المتحدة الأمريكية"!!.

تحولت حجرة الوكيل فى فندق سنكلير إلى مكتب مؤقت لاستقبال المئات من المتقدمين إلى فرص عمل بأمريكا، الذين اصطفوا فى صفوف طويلة دائرية اتسمت بالزحام وبمحاولات الاحتيال من البعض لاتخاذ موقع متقدم فى الصف فى غفلة من المصطفين، وكم كان سرور بيجو وفرحه غامرًا عندما جاء دوره لإجراء المقابلة. كان الطباخ قد أرسل فى طلب بيجو لكى يأتى على وجه السرعة من قريتهما إلى كاليمبونج لكى يلحق بتلك المقابلة برغم اعتراض القاضى الذى كان يرى أن من مصلحة بيجو أن يعمل لديه بعد تقاعد والده.

- أستطيع إعداد أى نوع من حلوى البودينج الهندية والأوروبية والأمريكية

- ممتاز.. نقدم فى السفينة كل ليلة نحو ١٧صنفًا من الحلوى فى البوفيه المفتوح

صادف بيجو نجاحًا فى المقابلة، وتم قبوله، وفى لحظة من أجمل لحظات حياته وقع على العرض المقدم، وبدا الطباخ مزهوًا:

"لقد نجح فى المقابلة بسبب كل أنواع حلوى البودينج التى أخبرته بطريقة عملها.. ولديهم فى السفينة كل ليلة بوفيه مفتوح، فهى كالفندق.. وبسؤال بيجو فى المقابلة عما يمكن إعداده من أنواع الطعام والحلوى، أجاب "أستطيع عمل هذا وذاك وأى شىء تطلبونه". وعندما سأل الحارس الطباخ "أمتأكد أنت أنها فرصة عمل قانونية"، أجاب مدافعًا عن الرجل الذى أبدى تقديرًا خاصًا لابنه "قانونية مائة فى المائة".

عاد المقبولون إلى الفندق فى المساء التالى وبصحبة كل منهم شهادة صحية تثبت خلوهم تمامًا من الأمراض، وشيك بنكى بثمانية آلاف روبية نظير الرسوم الإدارية وتكلفة معسكر التدريب المقرر عقده فى كاتماندو، وبدت على وجوههم جميعًا قناعة بأن عليهم تسديد ما طلب منهم حتى يحصلون على فرصة العمل. وقام الوكيل بتحرير إيصالات تفيد تسلمه الشيكات البنكية بعد فحصه الشهادات الصحية التى حصلوا عليها بالمجان من طبيبة السوق التى أبدت تعاطفًا مع بيجو، فسجلت قياس ضغط دمه بأقل مما هو عليه، وزادت من وزنه، كما أفادت بأنه حصل على كل التطعيمات المطلوبة فى أوقاتها المحددة.

"عليك أن تبدو فى مظهر طيب عند إجراء مقابلة بالسفارة حتى لا يتسبب أحدهم لك فى مشكلة".. نصحت الطبيبة بيجو، لأنها مرت بالتجربة ذاتها قبل

أن يسافر ابنها إلى الولايات المتحدة منذ أعوام، وفى مقابل هذه النصيحة قطع بيجو على نفسه عهدًا بأنه سيحمل معه عند سفره إلى أمريكا صندوقًا من الجبن الجيد ثم يبعث به بالبريد إلى ابنها الذى يدرس الطب فى ولاية أوهايو، والذى اعتاد أثناء وجوده فى مدرسته الداخلية فى دارجيلينج تناول الجبن أثناء مذاكرته لدروسه. ولم يمض سوى أسبوعين حتى استقل بيجو حافلة إلى كاتاماندو التى سيمضى فيها أسبوعًا للتدريب فى المقر الرئيسى لوكالة تسفير العمالة.

فى مدينة المعابد والقصور الخشبية ذات النقوش، كاتاماندو، ترتفع فى سمائها غابة من بنايات خرسانية، جعلت بيجو يتلفت بحثًا عن قمة جبل إيفرست دون جدوى، وذلك أثناء سيره فى شوارع المدينة المزدحمة وهدفه الوصول إلى العنوان الذى يحتفظ به فى جيبه: بناية رقم ٢٢٣ بلوك ١ الطابق الأرضى، خلف سينما بون. وبينما بعض الأجانب يلتقطون صورًا فوتوغرافية للشارع المزدحم، عبر بيجو الطريق باتجاه الزقاق الذى يقع خلف دار السينما، وهناك كان محل جزارة صغير على بابه رسم لأرجل دجاج وبداخله جزار يداه ملطختان بالدماء، وعلى جانب من الباب نقش عليه رقم يشابه رقم العنوان الذى يبحث عنه.

"لقد خدعت _قال الجزار ضاحكًا _كثيرون غيرك جاءوا يسألون عمن سيذهب بهم إلى الولايات

المتحدة.. هل أنت أحمق حتى تعطى نقودك لمخادع؟.. من أين أنت قادم؟.. ألا تعرف أن عالمنا ملىء بالمجرمين؟.. اذهب إلى قسم الشرطة وأبلغهم بالأمر، حتى وإن لم يفعلوا شيئًا لك".

قبل أن يبدأ الجزار فى شق عنق المعزة، سمعه بيجو وهو يصرخ فيها ويوجه إليها مختلف أنواع الشتائم وهو يجرها أمامه ثم يقتلها.. هل يتعين عليك أن تشتم وتلعن مخلوقًا حتى يكون فى مقدورك تدميره؟.. بينما كان بيجو يقف مزهولاً خارج محل الجزار ولا يدرى ماذا يفعل، رآهم داخل المحل يصفّون دمها ويسلخون جلدها وينزعونه.

كانت محاولته الثانية مباشرة ويسيرة، إذ قام بيجو بملء طلب للحصول على تصريح زيارة كسائح، تمامًا مثلما قام رجل من قريته بخمس عشرة محاولة للحصول على تصريح الزيارة، وأخيرًا تكللت محاولته السادسة عشرة بالنجاح وحصل عليها، ولذلك كانت نصائحه للشباب فى القرية: "لا تيأس أبدًا، فسوف يأتيك يوم حظك أخيرًا".

خارج البوابة التى من المتعذر تجاوزها، سأل بيجو الحارس: "هل هذه السفارة الأمريكية؟".. أجاب الحارس: "هذه سفارة الولايات المتحدة الأمريكية!".. سأل بيجو: "أين السفارة الأمريكية؟".. بنفاد صبر، قال الحارس: "إنها نفس الشىء!". زحام من البشر يرتدون ملابس رثة، خارج السفارة.. عائلات بكاملها

قدمت من قرى بعيدة، يتناولون طعامًا جاءوا به معهم، بعض الأفراد حفاة الأقدام والبعض الآخر يرتدون أحذية بلاستيكية بالية، وتصدر عنهم جميعًا رائحة عرق قديم من عمر بداية رحلتهم التى بلا نهاية. عند عبور هؤلاء الباب إلى الداخل، يجد الواحد منهم نفسه فى قاعة مكيفة الهواء ينتظر فى أحد المقاعد الأرجوانية المصطفة فى صفوف منتظمة.

أحيانًا، تكون زائفة كل أوراق المتقدمين للسفارة الأمريكية للحصول على تصريح زيارة مثل شهادات الميلاد والتطعيم ضد الأمراض، وكشف حساب بالبنك، فهناك مئات من الكتبة الجالسين القرفصاء أو يقتعدون الأرض وأمامهم الآلات الكاتبة والأختام الرسمية على أتم الاستعداد لتقديم أى مستند أو أوراق رسمية مطلوبة. عبر مكبر الصوت طالب المتحدث المتقدمين بطلبات لاستخراج تصريح زيارة بأن يقفوا فى صف أمام النافذة رقم ٧ لكى يحصل كل متقدم على رقم معين عند النداء عليه يتقدم صاحبه لكى يعرض أوراقه أمام المسئول عن منحه التصريح. فجأة ساد الهرج والمرج المكان، وبدأ السباق المحموم نحو النافذة، وبالطبع كان الأقرب إلى النافذة هو الأكثر دفعًا للآخرين بالساعد والكتف، الأكثر عنفًا. من موقعه فى آخر الصف، شاهد بيجو الشخص الواقف فى أول الصف وهو ينظر إلى الأجانب باستخذاء وإلى مواطنيه باستعلاء زائف.

تم قبول أوراق بعض المتقدمين، ورفضت أوراق البعض الآخر، دون أن يجرؤ أحد على السؤال عن معيار القبول والرفض، ربما كان المعيار هو مدى ارتياح المسئول لوجه المتقدم للحصول على تصريح لزيارة أمريكا، وربما يكون حظ الواقفين فى أول الصف أفضل؛ لأن المسئول يكون لا يزال واسع الصدر ولم يشعر بالإرهاق ونفاد الصبر بعد إزاء الأكاذيب والقصص الملفقة، وعلى العكس من ذلك، قد يكون من سوء حظ الواقفين فى أول الصف أن المسئول لا يزال فى كامل لياقته الذهنية والبدنية فيمكنه التحقق بعناية من صحة الأوراق ويكتشف أثناء النقاش وجود ثغرات بين ما يقوله المتقدم وبين ما هو فى الأوراق المقدمة. "ماذا تمتلك من نقود؟".. "هل يمكنك أن تثبت لنا أنك لن تقيم فى أمريكا؟".. الحقيقة الواحدة المقبولة من كل الهنود الواقفين أمام النافذة هو قبول كافة أنواع الهوان طالما أن الجائزة الكبرى فى النهاية هى دخول الولايات المتحدة الأمريكية.

"ما الغرض من زيارتك الولايات المتحدة؟".. يسأل الواقفون بالصف بعضهم البعض عما يجب عليهم قوله إجابة على السؤال.. "سوف أقول إن شبانًا سود اقتحموا متجر شقيقى هناك أثناء وجود زوجته وقتلوها، وأنا ذاهب لكى أحضر جنازتها".. "لا تقل ذلك وفكر فى شىء آخر"، قال طالب يدرس الهندسة فى جامعة نورث كارولينا ويقف فى الصف من أجل تجديد تصريح دخوله إلى الولايات المتحدة.. أكد آخر

أن مثل هذه الحوادث يكون السبب فيها دائمًا السود.. وعلا صوت في موقع متأخر من الصف وقال: "نعم، يعيش السود مثل القرود فوق الأشجار، إنهم ليسوا متحضرين مثلنا".. لكن عندما همس أحدهم بأن الجالسة أمام النافذة امرأة أمريكية من أصول إفريقية، كان الخبر له وقع الصدمة عليهم، وعلا صوت ساخر: "إذا كان الأمريكيون يقبلون السود، فمن المؤكد أنهم سيرحبون بنا نحن الهنود ويستقبلوننا بأذرع مفتوحة! وسيبدون سعادة بالغة برؤيتنا".

بدأ القلق يعلو قسمات وجه بيجو عند رؤيته لامرأة يبلغ صراخها عنان السماء، وتلقى بنفسها هنا وهناك في حركات هستيرية مرددة: "إنهم لن يسمحوا لي بالذهاب.. ابنتي أنجبت مولودها ولن يسمحوا لي بالذهاب لكي أشاهد وجه حفيدتي.. أفضل الموت على عدم الذهاب ورؤية ابنتي وحفيدتي".. هرع أفراد الأمن إلى المرأة وأمسكوا بها وقاموا بجرها بعيدًا عبر ممر طويل تصدر عنه رائحة سائل قاتل للجراثيم. وعندما جاء الدور على صاحب قصة القتل الملفقة لكي يقف أمام النافذة التي تجلس خلفها المرأة الأمريكية السوداء، قرر أن يغير من هوية القاتل، فليكن مكسيكيًا.. استمعت إليه المرأة جيدًا وقالت له: "لا يمكننا منحك الفيزا".. قال: "لماذا، مدام.. من فضلك، مدام.. لقد اشتريت تذكرة السفر بالفعل، مدام.

من بين المتقدمين للحصول على فيزا الدخول إلى الولايات المتحدة أيضًا، هنود لديهم منازل فسيحة،

ويرتدون الجينز، ويتحدثون الإنجليزية، وتنتظرهم بالخارج سيارات يقودها سائقون لتقلهم وتعيدهم إلى بيوتهم فى الشوارع التى تظللها الأشجار.. وطوال الوقت كان هؤلاء يحاولون الابتعاد بأنفسهم عن المتزاحمين فى ملابسهم الرثة، ويحاولون كذلك من خلال ملابسهم الأنيقة الإيحاء للموظفين بالسفارة الأمريكية أنهم من النخبة أصحاب الكفاءات التى اكتسبت مهارة استخدام الشوكة والسكين على موائد الطعام، والتى تتحدث بصوت خفيض وليسوا من أولئك الذين يجلسون القرفصاء أعلى مقعد دورة المياه. قال واحد من هؤلاء إلى الجالس خلف النافذة: "سافرت إلى الخارج كثيرًا، ودائمًا أعود إلى بيتى هنا.. سافرت إلى إنجلترا وسويسرا وأمريكا ونيوزيلندا، وأتطلع إلى السفر إلى نيويورك مرة أخرى لكى أشاهد أحدث الأفلام السينمائية ولأتذوق البيتزا ونبيذ كاليفورنيا، وأيضًا نبيذ شيلى، فهو جيد وسعره معقول.. من حظى الحسن أننى كنت هناك فى نيويورك، وسأكون سعيد الحظ إذا سافرت إليها مرة أخرى".

جاء دور بيجو للوقوف إلى النافذة المحددة له، ووقع بصره على شاب نظيف أنيق يرتدى نظارة، فأسرّ فى نفسه أن البيض يبدون فى مظهر نظيف، لأن بشرتهم بيضاء، ولأنه كلما كان الشخص بشرته أكثر قتامة، كلما بدا مظهره أقل نظافة.

- لماذا تريد السفر

- أود السفر للسياحة

ـ كيف لنا أن نتأكد أنك ستعود إلى بلادك؟

ـ عائلتى وزوجتى وابنى هنا، وكذلك المحل الذى أملكه

ـ أى محل؟

ـ محل للتصوير الفوتوغرافى

قال بيجو فى سره: هل سيصدق الرجل ما أقول؟

ـ أين ستقيم؟

ـ مع صديق لى فى نيويورك، اسمه "ناندوا"، وهذا عنوانه إذا أردت الاطلاع عليه

ـ ما الفترة التى ستمكثها هناك؟

ـ أسبوعان.. إذا كان هذا فى نطاق المسموح به

ـ هل لديك من المال ما يغطى نفقات هذه الرحلة؟

أطلعه على البيان المزور بكشف حسابه فى البنك الذى جلبه له والده من محاسب بأحد البنوك فى مقابل زجاجتى كحول من نوع بلاك ليبل.

ـ سدد الرسوم فى النافذة المجاورة، وفى الساعة الخامسة بعد الظهر تحصل على الفيزا.

كيف يمكن حدوث ذلك؟.. وهو غير مصدق، التفت بيجو إلى الواقف خلفه فى الصف، الذى سأله وهو غير مصدق أيضًا .. نجحت بيجو؟.. بيجو.. نجحت؟.. بيجو؟.. بيجو!.. شعر بيجو أن الرجل يكاد

يموت من الفرح لأجله.. أجاب: نعم.. نجحت.. وفى تأثر بالغ قال الرجل: أنت أكثر الناس حظًا على وجه الأرض.

أكثر الناس حظًا على وجه الأرض قادته قدماه إلى حديقة لكى ينفرد بنفسه وبالخبر السار.. كانت مياه الصرف الصحى تروى مساحة صغيرة من حشائش خضراء نضرة فى الفضاء المعتم بعض الشىء برغم الرائحة الكريهة الصادرة منها.. بعيدًا عن مياه الصرف، طارد بيجو فى تهلل وابتهاج صفًا من الخنازير على بطونها علامات سوداء من المياه الملوثة.. "هاب هاب"، صاح بيجو فى الغربان التى تعتلى ظهور الخنازير، فتدافعت مذعورة وطارت فى الفضاء ناقمة فى انتظار عودتها مرة أخرى.. طارد بيجو بقرة.. "هاب هاب".. ووثب عاليًا فى الهواء، وأطلق ساقيه للريح.

فى اليوم التالى أرسل أكثر الناس حظًا على وجه الأرض، برقية إلى والده، وهو يعلم جيدًا أن لحظة تسلم والده للبرقية سيشعر بأنه أكثر الآباء حظًا فى العالم، لكنه لم يكن يعلم بالطبع أن ساى سوف تفرح كثيرًا.. فعندما قام بيجو بزيارة كاليمبونج قبل توجهه لمقابلة الوكيل المزعوم لأحد الخطوط الملاحية شعرت ساى بغصة فى حلقها، لأنها أدركت أن الطباخ يضع عائلته فى المرتبة الأولى من اهتمامه، وأنها تأتى فى المرتبة الثانية من الاهتمام فى حال وجود ابنه بيجو، ولأنها اكتشفت أنها مجرد بديل يوليه اهتمامه فقط

حال عدم وجود بيجو إلى جانبه.. لذا عندما سمعت ساى عن نجاح بيجو فى حصوله على الفيزا لدخول أمريكا، أطلقت صيحة فرح تردد صداها فى أنحاء المنزل.

***

بعد أكثر من ثلاث سنوات منذ تسلمه فيزا الدخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية، انزلقت قدم أكثر الناس حظًا فى العالم على أرضية "غاندى كافيه" اللزجة، وفقد توازنه وسقط على الأرض فى صوت مدو، وأصيبت ركبته إصابة بالغة جعلته غير قادر على النهوض.. "هل يمكنك إحضار طبيب؟".. وجه بيجو سؤاله إلى "هاريس هارى"، بعد مساعدة ساران وجيف له للوصول إلى فراشه الكائن بين أكوام الخضراوات.. "طبيب!.. هل تعلم مدى غلاء العلاج فى هذه البلاد؟".. "لقد أصبت هنا.. إنها مسئوليتك".. "مسئوليتى!".

نهض هاريش هارى واقفًا فى مواجهة بيجو ساخطًا.. "لقد انزلقت قدمك فى المطبخ، فماذا لو انزلقت قدمك فى الطريق؟".. أسرّ هاريش إلى نفسه أن بيجو قد كوّن له صورة ذهنية خاطئة جراء حدبه عليه.. "أدخلتك مطعمى، ومنحتك فرصة عمل وأنت بلا أوراق رسمية، وسمحت لك بأن تقيم فى المطعم مجانًا، وعاملتك مثل ابنى، والآن.. ها أنت ترد لى الجميل!.. أى حق لك هناك فى الهند؟.. هل أخطأت

لأننى لم أطلب منك حتى تنظيف أرضية المطعم؟.. يتعين عليك أن تدفع لى نظير عدم اعتنائك بنظافتك، فأنت تعيش مثل الخنازير.. هل أقول لك إنك تعيش مثل الخنازير؟"

ما أدخل الجرأة فى قلب هاريش حتى نعته بالحيوان هو ارتجاج ركبتى بيجو الذى كان يحملق بغضب فى وجه هاريش.. وفجأة شعر بيجو بألم فى جسده، وتوترت أعصابه، ووجد نفسه ينفجر كالبركان فى وجه هاريش:

"نحن نعيش كالخنازير؟.. بدوننا لا يمكنك كسب المال.. أنت لا تدفع لنا غير القليل من المال لأنك تعلم تمامًا أنه ليس فى إمكاننا عمل شىء.. نعمل فى مطعمك طوال الليل والنهار لأننا لا نملك إقامة شرعية أو تصريح عمل.. لماذا لا تكفلنا حتى نحصل على البطاقات الخضراء؟"

"كيف يمكننى أن أكفلك؟.. إذا كفلتك، يتعيّن علىّ إذن أن أكفل كلاً من ريشى وساران وجيف ومستر لالكاكا.. كيف يمكننى أن أستثنيك؟.. ولكى يحدث هذا يتوجب علىّ أن أذهب إلى الجهات الرسمية وأقول لها أن لا أحد من المواطنين الأمريكيين يمكنه القيام بالعمل المطلوب، ويتعيّن علىّ أن أبرهن على ذلك، وأن أبرهن على أننى قمت بنشر إعلان عن وجود فرصة عمل، وعندئذ سيكون مطعمى محط أنظارهم، فيسألون أسئلة لكى أجيب عليها، وأثناء

ذلك ربما يلقون القبض علىّ وأودع خلف القضبان، لاستخدامى عمالة غير شرعية".

بعد فترة صمت، واصل هاريش قوله: "إذا لم تكن سعيدًا بوجودك هنا، اذهب الآن وابحث عن شخص يكفلك، وأنت تعلم جيدًا كيف يمكننى بسهولة أن آتى بغيرك.. ألا تعلم كم أنت محظوظ؟.. ألا تعلم أن هناك آلافًا فى هذه المدينة يبحثون عن عمل؟.. بحركة من إصبعى يأتينى فى خلال ثانية واحدة المئات ممن يتوقون إلى الإحلال محلك.. اغرب عن وجهى!".

لكن بيجو لم يحرك ساكنًا، لذا استدار هاريش مبتعدًا وصعد إلى أعلى السلم ثم هبط من جديد إلى أسفل وهو فى حالة من التوتر الشديد.. لكن بعد لحظات، زاوله التوتر وأصبح أكثر هدوءًا، وقال فى شىء من عطف: "متى عاملتك معاملة سيئة؟.. أنا لست رجلاً سيئًا، هل أنا كذلك؟.. لماذا تهاجمنى الآن؟.. بيجو، هذه الأشياء التى تتحدث عنها خطرة ولا يمكننى القيام بها".

قام هاريش بإحصاء خمسين دولارًا من حافظته، ودسها فى يد بيجو، وقال: "لماذا لا تأخذ قسطًا من الراحة؟.. يمكنك المساعدة فى تقطيع الخضراوات وأنت فى وضع استرخاء.. لكن إذا شعرت أنك لست على ما يرام فأنصحك بالعودة إلى الهند، فهناك أطباء جيدون وأجورهم زهيدة وستحصل على أفضل رعاية طبية، وربما فى وقت لاحق يمكنك القدوم مرة أخرى إلى أمريكا".

يعلم بيجو جيداً أنه ليس من السهل عليه اتخاذ قرار بالعودة إلى الهند، وأنه ليس من السهل كذلك عليه العودة ثانية إلى أمريكا... مستلقيًا على فراشه، ناظرًا عبر قضبان النافذة الصغيرة بالمطعم، راقب بيجو حركة الشمس فوق صف البنايات الشاهقة التى يمكن مشاهدتها من كل مكان بالمدينة الكبيرة وهى تناطح السحاب.

بعد أسبوعين، استطاع بيجو السير على قدميه مستعينًا بعصا، وبعد أسبوعين آخرين، غادره ألم الجسد، لكن لم يغادره ذلك الألم الناجم عن عدم تمكنه بأى حال من الحصول على البطاقة الخضراء، وهو ما يبعث فيه الإحساس المستمر بألم النفس.

البطاقة الخضراء.. حلم يستحوذ على عقله طوال النهار، ويتحول إلى كابوس يؤرقه فى الليل، ولا شىء آخر يشغل تفكيره سوى هذه البطاقة الخضراء... فى كل مرة يتسلم رسائل بريدية من والده ينفجر فى بكاء حار، وبعد قراءتها يستشيط غضبًا وحنقًا.. "من فضلك، بيجو، أونى يحتاج عونك ومساعدتك، لقد ذهب إلى السفارة وأبدى الأمريكيون سرورهم به وسوف يصل نيويورك فى غضون شهر.. ربما يمكنه الإقامة معك ريثما يجد مكانًا آخر"... فى أحد الأيام، استيقظ بيجو واكتشف تكسر أحد أسنانه نتيجة جزّه على أسنانه أثناء نومه.

"كيف يأتينى النوم، وأنت تصر على أسنانك، والفئران تجرى هنا وهناك؟".. قال جيف زميله

بالمطعم فى إحدى الليالى التى استيقظ فيها ونجح فى اصطياد فأر داخل علبة معدنية أثناء طوافه بحثًا عن طعام، ثم صب فى العلبة سائلاً سريع الاشتعال ثم أشعل فيها وفى الفأر النار.

"اسألنى لكى أخبرك عن أفضل مكان فى مانهاتن لكى تشترى منه حذاءً بسعر معقول".. سعيد سعيد مرة أخرى.. ما من مكان فى المدينة الكبيرة يصعب على سعيد سعيد التواجد فيه.. "هيا اسألنى".. أجاب بيجو شارد الذهن: "لا أعرف".. فى صوت يجمع بين الحدة والرقة قال سعيد سعيد: "أنا أكلمك يا رجل، استيقظ.. أى شىء تريده يمكنك الحصول عليه إذا قمت بالمحاولة وبذلت بعض الجهد".. أدرك بيجو أن سعيد يتحدث الإنجليزية الآن على نحو أفضل بسبب قراءته لكتابين: "دع القلق وابدأ الحياة"، و"كيف تجعل من الآخر شريكًا لحياتك".. ولدى سعيد خمسة وعشرون زوجًا من الأحذية، البعض منها ليس على مقاس قدمه، لكنه اشتراها على أية حال بسبب جمال شكلها.

ربما يعود إلى المكان الذى أتى منه؟.. لماذا لا؟.. نكاية فى نفسه وفى مصيره.. لكى يفرح فيه أعداؤه.. من أراد له العودة خائبًا، ومن سينشرح صدره لرؤيته وقد عاد إلى الهند كما ذهب.. ربما يتعيّن عليه الذهاب إلى المكان الذى أتى منه.

بينما كان سعيد يجمع الأحذية التى يجتذبه إليها جمال شكلها، كان بيجو منشغلاً برثاء حاله، وهو

يتطلع إلى حشرة ميتة فى كيس أرز بسمتى كان قد قطع مئات الأميال منذ بداية رحلته فى "دهرادان" بالهند، وتذكر الأحزان التى صاحبت رحلته هو من قريته الصغيرة إلى المدينة الكبيرة نيويورك.. لا أحد فى الغالب الأعم فى الهند لديه القدرة على أن يشترى هذا النوع من الأرز الفاخر... وعلى الهندى إذن أن يسافر حول العالم لكى يتمكن من تذوق الأرز البسمتى وغيره من الأشياء التى هى فى متناول أى شخص آخر دون أن يكون بالضرورة ثريًا.. وبعودة الهندى إلى المكان الذى نشأ وكبر فيه لن يكون الأرز البسمتى فى متناوله مرة أخرى.

كان الطباخ يكرر القول لابنه بيجو: "أمكث فى أمريكا على قدر ما تستطيع.. أمكث فيها.. كون ثروة، ولا تعود إلى هنا".

## - ٣١ -

في منتصف شهر مارس، استقل كل من الأب بووتى والعم بوتى ولولا ونونى وساى، سيارة جيب تابعة لشركة ألبان سويسرية متجهين إلى "دارجيليتج جيمخانا" لكى يقوموا باستبدال كتب جديدة من المكتبة هناك بما لديهم من كتب سبق لهم استعارتها، قبل أن تزداد سوءًا القلاقل والاضطرابات على جانب التل، تلك التى نشبت بعد بضعة أسابيع على وقوع حادثة سرقة البنادق من "تشوأويو".. وافق ١٣ إبريل يوم العلم الأسود، لكن فى شهر مايو تقرر القيام بإضراب مدته ٧٢ ساعة.. فى ذلك الوقت مرت المناسبات الوطنية كيوم الاستقلال أو يوم قيام الجمهورية أو يوم عيد ميلاد غاندى دون احتفال، وعلقت لافتات تحض على مقاطعة الانتخابات "لن نقبل بوجودنا فى غرب البنغال ضيوفًا على شعبها"، وأخرى تشير إلى إلغاء معاهدة١٩٥٠ الهندية البنغالية، ولافتة ثالثة تؤكد على ضرورة مساهمة كل

شخص سواء كان من نيبال أو من غيرها فى تمويل شراء أجندات وأشرطة كاسيت لخطب "جينزينج" الرجل البارز فى دارجيلينج "وبرادان" الرجل البارز فى كاليمبونج.

أطلت ساى من مكانها بالمقعد الخلفى للسيارة الجيب على حديقة دير سان جوزيف المزهرة، وفكرت فى جيان وفى مشاحنتهما حول الاحتفال بالكريسماس، التى عكرت صفو علاقتهما، وتذكرت قبلاتهما، ووجهها بالقرب من عنقه، بينما كان كل منهما يكتشف جسد الآخر.

من مجلسها أيضًا فى المقعد الخلفى للسيارة الجيب لوحت لولا ونونى من خلال النافذة "هالو مسز سوندوب".. كانت مسز سوندوب، التى تنتمى إلى عائلة أرستقراطية من التبت، برفقة ابنتيها "بم بم" و"دوما" اللتين ترتديان قميصًا فضفاضًا من الحرير عليه سبعة نقوش بوذية، واللتين بعد التحاقهما بدير لوريتو للراهبات كان من المفترض أن تصادقا "ساى" لكنهما لم تقبلا صداقتها لغموضها وغرابتها... "يا لها من سيدة رائعة".. تصفها كذلك لولا ونونى فى كل مرة تريانها، فهما يحبان الارستقراطيين والفلاحين، ويبغضان ما بينهما من طبقة وسطى... لكن لولا ونونى لم يلوحا لمسز سن أثناء خروجها من مكتب البريد.. "إنهم يتوسلون لابنتى حتى تتفضل عليهم وتحصل على البطاقة الخضراء".. قلدت لولا بصوتها صوت جارتها واصفة إياها بالكذب. وأثناء مرورهما

بالسيارة، لوحا مرة ثانية للأميرات الأفغان وهن جالسات على مقاعد من الخيرزان وسط زهور الازاليه الصحراوية البيضاء فى منزلهما الذى صدرت منه رائحة الدجاج التى لا يخطئها أحد.. "حساء؟".. صاح العم بوتى الذى شعر بالجوع وراح يتشمم رائحة الطعام باستمتاع.. "حساء؟".. ثم لوح فى اتجاه ملعب مدرسة جراهام للأيتام، للأطفال ذوى الوجوه الجميلة الملائكية.

أفراد من الجيش، أتوا مهرولين راكضين، يلهثون، تبدو سيقانهم الهزيلة كنتوءات داخل بنطلوناتهم القصيرة الواسعة الفضفاضة على نحو يبعث على الضحك.. كيف لهؤلاء أن يدافعوا عن الهند ضد الصينيين المتواجدين فى الجبال القريبة؟

راجت شائعة مصدرها العاملون بمطابخ الجيش تقول أن هناك تزايدًا كبيرًا فى أعداد النباتيين داخل الجيش، وقد التقت لولا بعض هؤلاء من صغار الضباط، ولم يكونوا فقط من النباتيين، وإنما كانوا أيضًا لا يحتسون أيًا من الكحوليات.. قالت لولا: "أعتقد أن وجود شخص ما بالجيش يتطلب منه أن يتناول السمك على الأقل".. سألت ساى: "لماذا؟".. أوضحت لولا: "لكى يمكنك قتل إنسان فى معركة حربية يتعين عليك أن تكون ممن يأكلون اللحم وإلا ستكون أنت القتيل.. فقط انظرى إلى الغزال والبقرة وأنت ستتأكدين من صدق كلامى.. ومع ذلك فإن الإنسان ليس إلا حيوانًا على نحو ما، ولكى ينتصر

هذا الإنسان الحيوان فى معركة فعليه أن يتذوق طعم الدم".. فى ذلك الوقت كان الجيش الهندى بصدد التخلى عن كونه جيشًا على النموذج البريطانى ليصبح جيشًا هنديًا حقيقيًا.

توقفت السيارة الجيب عند راهبين شابين يعبران بوابات قصر تم شراؤه مؤخرًا بناءً على رغبتهما. قالت لولا: "أموال هوليوود".. كان يا ما كان، رهبان اعتادوا إظهار امتنانهم للهنود وللهند الدولة الوحيدة التى تستقبلهم!، والآن يحتقروننا بينما هم ينتظرون الأمريكيين لكى يأخذونهم إلى ديزنى لاند.. إنها فرصة ثمينة. قال العم بوتى: "يا إلهى.. إنهم بارعون جدًا.. من يريدهم أن يغادروا؟".. وتذكر أول مرة أظهر هو والأب بووتى إعجابهما بأحد الرهبان فى السوق.

تابعت لولا حديثها: "كلنا نقول مساكين هؤلاء التبت.. لقد نجا دالاى لاما بشق الأنفس، ويتعين عليه أن يدرك كم هو سعيد الحظ لوجوده فى الهند، فجوها أفضل وطعامها كذلك". سألت نونى: "لكن من الضرورى أن يكون نباتيًا، أليس كذلك؟". قالت لولا: "هؤلاء الرهبان ليسوا نباتيين.. أين هذه الخضراوات الطازجة التى تنمو فى التبت؟.. بوذا كان يتناول لحم الخنزير". مستغربًا قال العم بوتى: "هذا لا يصدق.. أفراد الجيش نباتيون والرهبان يلتهمون اللحم".

بينما السيارة الجيب تسرع فى اتجاه أشجار "سال"، كان صوت "كيرى تى كاناوا" الصادر عن جهاز

التسجيل يرفرف محلقًا حول الوادى والقمم الخمس لجبال كانشينجونجا. قالت لولا: "سأحصل منك قريبًا على تسجيل لمغنية الأوبرا "ماريا كالاس" (١) التى أحبها مثلما أحب كاروزو (٢) وبافاروتى" (٣).

على مدار ساعة من الزمن، تابعت السيارة سيرها فى اتجاه المنحدرات المؤدية إلى منطقة استوائية رطبة كثيفة الأشجار تطل على النهر، وتنتشر فيها الفراشات والخنافس وأعداد من حشرة اليعسوب.. أشارت ساى إلى المنزل المخصص لاستراحة المسئولين الحكوميين الذى يطل على منحدر رملى يصب فى النهر وفى الحشائش المنبسطة التى تطل على تيستا وناسها الذين فقدوا صبرهم.

من جديد بدأت السيارة تقطع الطريق الصاعد وسط أشجار الصنوبر والسماء التى تسقط مطرًا خفيفًا.. قال الأب بووتى وهو يشير إلى براعم نباتات طالعة تحت ضوء الشمس: "مطر وأشعة الشمس، أمر يبعث على السرور فى التبت".

حتى تتمكن الحكومة من مقابلة احتياجات الزيادة السكانية المتسارعة للمسكن، وافقت على

---

(١) «ماريا كالاس» أشهر مغنية أوبرا (١٩٢٣ ـ ١٩٧٧) سوبرانو فى القرن العشرين، أمريكية من جذور يونانية.

(٢) «كاروزو» (١٨٧٣ ـ ١٩٢١) إن يكوكا كاروزو واحد من أعظم مغنيى الأوبرا الإيطاليين ـ من طبقة التينور.

(٣) بافاروتي لوتشانو بافاروتى (١٩٣٥ ـ ٢٠٠٧) من أشهر مغنيى الأوبرا الإيطاليين من طبقة التيوور وقد لقب بأسطورة الأوبرا في القرن العشرين.

تشريع يسمح لكل صاحب منزل فى دارجيلينج ببناء طابق جديد فوقه، وتسبب ذلك فى زيادة الحمل الخراسانى على الأرض، الأمر الذى نجم عنه انزلاقات فى التربة أكثر مما كان فى الماضى. قالت لولا فى حسرة: "حقيقة، لقد ساءت أوضاع دارجيلينج إلى حد كبير.. هل تذكرون ما كانت عليه من جمال؟".

أوقفوا محرك السيارة خلف السوق فى مكان تلوثه مياه الصرف الصحى، وعند ترجلهم منها وجدوا أنفسهم بين أبقار تلتهم قشور ثمار الفاكهة، وسائل كريه الرائحة يصب فى الشارع الرئيسى المزدحم بالسوق.. وإلى جانب الضوضاء والفوضى من حولهم كانت هناك قرود تتقافز فوق أسطح من الصفيح محدثة جلبة صاخبة. وبينما كانت لولا تهم بإطلاق ملاحظة أخرى حول سوء أحوال دارجيلينج، انقشعت السحب فجأة، ولاحت فى الأفق على نحو يثير الإعجاب قمم جبال كانشينجونجا التى ترتفع عاليًا فى السماء بنحو ٢٨,١٦٨ قدمًا، وأمكن رؤية قمة جبل إيفرست.. عندئذ أطلقت سائحة صيحة إعجاب ودهشة وكأنها قد وقع بصرها على أحد نجوم أغانى البوب.

غادرهم العم بوتى الذى لم يأت إلى دارجيلينج حبًا فى الكتب، وإنما لكى يحصل على مزيد من زجاجات شراب الكحول تكفيه طوال فترة القلاقل، وحتى يطمئن إلى أن ما فى حوزته من شراب الكحول

يكفى فترة حظر التجول التى سيصاحبها نقص فى واردات الشراب بسبب الإضرابات وحواجز الطرق. قالت لولا: "إنه لا يحب القراءة". صححت ساى: "إنه يحب قراءة مجلات الكارتون الهزلية". كانت لولا ونونى تحتملان العم بوتى وتصبرن عل تصرفاته لأنه درس اللغات فى جامعة أكسفورد البريطانية، ولأنه أيضًا ينتمى إلى عائلة معروفة، وأمه "ماتر" كانت فى شبابها ذات جمال ساحر، وكان يطلق عليها اسم نوع من المانجو "حسينة". "كانت امرأة متحررة"، قالت لولا ما سمعته من امرأة نقلاً عن امرأة أخرى كانت تترك السارى ينزلق عن كتفيها وعن قميص قصير فضفاض يظهر أكثر مما يخفى. بعد أن عاشت حياة اللهو والعبث تزوجت "حسينة" من دبلوماسى اسمه "ألفونسو" (هو أيضًا اسم نوع مميز من فاكهة المانجو)، واحتفالاً بزواجهما اشترى ألفونسو وحسينة حصانى سباق، جنكيزخان وتامرلين، اللذين تصدرت صورتهما مرة الصفحة الأولى من صحيفة "تايمز أوف انديا"، وعندما صادفهما سوء الحظ فى حياتهما قاما ببيع حصانى السباق ومنزل لهما بالقرب من ميدان ماربل آرش فى لندن، وعادا إلى الهند، بعد أن روضا نفسيهما على قبول الأمر الواقع الذى لم يقبل به ابنهما.

كانت مكتبة جيمخانا عبارة عن حجرة خافتة الضوء تغمرها رائحة مسك طيبة ونفاذة صادرة عن الكتب التى يصعب قراءة عناوينها الباهتة اللون، والتى

بعضها لم يلمسها أحد طوال خمسين عامًا، وعند الإمساك بها باليد تتفرق ملازمها مع تساقط المادة اللاصقة المتحللة التى تلصق الأوراق بالغلاف، وتتحول صفحاتها الصفراء المتربة والحاملة للعثة إلى قطع صغيرة بين الأصابع. وفى موضع آخر من الحجرة توجد نسخ من صحيفة "ذا هيمالاين تايمز" الأسبوعية باللغة الإنجليزية وتوزع فى كل من التبت، بوتان، سيكيم، وحدائق دارجيلينج ودوارز، وصحيفة "ذا إيلا ستريتيد" الأسبوعية التى نشرت مرة فى أحد أعدادها قصيدة فى بقرة كتبها الأب بووتى. وبالمكتبة أيضًا صحف ذا فار بافيليونز، وذا راج كوارتيت.

لولا ونونى وساى والأب بووتى، أجمعوا على أنهم لا يحبون الكتاب الإنجليز عندما يكتبون عن الهند، لأنهم يضمنون كتاباتهم التى تدور حول المعابد والثعابين قصص حب وغرام رومانسى لا تخلو من سفك دماء وعمليات إجهاض، وتخلو بالطبع من الصدق. وعلى العكس من ذلك حين يكتب الكتاب الإنجليز عن إنجلترا، مثل بى. جى. وودهاوس، وأجاثا كريستى، فإن قراءة رواياتهم تشعرك وكأنك تشاهد تلك الأفلام فى قاعة مكيفة الهواء بالمجلس البريطانى فى كلكتا، تلك القاعة التى كانت لولا ونونى تذهبان إليها فى سنوات شبابهما.

أثناء تصفحها كتب المكتبة، وجدت ساى كتبًا لا نهاية لها عن السفر إلى الهند، وكتابًا بعنوان "قبيلتى الغائبة"، وآخر "دليل الهندى المهذب إلى آداب السلوك"

للكاتب اتش. هارولس، الذى يقول: "الهندى المهذب شديد الاحترام لنفسه، يتعين عليه ألا يدخل إلى مقصورة فى قطار محجوزة للأوروبيين، وألا يدخل أيضًا إلى عربة مخصصة للسيدات. وإذا كنت قد اكتسبت عادات وسلوكيات الأوروبيين، فعليك أن تكون شجاعًا وتبين أنك لا تخجل من كونك هنديًا، وفى كل الحالات، عرف نفسك بالسلالة التى تنتمى إليها".

غضب عارم داهم ساى.. هل كان من الحمق أن تقرأ فى الكتب القديمة؟.. هذا الغضب الذى أشعلته تلك الكلمات لم يكن قديمًا بل هو جديد.. أسرّت إلى نفسها بالقول أنه لا يجب أن نلوم الطفل على جريمة ارتكبها والده.. لكن هل يجب على الطفل أيضًا أن يستمتع بما اكتسبه الأب من أشياء محرمة غير مشروعة؟

رغبت ساى فى أن تسترق السمع إلى صوت نونى لأمينة المكتبة حول رواية "الجريمة والعقاب" للكاتب دستوفيسكى: "نصف شعور الروع والرهبة الذى داخلنى كان سببه القراءة، لكن النصف الآخر يرجع إلى ما غمرنى من حيرة وارتباك شديدين إزاء الأفكار المسيحية حول الاعتراف والتسامح، التى تلقى بعبء الجريمة على كاهل الضحية!.. إذا كان لا شئ يمكنه أن يغوى بارتكاب الإثم، فلماذا يتعين على الخطيئة أن ترتكب؟"

"تستطيع أن تتصرف على نحو سيئ وتقول أنك آسف.. يمكنك آن تلهو وتعبث كثيرًا وفى النهاية

تتساوى مع الذى لم يلهو ولم يعبث.. هل هناك نظام يعانى اللاهى والعابث فيه مرتين، الأولى أثناء لهوه وعبثه، والثانية طلبه المغفرة؟.. بالطبع يمكن للمرء أن يشعر بحرية أكثر ويطلق العنان لنفسه لكى يرتكب الخطيئة إذا كان مدركًا لوجود شبكة أمان تعمل على إنقاذه، مثل: آسف.. أنا آسف جدًا".

قالت أمينة المكتبة، شقيقة زوجة الطبيب الذى يذهبون إليه جميعهم فى كاليمبونج: "نحن الهندوس لدينا نظام أفضل، فأنت فيه تحصل على ما تستحق، ولا يمكنك أن تهرب من أفعالك وأعمالك، وإلهنا على الأقل يشبه آلهة مثل راجارانى ولا يشبه بوذا أو المسيح". قالت نونى: "ولكن نحن أيضًا نستعمل الحيلة والمكر". أضافت ساى: "الأسوأ من كل ذلك، أولئك الذين يعتقدون أن الفقير يتعين عليه ألا يجد ما يسد رمقه لأن ما هو عليه نتيجة ما اقترفه من آثام فى حياته السابقة".

حقيقة هذه الحياة، أن الإنسان فيها ترك خالى الوفاض فارغ اليدين، وأنه لا وجود لنظام يلطف من وقع الخيانة ومن أثر الجرم، وأن العدل فى هذا النظام لا يتمتع ببعد النظر، إذ ربما يقوم بتجريم سارق الدجاجات، فى الوقت الذى يبرئ فيه مرتكبى جرائم كبيرة ملتبسة وغامضة لأنه إذا تم تحديد الجانى ووقع فى الشرك، سينهار النظام كله وتسقط أعمدته. أما الجرائم الكبرى التى ترتكب بين دولتين وبين شعبين دون توفر شاهد واحد فتمر دون تحديد المذنب الذى كان يتحتم عليه تحمل العقوبة.

للحظة طغت أصوات صادرة من الشارع على حديث نونى التى سألت: "ماذا يقولون؟".. "إنهم يصيحون بكلمات باللغة النيبالية".

بعد انتهاء العم بوتى من وضع زجاجات الروم التى حصل عليها فى العربة الجيب، ذهبوا إلى قاعة الطعام التى بدت مهجورة، وخرج المدير إليهم من مكتبه وقال: "أنا آسف يا سيدات.. لقد اضطررنا إلى إغلاق صالة الطعام لأسباب تتعلق بالسيولة المالية".. وبينما كان يلوح بيده إلى بعض الأجانب، قال: "هل أنتم ذاهبون فى جولة لمشاهدة المدينة؟.. فيما مضى كان يأتى إلى دارجيلينج مهراجات من أماكن عدة بالهند، أما الآن يأتى إلينا أعداد قليلة من السائحين الذين يحصلون على وجبة طعام عشاء فاخرة نظير أربعة دولارات ونصف فقط، وسوف تتسبب الاضطرابات والقلاقل فى امتناع هؤلاء أيضًا عن القدوم إلى هنا".

## ـ ٣٢ ـ

فى أحد أركان صالة طعام "جيمخانا"، حيث تعلق قرون الوعول أعلى حائط تنتشر فيه حشرة العثة يحوم شبح القاضى وصديقه الوحيد "بوز"، ويتردد صدى حديثهما فى آخر لقاء جمع بينهما معًا، بعد أن استقل القاضى سيارته التى خرجت من بوابات "تشوأويو" لآخر مرة، ولم يحدث أن رأى أحدهما الآخر بعد هذا اللقاء الذى جرى قبل ثلاثة وثلاثين عامًا.

أمسك "بوز" كأسه ورفعه إلى أعلى قائلاً للقاضى: "نخب الأيام الخوالى"، واحتسى شراب "تاليسكار"، الذى جاء به لاحتسائه سويًا، باعتباره صاحب اقتراح اللقاء الذى جاء قبل شهر من قدوم "ساى" إلى "كاليمبونج"، وذلك عندما كتب إلى القاضى يعلمه بمكان إقامته فى جيمخانا". لماذا قبل القاضى الفكرة وذهب للقاء "بوز"؟ هل بسبب الفضول؟ هل بسبب بعض ذكرياته التى استعصت على النسيان؟ أسرّ القاضى إلى نفسه أنه ذهب إلى هناك لأنه لو لم

يذهب إلى "جيمخانا" فسوف يأتى هو إليه فى "تشوأويو".

"يتعين عليك أن تقول إننا نملك أفضل جبال فى العالم" ـ قال "بوز" ـ هل سبق لك أن تسلقت جبل "ساندك فو"؟ قام "ميكى" بذلك، أتذكر ذلك الأحمق؟ أتذكر "ديكى" بمعطفه الصوفى الخشن والبايب الأحمر الفاتح فى فمه مثل لورد إنجليزى؟ أتذكر "سابرمانيم" القصيرة البدينة؟.. طردت زوجها من المنزل بعد أن استولت على أمواله على إثر معرفتها بعلاقته الغرامية مع السكرتيرة الإنجليزية التى هجرته إلى آخر بمجرد أن فرغ ما لديه من مال؟".. ألقى "بوز" برأسه إلى أعلى ضاحكًا، فسقط من فمه طاقم أسنانه الصناعية، وسريعًا أتى به وأودعه مكانه.. "أتذكر كيف اصطحبتك لكى أشترى المعطف فى لندن؟.. أتذكر ذلك المعطف المريع الذى كنت ترتديه ويجعلك أشبه بأحد سعاة المكاتب، ها.. ها".

شعور بالضغينة امتلأ به قلب القاضى.. كيف واتت هذا الرجل تلك الجرأة!.. هل قطع كل هذه المسافة لكى يرفع من معنويات "بوز" على حسابه هو، ولكى يعلى "بوز" من مكانته فى الماضى ليضفى على نفسه احترامًا فى الوقت الحاضر؟. بحث القاضى عن النادل لكى يطلب العشاء وينتهيا منه سريعًا، فكلبته "مات" فى انتظاره إلى جوار النافذة وعيناها ترقبان البوابة، وذيلها قد التف بين قدميها، وجسدها مشدود، وأسارير وجهها متغضنة. وعند عودته

سيلتقط عصا ويحادثها: "سألقيها، ويمكنك التقاطها"، وعندئذ ستشرع فى القفز.

حاول ألا يلقى بالاً لما يقول، لكن "بوز" كان يزيد من درجة عدوانيته. يعلم القاضى أن "بوز" كان من بين رجال القضاء الذين أقاموا دعوى قضائية بغرض مساواتهم مع رجال القضاء البيض فى معاش التقاعد، لكن الخسارة كانت من نصيبهم، ومنذ ذلك الوقت انزوى "بوز" فى الظل، وبدأ يكتب على آلته الكاتبة "أوليفيتى" رسالة بعد أخرى ويبعث بها إلى القاضى، الذى رفض بسبب تشاؤمه وشكه فى جدوى أى شىء، أن ينضم إليهم، والذى كان يسخر من سذاجة "بوز" التى أورثها لابنه الذى خسر أيضًا دعوى قضائية أقامها ضد شركة "شيل أويل" التى كان يعمل بها برغم اعتقاده بتغير الزمن وأنظمة الحكم المختلفة.

"بنقود قليلة يمكنك العيش فى الهند".. لكن ماذا لو أنك أردت أن تقضى أجازة فى فرنسا؟ وتشترى زجاجة شراب من السوق الحرة بالمطار؟ وترسل طفلك إلى كلية فى أمريكا؟ من لديه القدرة على ذلك؟ إذا كانت الرواتب متدنية فكيف يمكن للهند ألا تصبح فقيرة؟ كيف يمكن للهنود السفر إلى العالم الخارجى والعيش فيه كما يعيش الناس فى الغرب؟ هذه الفوارق وجدها "بوز" أمورًا لا يمكن احتمالها.

لكن الأرباح يمكن حصدها فقط مع وجود هذه الفوارق بين الدول، التى يأكل الكبير فيها الصغير..

فهذا عالم أول يلعن العالم الثالث لمجرد كونه عالمًا ثالثًا، ويجبر "بوز" وابنه على أن يظلا فى مرتبة أدنى ولا يمكن تجاوزها.. وحتى بعد أن صدق أنه صديقهم، اكتشف "بوز" كيف أبحرت الحكومة الإنجليزية وموظفوها المدنيون تاركين خلفهم أولئك الهنود المضحكين الذين لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم ممن حطموا أرواحهم نظير أن يتعلموا القليل.

مرة ثانية ذهبوا إلى المحكمة، ومرة ثالثة سوف يذهبون إلى المحكمة بإيمان ثابت لا يهتز فى عدالة النظام، ومرة ثانية خسروا دعواهم، ومرة ثالثة سوف يخسرون الدعوى التالية.. ومرة بعد أخرى، ودائمًا، يجد الرجل ـ الذى يضع على رأسه الشعر الأبيض المجعد المستعار، ويغطى مسحوق التجميل وجهه الداكن، ويمسك بمطرقة فى مجلسه بالمنصة ـ نفسه ضد أولئك الأبرياء السذج الذين لا يدركون أنهم لا يزالون فى عالم إمبريالى.

لا شك أنهما ضحكا كثيرًا فى إنجلترا، لكن فى الهند أيضًا كان كل شخص يضحك كثيرًا عند رؤيته لأناس مخدوعين مثل "بوز"، اعتقدوا أنهم أرفع مقامًا ومنزلة، لكنهم كانوا فى الحقيقة مثل الباقين، كان كلما أغلق القاضى فمه وامتنع عن الكلام، كلما بدا "بوز" مصممًا على أن يوجه دفة الحديث كيفما شاء إلى أن دخلا فى مشاحنة أنهاها القاضى بسؤاله "بوز": "ألا يجدر بنا أن نطلب طعام العشاء؟".

لكن سرعان ما انتقل "بوز" إلى حالة وجد نفسه فيها يتساءل: هل يتعين عليه أن يلعن القاضى أم أن يبحث فيه عن أشياء يقبلها العقل؟ لعب الشراب برأسه وترقرقت عيناه بالدموع.. "أولاد حرام".. قال بصوت عال وكأنه يحاول إقناع نفسه بما يريد قوله: "يذهبون بعد أن يحصلوا على كل شىء.. أليس كذلك؟.. هؤلاء البيض الملاعين.. إنهم سبب كل جرائم القرن!.. حالفنا الحظ فى شىء واحد فقط، هو أنهم لم يمكثوا هنا.. شكرًا لله، أخيرًا غادروا، على عكس إفريقيا التى مازالوا يثيرون القلاقل فيها.. لكن مع ذلك فإن مغادرتهم لنا لا تعنى الكثير، فيمكنهم القيام بأعمالهم القذرة وهم فى البعيد.. حسنًا، أعتقد أنهم ليسوا كلهم أناسًا سيئين.. ليسوا كلهم".

بالرغم من ملازمته الصمت، انفجر القاضى: "نعم! نعم!.. كانوا سيئين، وكنا جزءًا من المشكلة، كما يمكنك القول يا "بوز" على وجه الدقة بأننا كنا جزءًا من الحل.. و.. أيها النادل!.. أيها النادل".. صاح القاضى فى يأس وقنوط.. ومن جانبه قال "بوز" فى وهن: "من المحتمل أن يكون قد غادر ليطارد الدجاج.. أنا لا أعتقد أنهم كانوا يتوقعون حضور أحد". سار القاضى فى اتجاه المطبخ، وقال له موظف الاستقبال وهو نصف نائم: "لا أحد هنا.. الوقت متأخر جدًا، سيدى، اذهب إلى مطعم "جلينيريز" المجاور فلديهم مطعم كبير وبار". صاح القاضى: "نحن جئنا إلى هنا من أجل تناول طعام العشاء.. هل يتعين علىّ أن

أشكوك إلى المدير؟.. ماذا لديك؟" أجاب النادل: "لحم الضأن بالكارى والخضراوات".

بينما كان النادل يضع أطباق الطعام على المائدة، واصل "بوز" الكلام: "بعد أن غادرنى الطباخ "شيرو"، الذى أمضى معى ثلاثين عامًا، وجدت آخر، لكنه غير مدرب جيدًا ويحصل على أجر أقل بسبب ذلك.. أبحث عن كتب الطبخ وأقرأ وصفاتها بصوت عال، وهو يقوم بكتابتها باللغة البنغالية.. قلت له أن يهتم بتعلم الأساسيات مثل الصلصة البنية والبيضاء اللازمتين للسمك ولحم الضأن".

بعد لحظة صمت، قال "بوز" فى نبرة اعتذار للقاضى: "نحن أصدقاء، ألسنا كذلك؟ألسنا أصدقاء؟.. أجاب القاضى وقد اعتراه شعور بالحرج والخوف المرضى من المكان الضيق المغلق: "الزمن يمضى والأشياء تتغير.. أى شىء فى الماضى ظل على حاله ولم يتغير؟.. الحاضر يغير الماضى.. إذا نظرت خلفك لن تجد ما تركته وراءك، "بوز"". وأيقن القاضى فى قرارة نفسه أنه لن يتصل به ثانية. تصافح "بوز" والقاضى فى فتور، وسرعان ما أدخل القاضى يديه فى جيبى بنطلونه.. "ليلة سعيدة.. وداعًا".. تبادلا التحية بالإنجليزية وليس بالهندية.

عند مغادرته "دارجيلينج"، قاد القاضى سيارته ببطء بسبب الضباب الكثيف الذى يعيق الرؤية أمامه وعلى جانبى الطريق الخالى من السيارات، والذى تنتشر فيهما مزارع الشاى، وعندئذ انفتح صندوق تذكاراته اللعينة: ستة صبيان فى موقف الحافلة.. لماذا

الرجل الصينى أصفر البشرة؟.. لأنه يبول ووجهه للحائط.. ها..ها.. لماذا بشرة الهندى بنية؟.. إنه يتبرز وهو مقلوب رأسًا على عقب.. ها..ها".. تلقى السخريات، وألقوا عليه قطعًا من الطوب والحجارة.. تحرشوا به وهم يرتدون أقنعة تصور وجوه قرود.. كم كان من الغريب أن يستشعر الخوف من صبية صغار فى نصف حجمه.

تذكر حادثة أكثر سوءًا.. صبى هندى لا يعرفه، لكن بغير شك يشبهه ويشبه "بوز".. كانوا يضربونه ويركلونه بالأقدام خلف بار عند المنعطف.. أحد الصبية المهاجمين قام بفتح سوستة بنطلونه وبال عليه وسط زحام الرجال ذوى الوجوه الحمراء الساخرة. فى تلك الأثناء كان قاضى المستقبل يسير على قدميه بالقرب من المكان فى طريق عودته إلى المنزل ومعه فطيرة محشوة بلحم الخنزير للعشاء.. ماذا فعل؟.. لم يقل شيئًا.. لم يفعل شيئًا.. لم يصرخ طلبًا للمساعدة.. فقط استدار وهرب.. وركض فى اتجاه حجرته المستأجرة وجلس هناك.

بالقرب من المنزل، لاحظ وجود سيارة جيب تابعة للجيش واقفة إلى جانب الطريق وأنوارها مطفأة.. كان الطباخ واثنان من الجنود يخفون صناديق المشروبات الروحية داخل منطقة شجيرات كثيفة الأغصان.. أطلق القاضى سيلاً من السباب وتابع قيادته للسيارة. كان يعلم بممارسة الطباخ لهذا العمل وتجاهل ذلك تمامًا، بعد أن تغير كل شىء فى تلك

العلاقة التى تدخل فى إطار نظام يخضع فيه العبد والسيد لنوع خادع من السرية.

عند رؤية "مات" فى انتظاره عند البوابة، لانت ملامح وجهه، وأطلق بوق السيارة مشيرًا إلى وصوله، وفى أقل من الثانية تحولت "مات" من أكثر الكلاب تعاسة فى العالم إلى أكثرها سعادة، وتهلل وجه جيموباى وفاض بالسرور، فتح الطباخ البوابة وقفزت "مات" إلى المقعد إلى جواره، وقادا السيارة معًا من البوابة حتى الجاراج.

استقر فى ذهن القاضى أن "ساى" يمكنها الاعتناء بالكلبة "مات". بعد أن ظهرت على الطباخ آثار الشيخوخة، وأنه من المفيد أن يكون بالمنزل شخص يقدم المساعدة دون أن يحصل على راتب نظير ذلك، وعند وصول "ساى" إلى "تشوأويو" شعر بالقلق من أن تثير فيه مشاعر الكراهية الساكنة فى طبيعته، الشىء الذى قد يجعله يرغب فى التخلص منها أو أن يعاملها كما عامل أمها وجدتها. لكن ثبت فى النهاية أن "ساى" كانت أكبر من مجرد كونها قريبة له بعد أن جمعهما نفس اللهجة وذات الصفات، فهى هندية ذات سمات غربية بتأثير رعاية راهبات إنجليزيات لها، كذلك هى هندية غريبة تعيش فى الهند. هل الرحلة التى كان قد بدأها من فترة طويلة قد انتقلت إلى أسلافه؟. ربما كان قد أخطأ القاضى عندما قطع علاقته بابنته وأصدر عليها الحكم قبل أن يتعرف عليها، لكن حفيدته التى لم يحمل لها ضغينة، ربما كانت المعجزة الوحيدة التى ألقى بها القدر فى طريقه.

## - ٣٣ -

بعد ستة أشهر من الرحلة التى قام بها كل من "ساى" و"لولا" و"نونى" و"العم بوتى" و"الأب بووتى" إلى المكتبة بنادى جيمخانا، سقط النادى فى قبضة الجبهة الوطنية لتحرير جورخا، التى أقامت معسكرًا لأفرادها فى صالة الرقص، وفى حلقة الانزلاق على الجليد. وفى الحجرة الفسيحة ذات المرايا المخصصة للسيدات لكى يصلحن زينتهن، استقر عدد من الرجال بصحبة بنادقهم مستمتعين بالنظر إلى أنفسهم ربما لأول مرة من قمة الرأس إلى أخمص القدم. وامتلأت قاعة الطعام برجال يرتدون ملابس عسكرية باللون الكاكى يتنافسون فى احتساء شراب الويسكى وغيره من المشروبات الكحولية حتى أتوا على كل ما فى البار.

فى وقت لاحق ثبت بالدليل القاطع أن الجبهة قامت بتخزين البنادق والتخطيط لمهاجمة الكبارى ومزارع الشاى التى هجرها مدراؤها، والتى تنتشر

على جبال "سينجاليلا"، التى تلتف حول "جيمخانا" من الوادى السعيد إلى "ماكيبارى" و"شونجلو" وحتى "بيرشوك"، وعندما وقعت الحركة على معاهدة سلام غادرت نادى جيمخانا وسلمت أسلحتها التى اصطفت فوق طاولات قاعة الطعام. وفى ٢ أكتوبر ١٩٨٨ الموافق يوم "غاندى جايانتى"، قام نحو سبعة آلاف رجل بتسليم الآلاف من البنادق والمسدسات والذخائر والألغام، وكان من بينها بندقية القاضى ومسدسه من نوع "سيرنجفيل" اللذين أخذا منه فى السطو الذى تعرض له "تشوأويو" ذات يوم فى فترة بعد الظهر.

عند خروج "ساى" و"لولا" و"نونى" و"العم بوتى" و"الأب بووتى" من مطعم "جليناريز" فى المرة الثانية التى جاءوا فيها إلى دارجيلينج، شاهدوا واستمعوا إلى الشىء نفسه الذى شاهدوه واستمعوا إليه من قبل عند زيارتهم لمكتبة نادى "جيمخانا".. "أرض جورخا لشعبها".. تراجعوا للخلف حتى يفسحوا للمتظاهرين.. من ذلك الذى داس بقدمه على أصابع قدم "ساى"؟.. جيان!!.. مرتديًا الجاكت الأحمر بلون الطماطم يهتف بقوة وبأعلى الصوت بطريقة تجعل من الصعب التعرف عليه.

ما الذى يفعله "جيان" فى "دارجيلينج"؟!.. هل يطالب باستقلال الهنود النيباليين؟.. فتحت "ساى" فمها لكى تنادى عليه، وفى اللحظة ذاتها لمحها "جيان" وقد ارتسم الفزع على ملامح وجهه، وبدت نظرة تحذيرية باردة فى عينيه. أغلقت "ساى" فمها مثل

سمكة، والدهشة تغمرها، وتابع "جيان" سيره. أليس هذا معلم الرياضيات؟" سألت "نونى". فى اعتداد بالنفس، أجابت "ساى": "لا أعتقد ذلك.. فقط فيه شبه منه".

فى الطريق المنحدر إلى "تيستا"، لاحظوا شحوب وجه ساى. "هل أنت على ما يرام؟" سأل "الأب بووتى". "لا شىء، إرهاق السفر". أغلقت عينيها على أعلى قمة جبال هيمالايا التى تطل على المشهد الساكن بغير حراك، لكن ما يحتدم بعقل "ساى" لم يمكنها من التعرف على ما تراه عيناها. وأخيرًا ارتفع سائل حارق إلى حلقها وأسنانها. قالت لولا: "أوقف السيارة.. أوقف السيارة.. دعوها تترجل منها". بدأت "ساى" التقيؤ على الحشائش إلى جانب الطريق، وصبت لها "نونى" كوبًا من الماء المثلج من إناء الترموس، احتسته "ساى" ثم أسندت جسدها على صخرة تحت ضوء شمس تيستا الجميلة.. "تنفسى بعمق يا عزيزتى، ذلك الطعام الذى تناولناه كثير الدسم، وربما كان السبب قذارة المطبخ.. كان يتعين علينا أن نأخذ حذرنا بعد مشاهدتنا للنادل".

عند الطرف الآخر للكوبرى، كان أفراد نقطة تفتيش يقومون بالتحقق من هوية قائدى العربات، وزيادة فى الحذر فى هذا الوقت المشحون بالقلاقل، قاموا بفتح حقائب كل شخص، وفى إحدى الحافلات تركوا ما فيها رأسًا على عقب فى الوقت الذى كان المسافرون ينتظرون داخل الحافلة فى غير حراك

ووجوههم مستندة إلى زجاج النوافذ، ومئات من أزواج العيون تطل منها نظرات نصف ميتة مثل قطيع حيوانات فى طريقها إلى الموت. كانت الرحلة شديدة الإجهاد بالنسبة لهم، لكن أرواحهم كانت خامدة بالفعل. وكان نثار القىء قد انتشر على جانبى الحافلة التى يقف خلفها صف طويل من العربيات المنتظرة نفس المعاملة، والتى يحول دون تحركها عمود معدنى طويل بعرض الطريق.

أشعة شمس بعد الظهر تسقط ثقيلة وذهبية على الأشجار، والضوء الساطع والظلال يقتسمان المرئيات، وكان ظل أسود كما سواد الليل يقبع هاجعًا بين الحشائش والصخور والحافلة، كان الطقس حارًا فى الوادى، لكن النهر الذى تلمس "ساى" مياهه بيديها كان شديد البرودة إلى درجة تبعث الخدر فى العروق.

"خذى وقتك، "ساى"، فانتظارنا سيطول على أية حال"، قال "الأب بووتى"، وترجل من الحافلة، وراح يسير جيئة وذهابًا، ويحرك ذراعيه وساقيه، وأطلق صيحة إعجاب عند وقوع نظره على فراشة رائعة من تلك الفراشات التى اشتهر بها وادى "تيستا"، والتى يأتى دارسون متخصصون من كل أنحاء العالم لرسمها فى لوحات ودراسة أنواعها النادرة. هنا فى وادى "تيستا"، وأمام أعينهم أندر وأجمل المخلوقات المصورة فى مجلد بالمكتبات بعنوان "فراشات شمال شرق هيمالايا الرائعة".

في صيف العام الثانى عشر من عمرها، كانت "ساى" تطلق أسماءً على الفراشات وتسجلها مصحوبة برسومات لها فى كتاب بعنوان "مجموعتى من الفراشات"، مثل فراشة القناع اليابانى، فراشة الجبل البعيد، الفراشة إيكاروس، الفراشة التى يطلق سراحها صوت آلة الناى، وفراشة مهرجان الطائرات الورقية.

قال "الأب بووتى": "مذهلة، انظرى إلى هذه، طاووس أزرق بذيول طويلة مثلثية الشكل من الزمرد الأخضر.. يا إلهى.. وهذه الأخرى، سوداء بنقاط بيضاء، ولون قرنفلى فى وسطها.. "بوتى"، أعطنى كاميرتى". عبر النافذة مد العم "بوتى" يده بالكاميرا، وبينما كانت فراشة تقف على أحد كابلات الكوبرى، صوب "الأب بووتى" عدسة الكاميرا فى اتجاهها والتقط لها صورة.. "يا للأسف، لقد اهتزت يدى، ربما تطلع الصورة معتمة". كان على وشك إجراء المحاولة مرة ثانية عندما بدأ الجنود فى الصياح، وقدم أحدهم مسرعًا: "ممنوع التصوير قطعيًا على الكوبرى، ألا تعلم؟". نعم، يعلم "الأب بووتى". لكنه نسى فى غمرة إعجابه بالفراشة. "أنا آسف أيها الضابط". يعلم "الأب بووتى" أنه كوبرى شديد الأهمية، لأنه يصل الهند بالشمال، ويقع على الحدود التى ربما يتعين عليهم أن يحاربوا عندها الصين مرة أخرى فى يوم ما، والآن هناك بالطبع متمردو "جورخا" أيضًا.

صادروا الكاميرا وبدأوا فى تفتيش العربة الجيب، وقال الجنود: "يتعين علينا أن نأخذ هذه الكتب إلى مركز الشرطة. قالت "نونى" فى محاولة لإقناعهم: "لماذا؟.. من فضلك يا سيدى.. ماذا نقرأ إذن طوال ساعات حظر التجول؟". أضاف "الأب بووتى": " عليك فقط أن تنظر إلينا أيها الضابط، لتعلم أنه لا جدوى من أن تضيع وقتك معنا، كثيرون غيرنا يستحقون منكم ذلك". لكن الضابط والجنود لم يظهروا أى تعاطف مع محبى القراءة. عندئذ بدأت "لولا" فى الصياح: "كل شخص يعلم بتواطئكم مع اللصوص، سأذهب إلى رئيسك بالجيش وأخبره أنكم تستأسدون علينا، ولن أرشيكم إذا كان ذلك هدفكم، ودعونا نرحل". قال رجل الشرطة موجهًا حديثه إلى "لولا": "اهدئى مدام، إذا لم يكن هناك شىء فى الكتب فسنعيدها إليكم". وقام رجل الشرطة بحمل الكتب والكاميرا إلى رئيسه الجالس إلى المنضدة.

لم تعر "ساى" اهتمامًا بما يجرى، فقد كانت لا تزال تفكر فى تجاهل "جيان" لها، ولم تهتم كثيرًا بمصادرة الكتب. لماذا كان هناك؟.. لماذا تجاهلها؟.. كان يقول لها: "أنا لا أستطيع مقاومتك، وعلى دائمًا أن أعود إليك".

فى المنزل كان الطباخ فى الانتظار، لكنها ذهبت إلى الفراش دون أن تتناول عشاءها، وهو ما ضايقه كثيرًا، وجعله يعتقد أنها تناولت طعامًا فاخرًا فى مطعم، وأنها تحتقر ما يقدمه لها من طعام. مراعاة

لشعوره، كانت "ساى" دائمًا عند رجوعها إلى المنزل تشكو إليه من رداءة الطعام الذى تناولته بالخارج: "التوابل لم تكن مسحوقة جيدًا وكادت سنتى تتكسر، واللحم كان نيئًا واضطررت لابتلاعه بدون مضغ بمساعدة أكواب الماء". وكان يضحك "ها ها، نعم، لا أحد يأخذ وقتًا كافيًا فى تنظيف وطهى اللحم وسحق التوابل". وفجأة تبدو الجدية على ملامحه ويشير بأصبعه فى الهواء متعجبًا ومؤكدًا قوله مثلما يفعل رجل السياسة "ولهذا يحصلون على الكثير من النقود!"، ويهز رأسه بحكمة من يعرف شرور العالم. أما الآن وقد تعكر مزاجه فقد تعامل مع الأطباق بعنف محدثًا صوتًا مدويًا.

"ما الذى يجرى" صاح القاضى فى نبرة تقريرية وليس فى صيغة سؤال. قال الطباخ: "لا شىء، ماذا يمكن أن يجرى؟ ذهبت "ساى" إلى الفراش بعد أن تناولت الطعام فى الفندق.

- ٣٤ -

انقضى أسبوع على الرحلة التى قاموا بها إلى المكتبة، وعادت الكتب بعد أن ثبت عدم احتوائها على ما يكدر الأمن، لكن السلطات الأمنية لم يكن لها نفس الرأى فيما يتصل بالصورة الفوتوغرافية للفراشة، التى أظهرت إلى جانب أجنحتها السوداء والبيضاء والقرنفلية، الكوبرى الموصل إلى "تيستا" وموقع الحراسة عليه، والتى ركزت على حد قولهم ليس على الفراشة ولكن على الكوبرى.

"كنت فى عجلة من أمرى، والتقطت الصورة دون تركيز، وبينما كنت أعيد التقاط الصورة مرة ثانية، انتزعت الكاميرا من يدى".. قال "الأب بووتى" لأفراد الشرطة الذين لم يستمعوا إليه، وفى ذلك المساء قاموا بزيارته فى المنزل وقلبوا كل شىء فيه رأسًا على عقب، وأخذوا معه ساعة المنبه، والراديو، وبعض بطاريات الشحن، ، ومجموعة من المسامير كان قد اشتراها لكى يصلح شيئًا فى سقيفة البقر، وزجاجة

شراب الروم من نوع "بلاك كات" المحظور جاء به من سيكام.

"أوراقك؟".. واكتشف ضابط الشرطة أن "الأب بووتى" يقيم فى الهند إقامة غير شرعية. لم يكن "الأب بووتى" يتوقع أى اتصال بالسلطات، لذا سمح لتصريح إقامته بأن تنقضى مدته دون أن يهتم بتجديده، ربما كراهية منه لبيروقراطية الإدارة، وربما لأنه لم يخطط أبدًا لمغادرة الهند ودخولها مرة أخرى. كان الأب بووتى يعلم أنه أجنبى، لكنه كان يعلم أيضًا أنه أجنبى هندى.

كان عليه أن يغادر "كاليمبونج" فى غضون أسبوعين.. "لكننى عشت هنا خمسة وأربعين عامًا".. وكان الجواب: لا أهمية لذلك، لقد منحت نفسك امتياز الإقامة هنا بغير إذن، ولا يمكننا السماح لك بالاستمرار فى حصولك على هذا الامتياز". أبدى رجل الجوازات شيئًا من العطف، متذكرًا أن ابنه قد تلقى تعليمه على أيدى الجيزويت، وكان يأمل أن يبعث به إلى إنجلترا أو أمريكا أو حتى سويسرا.. "آسف أيها الأب، ففى هذه الأيام لا يمكننى عمل شىء لك، وإلا سأفقد وظيفتى.. فى وقت آخر ربما كنت أستطيع أن أدعك وشأنك، لكن الآن لا أستطيع.. من فضلك. اذهب فى الحال إلى وكالة سفريات سنوترافيل واحجز تذكرتك إلى "سيليجورى".. فكر فى الأمر كأنه أجازة وكن على اتصال بى، وعندما يتغير

الوضع الحالى، تقدم بأوراق بطلب العودة، ولن يكون هناك مشكلة".

سارع "الأب بووتى" إلى لقاء شخص آخر كانت له به معرفة طلبًا للمساعدة، لكن كل الذين كانوا يحبون صحبته والتحدث إليه حول صناعة الألبان وزراعة نبات الفطر وأعواد البامبو، انشغلوا عنه حتى لا يقدمون يد العون له. "لا يمكننا أن نسمح بشىء يهدد أمننا القومى". قال الأب بووتى: "ماذا بشأن منزلى ومصنع الألبان الذى أديره والأبقار؟". "البلاد الأخرى لا تسمح للأجانب بامتلاك العقارات، وأنت تعلم هذا أيها الأب".

مصنع ألبان "الأب بووتى" مسجل منذ وقت طويل باسم "العم بوتى"، الذى قام بتوقيع أوراقه نيابة عن صديقه. فكر "الأب بووتى" أن أى عقار غير مستغل يعد مخاطرة كبيرة فى "كاليمبونج" المعروفة بحساسيتها، وأنه طبقًا للقانون فإن الجيش له الحق فى الاستيلاء على أية أرض شاغرة بعد دفع أقل إيجار، ومن هنا كانت خشية "الأب بووتى" من أن تطرد أبقاره لتحل محلها دبابات الجيش.

بعد يومين استقبل "الأب بووتى" زائرًا آخر، طبيب نيبالى يرغب فى فتح عيادة خاصة، وجاء من تلقاء نفسه، وتوجه إلى البوابة، وألقى نظرة على المنظر المطل على السفوح البعيدة فى "تيستا"، حيث الحياة البرية التى أحبها "الأب بووتى"، حبًا جمًا، كما

فحص الطبيب المنزل الذى بناه "الأب بووتى" وأسماه "نجمة السعادة"، ونقر بأصابعه على حظيرة الأبقار، ثم قدم عرضًا "للأب بووتى" لشراء المنزل والحظيرة ومصنع الألبان. قال "العم بوتى": هذا العرض لا يساوى تكلفة حظيرة الأبقار فقط". قاطعه الطبيب: "سوف لن تحصل على أية عروض أخرى". سأل الأب بووتى: "لماذا لا؟". أنهى الطبيب حديثه بالقول: "لقد رتبت أنا لذلك، ولا خيار لك.. وعليك أن تكون سعيدًا بما أعرضه عليك، فأنت تقيم فى هذه البلاد إقامة غير قانونية، ويتعين عليك أن تبيع أو تخسر كل شىء".

قال صديقه "العم بوتى": "لا تقلق، عندما تنتهى المشكلة، تعود وتحصل على ما تركته وراءك". جلسوا سويًا "الأب بووتى" و"العم بوتى"، وبينما كان ينساب من جهاز التسجيل صوت "ابيدا بارفين" الذى يقول إن الله فى البرية وفى الفضاء الواسع، وإن الحرية هى الشىء الذى يجب أن يرغب فيه. لم يكن "الأب بووتى" مستريحًا لتأكيدات "العم بوتى" لمعرفته أن صديقه مدمن للشراب، ولا يعتمد عليه، فربما وهو فى حالة سكر يمكنه السماح بحدوث أى شىء، كأن يوقع على أية أوراق. لكن الخطأ فى الأصل هو خطأ "الأب بووتى"، فلماذا لم يتقدم بطلب استخراج جواز سفر هندى؟. كان "الأب بووتى" المحبوب قد قدم مساهمات كبيرة فى تنمية التلال لا تدانيها مساهمة أى شخص هندى، ومع ذلك جاء وقت لكى يجد نفسه فى موقف الضحية.

حل المساء فى الوديان، وبدأت تنتشر مع العتمة روائح الهواء الطلق المنعشة المحملة بعبير أوراق الشجر. كان ثلاثتهم قد شربوا شراب "أولد مونك"، وتذكر كل منهم كم من الأمسيات أمضوها فى المكان الذى تعلمت فيه "ساى" كيف أن الموسيقى والشراب والصداقة يمكنهما معًا خلق حياة تتسم بسمو التفكير ورفعة الذوق وحسن التصرف.. فى مثل هذه الأمسيات، كان "العم بوتى" بعد أن يرفع كأس الشراب إلى فمه يقول: "ما أجمل هذه اللحظات أيها الأصدقاء الأعزاء".

هناك فى آوروبا، التى سرعان ما يعود إليها "الأب بووتى"، قاعات كونسير، ودور أوبرا، داخلها تأتلف قلوب روادها على حب الموسيقى، ولكن هل يشعر محبو الموسيقى بمثل هذا الشعور الذى يدخل قلوب من يطلون هنا على الجبال والتلال، وكلهم شوق إلى الجمال والبراءة؟ فكرت "ساى"، كيف كان الغموض يكتنف ما كانت تتوق إليه فى الأيام الأولى لقدومها إلى "تشوأويو"، ذلك التوق الذى وجد صداه فى روحها الحزينة، والذى ذهب الآن وخلف وراءه الحزن والألم. وعادت "ساى" بذهنها إلى اليوم الذى حدثت فيه سرقة البنادق فى "تشوأويو"، والذى بدأ فيه كل شىء يبتعد عن الصواب.

## ـ ٣٥ ـ

كان من الحمق أن تترك البنادق معلقة على الحائط، وهى أشبه بقطع فنية ترجع إلى تاريخ قديم أحيل إلى التقاعد، والتى لكثرة رؤيتها أصبحت لا تكاد تلفت نظر أحد. كان "جيان" آخر شخص قام بإنزالها لفحصها، فهو كالشباب الصغير يحب مثل هذه الأشياء، وكانت "ساى" قد قرأت أن "الدلاى لاما" كانت لديه وهو صبى مجموعة من ألعاب الحرب.

"اعتاد جدى لأبى أن يخرج للصيد".. أخبرت "ساى" "جيان" بذلك، فى محاولة منها لتنقل إليه انطباعًا جديدًا. لكن لماذا كان عليها أن تبدى زهوًا بشىء كان يتعين عليها أن تخجل منه؟ كان الطباخ قد حكى لها عن جدها الرامى المحترف وعن وسامته وشجاعته وهو يمتطى صهوة حصانه، حتى أن القرويين كانوا يلجئون إليه عند اقتراب حيوان متوحش من قريتهم. فى كل مرة يكرر فيها الطباخ

حكاياته، كان يضيف إليها أشياء من عنده، وهذه الأشياء الإضافية يتأكد لديه صدقها عند سرد الحكاية فى المرة التالية.

***

فى صباح يوم لم يبعد كثيرًا عن اليوم الذى سمع فيه "الأب بووتى" عن ضرورة مغادرته الهند، وبينما القاضى و"ساى" يجلسان على بساط من النجيل الأخضر، قدم ضابط إلى "تشوأويو" لكى يحقق فى جريمة سرقة البنادق. "مرتكبو الجريمة مازالوا هاربين".. قال الضابط الذى يحيط به ثلاثة من أفراد الشرطة يحملون البنادق. "لكن لا تقلق يا سيدى، فسوف نقضى على الجريمة فى مهدها". أضاف الضابط وهو يحتسى الشاى: "هل تعلم أن أبى كان راميًا محترفًا؟.. لكن لا حاجة بك إلى القلق فسوف نلقى القبض على المجرمين.. إنهم يستغلون القلاقل فى "بوتان" و"أسام" كمبرر لارتكابهم بعض الجرائم التى تهدد اقتصادنا هنا، وهذا شىء محزن لأناس مثلنا نحب بلادنا ونناضل من أجل حريتها". توجه بحديثه إلى "ساى": "هل تعرفين ثلاث كلمات بالإنجليزية تبدأ بحرف T تشتهر بها مقاطعة دارجيلينج؟ هل يمكنك إخبارى بها؟". هزت رأسها بالنفى، فداخله شعور بالانتصار دلت عليه نبرات صوته: "الشاى Tea الخشب Tember والسياحة Tourism.

أثناء مغادرته توقف أمام نبات متسلق مزهر.. "زهرة جميلة.. فى كل مرة تشاهد مثل هذه الزهرة، تدرك على الفور عظمة الخالق.. منذ وصلت "كاليمبونج" أصبحت أعتنى بالنبات كما لو كان طفلاً رضيعًا.. حسنًا، أخبرنى على الفور إذا وجدت نفسك فى مشكلة". استقل الضابط سيارة الجيب التى علا صوت محركها قبل أن تغادر. قال الطباخ: "لن يعثروا على أحد"، ولم تتحدث "ساى" لأنها لم تستطع التوقف عن التفكير فى تجاهل "جيان" لها.

بعد أيام ألقت الشرطة القبض على سكير بائس، ألف الناس رؤيته ممددًا غافلاً عن العالم داخل حفرة على جانب الطريق المؤدى إلى السوق، وكان بعض المارة يحاولون إفاقته بالضرب على وجنتيه، ثم يقودونه مترنحًا إلى منزله. اقتيد السكير إلى قسم الشرطة، وهناك جلس على الأرض وقد قيدت يداه وقدماه، وعلى مقربة منه وقف رجال الشرطة والضجر على وجوههم. وفجأة وبدون سابق إنذار استعادوا حيويتهم وانهالوا بالضرب على الرجل، الذى كلما تصاعد صراخه كلما أوسعوه ضربًا حتى غطت الدماء رأسه ووجهه وتكسرت أسنانه وضلوعه. كان صوت صراخه وتوسلاته يكاد يسمعه كل من على جانبى التل، بينما ينظر إليه أفراد الشرطة فى اشمئزاز وهو يعلن عن براءته: "أنا لم أسرق بنادق من أحد.. لم أذهب إلى منزل أحد.. هناك خطأ.. أنا لم أفعل شيئًا ولكن أنا آسف". استمر الضرب لساعات

وتواصلت صرخاته التى بلغت حد السماء. "أنا آسف".
لكن أفراد الشرطة كانوا منشغلين عنه فى التدريب على تقنيات التعذيب. بعدما زحف الرجل على ركبتيه وقد انطفأ البريق فى عينيه، أدرك أنهم قد انتهوا منه، وأنه سينتهى منهم بالاختفاء تمامًا داخل جب عميق من شراب الكحول، ذلك الذى كان يمنحه دائمًا العزاء والسلوان.

- ٣٦ -

قال مستر "أيب" بائع الصحف بغير مبالاة وهو يلوح بنسخة من صحيفة "انديا أبروود": "أنت من "دارجيلينج"؟.. قلاقل كثيرة هناك... نيباليون مثيرون للشغب". سأل "بيجو": "إضرابات؟". أوضح مستر "أيب": "ليس فقط إضرابات، فكل القرى الواقعة على جانب التل قد تقطعت بها السبل، وهذا يحدث لعدة أشهر، ألم تسمع بذلك؟". قال "بيجو": "لا، لم أتلق رسائل منذ وقت طويل".

ألقى "بيجو" اللوم على الاضطرابات المعتادة أو على الطقس السيىء الذى يعيق وصول رسائل والده. واصل "أيب" كلامه: "يتعين عليهم أن يركلوا أولاد الحرام هؤلاء، ويعود النيباليون إلى نيبال، والبنجلاديشيون والأفغان إلى بنجلاديش وأفغانستان، وكل المسلمين يعودون إلى باكستان، وعودة النازحين إلى "التبت" و"بوتان".. لماذا يقيم كل هؤلاء، فى بلادنا". سأل "بيجو": "لماذا نقيم نحن هنا؟". أجاب

مستر "أيب" بدون أى إحساس بالحرج: "هذه البلاد مختلفة، فماذا يمكنهم أن يفعلوا بدوننا؟".

عاد "بيجو" إلى العمل، لكنه طوال اليوم كان يفكر فى والده الذى لا يعلم شيئًا عن أخباره، وبدأ القلق يداهمه.. وفى اليوم التالى لم يكن فى استطاعة "بيجو" تحمل المزيد من القلق، لذا غادر المطبخ إلى كشك الاتصالات الهاتفية، وهناك طلب رقم هاتف منزل الضيافة الموجود فى "رينجكنجبونج روود" بسبب خلو "تشوأويو" من هاتف، وعندما أجابه صوت، قال "بيجو": هل يمكنك ان تبلغ والدى بأن ابنه "بيجو" سيطلبه مرة أخرى فى غضون ساعتين؟".

فى ذلك المساء، قبل بضعة أسابيع من العطل الذى أصاب الخطوط الهاتفية، ومن القصف الذى تعرضت له الطرق والكبارى، هرول حارس منزل الضيافة إلى بوابة "تشوأويو"، وقال للطباخ: "مكالمة هاتفية من ابنك فى أمريكا، وسيتحدث إليك فى غضون ساعة، تعال بسرعة!. فى التو واللحظة غادر الطباخ وهو فى عجلة من أمره وسط دهشة "ساى" التى كانت تفكر فى غياب "جيان".. "إلى أين أنت ذاهب؟". لم يجب الطباخ على سؤال "ساى"، فقد كان يهرول خارج البوابة.

فى إحدى زوايا حجرة الاستقبال بمنزل الضيافة فى "دارجيلينج"، يجثم هاتف مثبت بسلسلة حديدية ومزود بقفل يمنع الخدم من إجراء اتصالات هاتفية،

ويسمح فقط باستقبال المكالمات. عندما رن جرس الهاتف، وثب إليه الحارس وكل أفراد عائلته الذين جاءوا مهرولين من كوخهم بالخارج، وأحاطوا بالطباخ الذى كان يصيح بأعلى الصوت، ربما لكى يتسنى له إيصال صوته إلى ابنه والاستماع إليه عبر المسافات الطويلة التى تفصله عن أمريكا. "هالو؟.. هالو؟.. "بيجو"؟.. "بيجو"؟.. لا أستطيع سماعك.. صوتك بعيد جدًا.. أنا لا أسمعك.. أيمكنك سماعى؟.

عبرت أجواء "كاليمبونج" كل تلك المسافات البعيدة إلى "بيجو" فى نيويورك، وأمكنه الشعور بنبض الغابة، وشم رائحة الهواء الرطب والمروج الخضراء الداكنة، واستطاع تخيل مزارع الموز ونبات الصبار والسرخس، واستمع إلى نقيق الضفادع وسط حقل السبانخ.

"هالو؟.. هالو؟. قالت عائلة الحارس: "ضوضاء، لا يمكنه سماع صوت ابنه". فى غضب أشار إليهم الطباخ طالبًا منهم التنحى جانبًا، وعاد ثانية إلى سماعة الهاتف، بعد أن انسحبوا جميعًا للحظة، ثم عادوا مرة أخرى لكى يعيق صدى أصواتهم سماعه صوت ابنه القادم من البعيد. اتجهت زوجة الحارس إلى الخارج لتنظر إلى سلك الهاتف الممتد عبر الجبال، وقالت: "رياح شديدة تحرك سلك الهاتف". والأطفال تسلقوا الشجرة التى يعلوها السلك فى محاولة منهم لتثبيته ومنعه من الحركة حتى لا يؤثر على حديث الأب والابن.

"ماذا حدث؟.. هل كل شىء على مايرام؟.. ماذا قلت؟.. ماذا يحدث؟.. هل هناك أعمال شغب وإضرابات؟".. فكر الطباخ أن من الأفضل ألا يقلقه: "لا قلاقل الآن". سألت زوجة الحارس: "هل هو قادم؟". واصل الطباخ صياحه: "هل أنت على مايرام؟ لا شىء يدعود للقلق من أجلى، لا تقلق من أجل أى شىء.. هل المطعم يوفر لك المأكل والملبس؟".

فجأة لم يكن هناك شىء آخر يقال، وانطفأت شعلة العاطفة وهدأت الانفعالات، وكلاهما وجدا نفسيهما فجأة فى الفراغ. سأل الأب: "هل حصلت على الإقامة؟.. متى تحصل عليها؟". أجاب الابن: "لا أعرف.. هالو.. هالو.. هل تسمعنى؟". استمع الطباخ إلى صوت صفير متقطع ثم انقطع الخط وبعدت المسافة بينهما. وضع الطباخ سماعة الهاتف وهو يرتجف. قال الحارس: "سيطلبك ثانية". وارتفع صوت نقيق الضفادع فى الخارج ليغطى على آثار صوت "بيجو" الذى ذهب دون أن يقول وداعًا. قالت زوجة الحارس فى محاولة للتسرية على الطباخ: "سيأتى سمينًا وممتلئًا، لقد سمعت أن كل القادمين من هناك يأتون وقد زادت أوزانهم.

لم يتمكن "بيجو" من التحدث إلى والده، وخشى من أنه إذا واصل حياته فى نيويورك فربما لن يرى والده ثانية. يحدث ذلك دائمًا، تمر عشرة أعوام ثم خمسة عشر عامًا وتتوالى البرقيات والمكالمات الهاتفية، ويكون الوقت قد مضى من غير أن يرى الابن

والديه، أو أن يعود بعد سنوات طويلة ليكتشف الابن أن والديه أصبحا يشبهان ما بالشريط السالب من الصور الفوتوغرافية، وأن الحب قد ذهب، وأن الأهل الذين اعتادوا غيابه قد نسوه.

تذكر الطباخ رسالة كان قد بعث بها إلى ابنه، سأله فيها: "هل أصبحت سمينًا، بيجو، مثل كل شخص فى أمريكا؟". وتذكر أيضًا إجابة ابنه فى رده على رسالته: "نعم، يزداد وزننا هنا، وعندما ترانى ستجدنى عشرة أضعاف وزنى السابق". ضحك "بيجو" أثناء كتابته تلك الكلمات، وكذلك الطباخ ضحك كثيرًا عند قراءتها ومال بجسده إلى الوراء وركل بقدميه الهواء. فى ذلك الوقت، عندما ذهب "بيجو" إلى متجر يبيع كل شىء بسعر موحد (٩٩ سنتًا) اكتشف أن قياس القميص الذى قرر شراءه موجود ضمن قياسات قمصان الأطفال، ولاحظ أن صاحب المتجر القادم من "لاهور" والجالس أعلى السلم يراقب الداخلين والخارجين خشية أن يقوم أحد بسرقة شىء، كان ينظر إليه منذ دخوله المتجر، وعندئذ شعر "بيجو" أنه يفتقد "سعيد"، وأنه يريد أن يشاهد أمريكا عبر عينى "سعيد" المتفائلتين الواثقتين.

عاد "بيجو" إلى "غاندى كافيه"، وعرف أن لا أحد لاحظ غيابه.

## -٣٧-

لم يتحسن الوضع حتى بعد قيام الشرطة بإلقاء القبض عشوائيًا على بعض المتمردين وتعذيبهم، فقد استمرت الإضرابات ليوم ثم لثلاثة أيام ثم لسبعة أيام، وتوقفت حركة البيع والشراء. عندما فتح متجر "لاركس" أبوابه لبعض الوقت فى صباح أحد الأيام، نجحت "لولا" والأميرات الأفغانيات فى الفوز بكم كبير من المعلبات الغذائية. وفى وقت لاحق من ذلك الشهر استشاطت الأميرات غضبًا من خلو إفطارهن من المربى فى حين كانت "لولا" لا يزال لديها بعض مربى البرتقال. فى ذلك الوقت كان الطقس شديد الرطوبة يصعب فيه التنفس.

وجاء الوقت الذى أغلقت فيه تمامًا المتاجر والمكاتب مثل وكالة "سنوليون" للسفريات، ومتاجر تبيع الشيلان، ومحال الترزية، ووكلاء توزيع الصحف "كانشى ناث وأولاده"، كما تسببت حواجز الطرق فى

توقف حركة المرور، ومنع الشاحنات المحملة بالخشب والأحجار من المغادرة، ووقف تصدير الشاى. وفرض الصبية التابعون للجبهة الوطنية لتحرير جيمخانا مبالغ مالية كبيرة نظير السماح لأحد بالمرور، وأجبروا الناس على شراء أشرطة تسجيل خطب زعماء الجبهة وأجندات تحمل شعار "جورخا لاند". ونزل رجال من شاحنات قدموا من تنداريا ومهنادى، وبدأوا يلقون الطوب والزجاجات الفارغة ولم ينجح الغاز المثير للدموع فى تفريقهم.

"حسنًا، كم مساحة الأرض التى يطالبون بها؟".. سألت "لولا" عابسة الوجه، وأجابت "نونى": "أجزاء من "دارجيلينج" و"كاليمبونج" و"كيرسونج" تمتد إلى سفوح التلال، وأجزاء من مقاطعات "جالبيجورى" و"كوش بيهار" تمتد من البنغال حتى أسام. وقالت مسز سن، أثناء قيامها بصنع جاكت بشغل الإبرة لأحد المسئولين الكبار، الذى يجد منها تعاطفًا بسبب، ما يعانيه من قلاقل واضطرابات: "لا سلام مع أولئك الأشرار". قالت "لولا": "هم أشرار ونحن الذين لا ننعم بالسلام". وفكرت "ساى" فى الهند كمفهوم وكأمل وكرغبة، وأسرّت إلى نفسها، إن الوطن ما هو إلا فكرتنا نحن عنه.

فى صباح أحد الأيام، وعند وصول الضابط الذى كان يدير نادى جيمخانا، كانوا قد أخلوا المكان من أمناء المكتبة ومن بقية الموظفين حتى يتمتعوا بالمكان

الرحب المتسع، وبالخصوصية التى لم يشعروا بها فى حياتهم من قبل، واستلقوا نائمين بين أرفف الكتب، وأمضوا وقتًا سعيدًا فى حجرة إيداعات معاطف وقبعات النساء، وهى الحجرة التى كانت قد استعملتها "لولا" من فترة فى وضع مسحوق التجميل على أنفها. لم يأت سائحون كالمعتاد من كلكتا إلى فندق "هيمالايان" للجلوس تحت لوحة تصوير للفنان "رويرتش"، تصور جبلاً تضيئه أشعة القمر، وتشبه شبحًا ملفوفًا فى ملاءات سرير، ولم يأت رواد للمطعم الذى يقدم لحم ماعز كاليمبونج مطهيًا على نار خفيفة مع مختلف أنواع الخضراوات. وأغلقت دور الضيافة، وأخرج الأطفال من المدارس الداخلية بعد قراءة ذويهم ما تنشره الصحف من اضطرابات وقلاقل وحرب عصابات يقوم بها متمردون انفصاليون. وبعد نفاد الغاز والكيروسين، لجأ الكثيرون إلى الخشب كوقود لإعداد الطعام. وبعد انقطاع المياه قالت "لولا" لشقيقتها "نونى": "اتركى الدلاء بالحديقة حتى تمتلئ بمياه المطر، ومن الأفضل أن نسكب قطرات من سائل التنظيف فى دورة المياه لمنع انتشار الروائح بدلاً من إهدار المتبقى من المياه".

انقطع التيار الكهربائى بعد إشعال الحريق فى محطة الكهرباء، احتجاجًا على إلقاء القبض على بعض المتمردين عند حواجز الطرق، وعندئذ ارتجفت الثلاجة الكهربائية للحظة وسكت أزيزها، فأجبرت الشقيقتان على طهى كل الطعام الذى بداخلها خوفًا

من أن يفسد بغير تبريد. وفى الوقت الذى تقرر فيه حظر التجول، وكان المطر يسقط فى الخارج محملاً برائحة حريفة صادرة من طهى لحم الضأن، قامت مجموعة من صبية الحركة الوطنية لتحرير جيمخانا، الذين كانوا فى طريقهم للبحث عن ملجأ يقيهم المطر، بتسلق نافذة المطبخ: "لماذا الباب الأمامى مغلق يا خالتى؟".

الأقفال الضخمة التى كانت تستعمل عادة فى تأمين الصناديق التى تحتوى على أشياء ثمينة، تغير استعمالها الآن، لتؤمن الأبواب الأمامية والخلفية للمنازل.

"ماذا تريدون؟".. سألت "لولا" وعلى وجهها تعبير يشى بأن لديها ما تحمى به نفسها. أجاب أحدهم: "نحن نبيع أجندات يا خالتى وأشرطة تسجيل خاصة بالحركة". قالت "لولا" فى صوت خفيض بالإنجليزية التى تعتقد بعدم معرفتهم لها: "لا تعطيهم شيئًا.. وإلا سيعودون دومًا". لكنهم فهموا هم ما قالته بالإنجليزية، ولم تفهم هى لغتهم النيبالية. "شىء طيب تقديم مساهمة لدولة "جورخا لاند"". فى غضب قالت "لولا": "شىء طيب لكم وليس لنا". همست "نونى" فى أذن شقيقتها: "لا تكونى متهورة". قال الصبية وعيونهم على الطعام فوق المائدة: "سوف نقدم إيصالاً لكما". قالت "نونى": "أعطنى أجندة". "واحدة فقط يا خالتى؟". قالت: "اثنتان". "لكن هل تعرفين كم نحن فى حاجة إلى المال؟". وحصلوا أخيرًا على المال نظير

ثلاث أجندات وشريطى تسجيل. "هل يمكننا النوم على الأرض، فالشرطة لن تبحث عنا مطلقًا هنا". قالت "لولا": "لا". لكن "نونى" سارعت بالقول : "حسنًا، ولكن من فضلكم لا تثيروا أية جلبة أو مشكلة". وقبل أن يذهب الصبية فى النوم، كانوا قد أجهزوا على كل الطعام الموجود.

"لولا" و"نونى" قامتا فى حذر وهدوء بتأمين الباب الذى يفصل بين الصبية وحجرة نومهما بوضع قطعة أثاث ثقيلة خلفه، لكنهم عندما أدركوا ما تحاولان القيام به، ضحكوا بصوت عال: لا داعى للقلق، فأنتما قد تجاوزتما العمر الذى يناسبنا". لكن الشقيقتين أمضتا الليل كله دون نوم، حتى تعبت عيونهما من التحديق فى الظلام.

لقد انتظرتا طويلاً "بادهو"، حارس منزلهما، لكى يأتى ومعه بندقيته لكى يخيف الصبية فيذهبون بعيدًا، لكن "بادهو" لم يأت. قالت "لولا" فى همس وضيق شديد: "هؤلاء النيباليون يعاونون بعضهم البعض". وبسرعة قالت "نونى": "ربما تعرض لتهديد من الصبية". قاطعتها "لولا": "ربما هو عم أحدهم، لذا كان يتعين علينا أن نطردهم حتى لا يتجرءوا علينا ويأتوننا من وقت لآخر". قالت "نونى" لتبرر ما قامت به: "لم يكن أمامنا خيار آخر، إذا قلنا لهم لا، ربما كان علينا أن ندفع ثمن ذلك.. لا تكونى ساذجة". قالت "لولا": "الساذجة والحمقاء أنت!".

في الصباح تساءل أحد الصبية وابتسامة متكلفة ترتسم على وجهه: "هل داخلكم شعور بالقلق من أن تلقى الشرطة القبض عليكما، لأنكما وفرتما لنا مكانًا نختبئ فيه؟.. هل كان ذلك ما أقلقكما؟.. إن الشرطة لا تلمس الناس الأثرياء، دائمًا الناس من أمثالنا فقط هم من تطاردهم الشرطة وتلقى القبض عليهم.. لكن إذا قلتما أي شيء، فسوف نضطر إلى اتخاذ إجراء ضدكما". "ما هذا الإجراء؟". "ستعرفين وقتها يا خالتي". كانوا محتفظين بنفس نبرة الصوت المهذبة، لكنهم غادروا وبحوزتهم الأرز والصابون وصلصة الطماطم.

مضى أقل من شهر قبل أن تستيقظ الشقيقتان في صباح أحد الأيام، فيجدان اثنين من الصبية يقومان في هدوء بقطع أعواد البامبو من أرضهما.. هرعا إليهما: "هذه أرضنا". قال الصبية بفظاظة: "إنها ليست أرضكما، إنها أرض محتلة، إنها أرضنا نحن". قالتا في صوت واحد: "سنطلب الشرطة". لكن في استهجان ملحوظ أعطوهما ظهريهما، واستمرا في قطع أعواد البامبو.

## -٣٨-

حتى "لولا" نفسها، كانت تدرك أن هذا كله لم يأت من فراغ، بل من شعور قديم بالغضب، ليس بالإمكان نزعه من "كاليمبونج"، لأنه موجود فى كل نفس يتردد، وفى العيون التى طال انتظارها لشىء ما، وفى تعليقات قد لا يدركها المرء للوهلة الأولى فى لقاء عابر بالطريق، وفى سخريات وضحكات مكتومة لهؤلاء الذين يتواجدون فى كانتين "ثابا"، وأولئك المجهولين الذين يبيعون البيض وأعواد الثقاب فى أكواخ الطرق الجانبية.

إذا كان هناك من الأغنياء من يسهل التعرف عليهم وتسميتهم، فإن "لولا" و"نانى" ربما يصعب تمييزهما من بين الأفراد الذين يكونون المجموع الفقير. لم تبد الشقيقتان أبدًا من قبل اهتمامًا بالسبب الذى جعلهما غير واعين لذلك الأمر، ربما لأن من الطبيعى أنهما كانا يثيران حسد البعض،

ولأنهما كانا يشقان طريقهما فى الحياة بدون عراقيل تذكر، سوى بعض التعليقات التى يسمعانها من وقت لآخر، ولأنهما كانا من بين هؤلاء الذين يعانون من حظ غيرموات، بسبب التواجد فى المكان الخطأ والزمان الخطأ.

كان فى مقدورهما شراء معلبات لحم الخنزير بالأرز، والإقامة فى مسكن كبير، والجلوس إلى جانب سخان يجلب لهما الدفء فى الأمسيات الباردة، والطيران إلى لندن والعودة بقطع الشوكولاته المحشوة بالكرز، فى حين أن آخرين لا يمكنهم ذلك. ربما كانا يتظاهران بأنهما غير مدركين لما يجرى حولهما، أو أنه لا علاقة له بهما، وفجأة أدركا أن كل ما يجرى حولهما له علاقة بما هما عليه من ثراء جعلهما عرضة لخطر وجودهما وسط أجواء الفقر المدقع، وعرضة لسداد الدين مشاركة مع آخرين على مدى أجيال.

قامت "لولا" بزيارة إلى مقر "برادهان" قائد الجبهة الوطنية لتحرير جيمخانا فى "كاليمبونج"، لتشكو له الأكواخ غير القانونية التى أقامها أتباعه فوق الأرض التى تملكها والمحيطة بمنزلها "مون آمى". قال "برادهان": "لكن يتعين علىّ أن أوفر الإقامة لرجالى". بدا كدمية للص أو قاطع طريق بلحية كبيرة، ومنديل كبير مزين بالرسوم حول رأسه، وأقراط ذهبية بأذنيه. لم تكن "لولا" تعلم الكثير عنه، فقط ما يقال

عنه فى الصحف من أنه انشق على الجبهة وأصبح قائدًا على "كاليمبونج"، وما تصفه به من عنف فى ردود أفعاله التى لا يمكن التنبؤ بها، وافتقاده القدرة على التفاوض، وإدارته لجناح الجبهة فى كاليمبونج كما يدير ملك مملكته. عُرف عن "برادهان" أنه أكثر استعدادًا للغضب من "جيسينج" قائد جناح الحركة فى "دارجيلينج" الذى يتصف بحنكة سياسية، والذى قام أتباعه باحتلال نادى جيمخانا، والذى قالت عنه صحيفة "إنديان اكسبريس" إنه ولد وتعلم فى مزارع الشاى فى "سينجبولى" و"مانجو"، وخدم فى الجيش فى جورخا، ومارس التمثيل فى المسرح، وآلف أعمالاً نثرية وشعرية، ولعب مباريات ملاكمة فى وزن الخفيف، وشارك فى العمل النقابى.

وقف خلف "برادهان" جندى يمسك ببندقية موجهة إلى داخل الحجرة، وينظر فى عينى "لولا" المرتدية سارى الأرامل، الذى ارتدته عند موت زوجها "جويديب" وإحراق جثته فى الفرن الكهربائى. غمغمت "لولا" بضعف وبإنجليزية مكسرة، مدعية أنها تتحدث الإنجليزية بصعوبة. فى جزء من كاليمبونج لم تزره "لولا" من قبل كان يقع منزل "برادهان" الصغير المستطيل الشكل المحاط بأعواد البامبو الممزوجة بالطين، والمغطى بالصفيح. كانت الحجرة ممتلئة برجال ذوى نظرات محدقة، والبعض منهم وقوفًا والبعض الآخر جلوسًا على مقاعد قابلة للطى، مشكلين زحامًا يشبه زحام حجرة الانتظار فى عيادة طبية.

أمكنها أن تشعر بضيقهم من وجودها، وبرغبتهم القوية فى التخلص منها، وذلك أثناء قيام صاحب شركة "مارواري" بعرض طلبه بالسماح لبضاعة تخصه بعبور حاجز الطرق. لكن ما أثار دهشة الحاضرين هو مسئولية الشركة عن بيع المتعلقات الخاصة بديانة مواطنى التبت كالأجراس والمصابيح والحبال والقمصان البرتقالية والأزرار النحاسية المزينة بزهرة اللوتس. مثل الرجل أمام "برادهان" منحنيًا لا يكاد يرفع عينيه فى اتجاهه، ومرددًا أمامه ألقاب التفخيم والتعظيم التى لم تشفع له، إذ قوبل طلبه بالرفض بعبارة "لا استثناءات".

ثم جاء دور "لولا" التى قالت: "سيدى، لقد اعتدوا على قطعة أرض أملكها". "ما اسمها؟". "مون آمى". "بأية لغة هذا الاسم؟". "اسم فرنسى". ساخرًا قال "برادهان": "على حد علمى نحن لا نعيش فى فرنسا، أليس كذلك؟.. أخبرينى، لماذا لا أتكلم أنا الفرنسية إذن؟".. حاول إنهاء المقابلة على الفور، مشيحًا بوجهه عن وثائق ملكيتها للأرض التى تقوم بعرضها عليه، وقال: "يتعين على رجالى أن يجدوا مكانًا لهم". اعترضت لولا: "لكنها أرضى أنا". قال بحزم: "الأرض التى أتحدث عنها لإقامة رجالى تمتد بموازاة الطرق وبعرض محدد".

بين عشية وضحاها، كانت الأكواخ التى أقيمت بأعواد البامبو والطين قد امتلأت بالنساء والرجال

والأطفال والخنازير والماعز والكلاب والدواجن والقطط والأبقار، إلى درجة جعلت "لولا" تتنبأ بأنه خلال عام واحد ستكون الأكواخ قد بنيت بالأسمنت وزودت بأنابيب الصرف الصحى.

قال "برادهان": "إنها أرضنا، تلك التى تمتد بموازاة الطريق، هل تستخدمينها؟". أجابت "لولا": نعم، أزرع فيها الخضراوات". قال: يمكنك زراعتها إلى جانب منزلك". غمغمت "لولا": "تحفرون أسفل التل، والأرض ضعيفة، ربما يحدث انزلاق فى التربة، وهذا خطر على رجالك، وربما يضر انزلاق التربة بالطريق".. كانت ترتجف من الرعب وليس من الغضب.

"انزلاق التربة؟.. إنهم لا يبنون بيوتًا كبيرة مثلكم يا خالتى، مجرد أكواخ من أعواد البامبو، إنه منزلك الذى قد يتسبب فى انزلاق التربة لأنه ثقيل جدًا وكبير جدًا، وحوائطه سميكة من الحجر والأسمنت، أليس كذلك؟.. أنت امرأة ثرية ولديك منزل وحديقة وخدم!".. ابتسم "برادهان"، وأضاف وهو يومئ إلى من حوله: "فى الحقيقة، كما ترين، أنا مهراجا كاليمبونج، ويتعين علىّ، كما يتعين على الملك، أن يكون لى العديد من الملكات".. وأومأ برأسه إلى الأصوات الصادرة من المطبخ عبر الباب المغطى بستارة، وتطلع إلى "لولا" من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ومال بمقعده إلى الوراء، وعلى وجهه تعبير فاحش، وقال:

"لدى أربع، فهل تحبين يا خالتى أن تكونى الخامسة؟". انفجر الرجال، الذين يدينون له بالولاء، فى الضحك، فى نفس الوقت الذى رأت فيه "لولا" نفسها مصدر سخرية. وأضاف "برادهان": "أنت تعلمين أنك فى عمرك هذا لن تجلبى لى أبناء، لذا فسأتوقع منك مهرًا كبيرًا".

أمكنها سماع ضحكاتهم وهى تنقل قدميها الثقيلتين بصعوبة شديدة، أثناء مغادرتها الحجرة. "حمقاء".. سمعت أحدهم يقولها وهى تهبط الدرج، ومن نافذة المطبخ جاءها الصوت: "انظروا إلى تعبيرات وجهها"، ولفت نظرها وجوه نسائية بينهن فتيات جميلات، شعر رءوسهن كالحرير، وتزين أنوفهن أقراط ذهبية.

بينما كانت تسير أسفل تعريشة النباتات التى تظلل بوابة "مون آمى"، فكرت "لولا" فى منزلها الذى يشبه واحة سلام من الأبيض والأزرق، يزينها إكليل من الورد. سألت "تونى": "ماذا حدث؟ ماذا قال؟ هل رأيته؟". لكن "لولا" لم تستطع الحديث إلى "تونى" التى كانت تنتظر عودتها، واتجهت على الفور إلى دورة المياه، وجلست على القاعدة المغطاة، وجسدها يرتعش، وصرخت فى صوت مكتوم منادية على زوجها الذى رحل منذ فترة طويلة: "جويديب.. انظر ماذا فعلت أيها الأحمق!". وقلبت شفتيها فى امتعاض وقد غمرها شعور بالعار والخجل: "انظر إلى ماذا تركتنى! هل تعلم

كم عـانـيت، هل لـديك أدنى فـكـرة؟ أين أنت؟! أنت وحياتك القصيرة ضاعت سدى.. انظر إلى ما يتعين علىّ أن أتعامل معهم.. انظر.. لا قيمة ولا اعتبار لى".

كيف يمكنها وشقيقتها العيش الآن؟ إذا غادرا فسوف يحل الجيش فى المنزل الذى قامت هى و"جويديب" بشرائه عندما تلبستهما أفكار عن حياة العزلة فى مزرعة ومنزل يلفهما الضباب الكثيف ويصحبتهما قطط وكتب. ألم يكن من العقل شراء منزل فى "كلكتا" بدلاً من أفكار جويديب الرومانسية التى تحض على العيش فى الريف بصحبة كتاب عن الطيور وكتب للشعراء "ييتس" الإنجليزى، و"ريلكة" الألمانى، وماندلستام الروسى؟. كان جويديب فى حياته واثق الخطو، وكأن الأرض ثابتة تحت قدميه، دون أن يخالجه أدنى شك فى ذلك. صاحت "لولا" فى صوت كالصراخ: "أحمق". وفجأة داهمتها نوبة ضعف، وتذكرت كلمات "جويديب": "عيناك جميلتان متلألئتان، سوداوان وعميقتان"، كما تذكرت اعتياده تقبيل عينيها عند مغادرته إلى عمله.

بالقرب من دورة المياه، سألت "نونى": "هل أنت بخير؟". بصوت عال قالت "لولا": "لا، لست بخير، لماذا لا تذهبى بعيدا؟". "لماذا لا تفتحى الباب يا "لولا"؟. "اذهبى بعيدًا، وانضمى إلى الصبية فى الشارع، هؤلاء الذين تدافعين عنهم دائمًا". "افتحى الباب، "لولا". "لا، انصرفى". "صنعت لك كأسًا من شراب الروم، لولا".

"انصرفى". "يا شقيقتى، أتعرفين أنه فى مثل هذه الأوضاع ترتكب أعمال عدوانية تحت غطاء قضية شرعية.. وهناك من يقول إن القلاقل ستستمر، لأن مواطنى "جورخا" قد تم استغلالهم".

قالت "لولا" بجفاء: "هؤلاء الناس ليسوا أناسًا طيبين، إنهم مرتزقة أجلاف يدينون بالولاء لأى شخص، ولا مبادئ لهم.. أنت تعلمين ذلك، "نونى"، كلنا نعلم ذلك". "أنا لا أعلم ذلك". "إذن اذهبى وانضمى إليهم كما قلت، واتركى منزلك وكتبك.. أنت كاذبة ومزيفة". "سأفعل ذلك". "افعلى إذن واذهبى إلى الجحيم!". قالت "نونى": "الجحيم؟ لماذا الجحيم؟".

عادت "نونى" لتجلس على الأريكة. لقد كانا على خطأ، وكانا من الحماقة بحيث داخلهما شعور بأنهما يفعلان شيئًا مثيرًا، بامتلاكهما هذا البيت الذى يطل على منظر طبيعى جميل، والذى بين جدرانه وجدا سعادتهما فى قراءة كتب السفر والرحلة القديمة.

## - ٣٩ -

أكثر ما برع فيه "ساى و"جيان" هو لمساتهما الأولى الرقيقة، التى لم تستطع ساى نسيانها، كما لم تستطع نسيان تلك النظرة القاسية، التى وجهها إليها فى "دارجيلينج" وحذرها فيها بأن تظل بعيدة. لكن لم يمض وقت طويل على تجاهله لها حتى أتى "جيان" إلى "تشوأويو"، وجلس إلى المنضدة فى حالة ثبات وكأن على رأسه الطير. كان منذ أشهر قليلة يسعى إليها فى اندفاع، الآن يتصرف وكأنها كانت تطارده حتى أوقعته فى شباكها ذليلاً. أسرّت إلى نفسها: "أى نوع من الرجال هذا؟" كان من غير اليسير عليها أن تصدق أنها أحبت شخصًا لا يستحق منها غير الازدراء، أو أن تصدق أن قبلتها له لم ترتق به إلى السماء.

سألت "ساى": "أى نوع من الرجال أنت؟ بماذا يمكن أن توصف تصرفك هذا؟". قال على مضض: "أنا فى حيرة من أمرى، أنا مجرد إنسان ينتابنى

الضعف فى أحايين كثيرة، أنا آسف". أطلقت كلمة "آسف" العنان لما تستشعره من غضب عارم تجاهه: "من يستطيع تحمل تبعات ضعفك هذا؟ لن تحرز نجاحًا أبدًا فى حياتك، وأنت على هذا النحو يا صديقى". وتابعت "ساى" بصوت عال: "إذا اعتقدت أن ما تقوله يصلح عذرًا، فإن القاتل يمكنه أيضًا أن يبرر ارتكابه جريمة القتل".

حدث الشىء المعتاد نفسه الذى يحدث أثناء شجارهما.. يجتاحه الشعور بالغضب والسخط، ويسأل نفسه: من هى حتى تلقى عليه محاضرة؟.. وهو الرجل، أحد أفراد جيش تحرير جورخا، الذى يضحى بحياته من أجل المبدأ. قال "جيان" وهو ينهض من جلسته ويغادر مسرعًا: "لا يتعين علىّ سماع هذا". وأجهشت ساى بالبكاء.

مستشعرة اليأس بسبب فرض حظر التجول، وهجران "جيان" لها، كانت "ساى" لا تزال تأمل فى عودته، بعد أن فقدت مهارتها القديمة فى العيش وحيدة، وبينما هى فى انتظار عودته، قرأت رواية "مرتفعات ويذيرينج" مرتين، وفى كل مرة كانت مشاعر بدائية فياضة تنتقل إلى داخلها، وتغذى فيها حنين انتظارها له.

ذهبت "ساى" لزيارة العم "بوتى" الذى رحب بها، من شرفة منزله صائحًا: "أنت هنا يا عزيزتى". ابتسمت "ساى"، فقد كان يحاول أن يبين لها من قبل،

كيف يتعين عليها أن تنظر إلى الحب باعتباره فنًا، أو كقطعة نسيج مزدانة بالرسوم والصور، وأن تدرك أن ما يصاحب الحب من حزن وفقد وخسارة، يفوق فى قيمته أية سعادة أخرى.

منذ أعوام، عندما كان طالبًا فى جامعة أكسفورد، عُرف عن العم "بوتى" عشقه للحب، وشغفه بالتدخين وتعاطى الشراب، وقراءة كل ما تقع عليه عيناه من كتب فى علم النفس، والشعر، والأدب، والفن الإباحى، ورسائل الحب فى مصر القديمة. فى ذلك الوقت، كان يستشعر متعة كبيرة فى مطاردة الفتيات وفى هجرهن، لكنه عندما قام بجولات بحث عملية فى هذا المجال، اكتشف الحب النقى فى أكثر الأماكن فقرًا فى قاع المدينة، حيث الأزقة الضيقة وتجار المخدرات وبائعات الهوى، وهناك التقى "لويس" و"اندريه" و"جويليرمو" و"رسول" و"جوان" و"يوشى" و"همبرتو سانتا ماريا". وفى إحدى جولاته فى منطقة البحيرات، صاح بأعلى الصوت من فوق الجبل مناديًا على ذلك الحب الرقيق كوردة، فقد أحبته فتيات لم يستشعر فى داخله لهن الحب، وأحب هو بجنون فتيات لكنهن لم يبادلنه حبًا بحب. كانت "ساى" تبدى دائمًا تقديرًا كبيرًا لوجهات نظره، وقدرته على إدراك الأشياء، وفقًا لعلاقاتها الصحيحة أو لأهميتها النسبية.

عند ذهاب "ساى" إلى "مون آمى"، ضحكت "لولا" و"نونى"، وضربن أخماسًا فى أسداس، وأهلن نفسيهما

لقضاء بعض الوقت فى مزاح يخفف من قلقهن مما يدور حولهن من اضطرابات وقلاقل. قالت "لولا": "من ذلك الشاب المحظوظ؟ طويل وأنيق وجميل؟". وأضافت "نونى": "وغنى؟ نأمل أن يكون ثريًا".

لحسن حظ "ساى" أن البرد قد أصابها فأنقذها من انكشاف أمر ما انتهت إليه علاقتها "بجيان"، فقد غطت أعراض مرض البرد بعض الشىء على أعراض مرض الحب، وسارعت "لولا" وشقيقتها "نونى" فى تحضير شراب حار لها من العسل والليمون والروم والماء الساخن.

بعودتها إل "تشوأويو"، أحضر لها الطباخ ما رآه مناسبًا للقضاء على البرد. سألت "ساى" نفسها: حبها "لجيان"، هل هو اعتياد لا أكثر ولا أقل؟ كيف لها أن تفكر كثيرًا فى أى شخص مهما كان؟. استجمعت قوتها وتحدثت مباشرة إلى قلبها: لماذا يتعين عليك يا قلب أن تتصرف بهذه الطريقة الحمقاء؟. أدركت "ساى" أن بالنسيان يمكنها أن تستعيد ذاتها وخلو بالها، وأن من الحمق ألا تفعل ذلك، وألا تقبل ما فى الحياة من فقد وخسارة ونقصان.

فى صباح أحد الأيام، استعادت "ساى" شيئًا من عافيتها، وأدركت أن البرد الذى كان يغطى على أعراض مرض الحب قد غادرها. لكن عندما أعلن عن رفع حظر التجول، وحتى يمكنها استعادة شىء من كرامتها الضائعة، بدأت "ساى" فى عملية بحث عن "جيان".

- ٤٠ -

لم تعثر له على أثر فى أى مكان فى السوق، ولا فى محل بيع أشرطة الفيديو الذى يقوم فيه رينزى وتن دورجى بتأجير أشرطة فيديو مستنفدة من كثرة عرضها لأفلام "بروس لى" و"جاكى شان". "لا، لم أره".. قال "داوابوتيا" وهو يبتعد برأسه عن البخار المتصاعد من آنية الطبخ فى مطبخ مطعم "تشن لى". "لم يأت بعد".. قال "تاشى" فى محل "سنو ليون" الذى أغلق الجزء الخاص بالسفر به بسبب ندرة المسافرين، وحلت محله طاولة لعب البلياردو، برغم وجود الملصقات السياحية المعلقة على الحائط: "تعال إلى "سيكيم"، أرض المائتى معبد".. "المأساة الجارية فى التبت، فقط بخمسة وعشرين دولارًا".

أصبح "تاشى" مضطرًا إلى التعامل بالعملة المحلية، وإلى استخدام ابن عمه المعوق فى حمل زجاجات الشراب من متجر "جومبوز" إلى منضدة البلياردو، حتى يمكن للرجال احتساء الشراب أثناء

ممارستهم اللعب والحديث حول الحركة الوطنية لتحرير جورخا، وفى تلك الأثناء كانت بقايا تقيؤ متناثرة هنا وهناك.

سارت "ساى" بمحاذاة فصول كلية "كاليمبونج" المهجورة، حيث تتراكم الحشرات الميتة على نوافذها، وحيث الذباب فى شراك خيوط العنكبوت المحكمة لا يستطيع فكاكًا، فى حين لا تزال بقايا رموز وحسابات على سبورة الفصل. استدارت متوجهة إلى الجانب الآخر من الجبل الذى يطل من أعلى على نهر "ريلى" وعلى الجزء الفقير الذى تجهله من كاليمبونج"، والذى تقع فيه قرية "بونج بستى" التى يعيش فيها "جيان"، والتى يستغرق الهبوط للوصول إليها زهاء ساعتين.

كان قد أخبرها عن أسلافه الشجعان فى الجيش، لكنه لماذا لم يتحدث معها أبدًا عن عائلته هنا والآن؟.. شىء ما كان يتردد فى ذهنها بأنه كان يتعين عليها ألا تغادر منزلها، لكنها لم يكن فى استطاعتها أن تمنع نفسها من القيام بما أرادت أن تقوم به. مرت فى طريقها بالعديد من الكنائس وبكنيسة إنجليزية عتيقة استقرت فى قلب المدينة، وبكنائس أمريكية جديدة وأكثرُ فخامة على الأطراف، لكنها جميعًا كانت مظلمة، لأن أفراد البعثات التبشيرية يغادرون دائمًا فى أوقات الخطر، لكى ينعموا بتناول رقائق الشوكولاتة والكحك المحلى بالسكر فى بلادهم، ويعودون ثانية عندما يعود السلام من جديد فى هذه

البقاء، وهم أكثر قدرة على حماية أنفسهم فى مواجهة أناس يائسين ضعفاء.

عبرت "ساى" الحقول ومجموعات من المنازل الصغيرة المتجاورة التى يسند بعضها بعضًا، وداهمتها حيرة إزاء شبكة الأزقة الضيقة المتقاطعة والمنحدرة من الجبال، والتى قادتها إلى أكواخ منتشرة على شكل قوس فى مكان عال وخطر، يحوطها سياج من أعواد البامبو، وتغطيها أسقف من الصفيح الذى يتسبب فى الإصابة بمرض التيتانوس الذى ينجم عنه تشنج فى عضلات الرقبة والفك. ومرت بدورات مياه فى العراء مكشوفة إلى السماء، لا تخشى من سقوط الروث على من بالوادى. بدت الأكواخ جميلة فى عين الشمس، كذلك البيوت الصغيرة التى يزحف من حولها أطفال رضع بمؤخراتهم العارية بدون ألبسة تعوقهم من قضاء حاجاتهم.

علمت "ساى" أنه بعد أن يمضى النهار، لا يكون فى مقدور أحد تجاهل ألوان الفقراء، أو أن يخفى عليه ضيق البيوت الرطبة بدخانها الثقيل الخانق، وسكانها الذين يأكلون على ضوء شمعة معتمة، إلى درجة لا تجعلهم يرون ما حولهم من فئران وثعابين، تتعارك من أجل الفوز بحشرات وبيض طيور. علمت "ساى" أيضًا أن مياه المطر تتجمع أسفل المنحدر وتتحول إلى مياه طينية يشربها الرجال، وأن على عجين الطين تنزلق الحقيقة وتتحول إلى كوابيس وشجار.

مرت إلى جانبها امرأة تحمل رضيعًا، وتنبعث منها رائحة تشبه رائحة كيزان الذرة المعلبة. سألت "ساى": "هل تعرفين أين يعيش "جيان"؟". أشارت إلى بيت فى الواجهة عند رؤيتها له اعتراها الذهول للحظة.. بيت صغير جدرانه من الأسمنت المغشوش بالرمل الذى يتناثر منه كما يتناثر الرمل من حقيبة مثقوبة ممتلئة به. ولفت نظرها شبكة من أسلاك كهربائية تتوزع وتتفرق وتختفى داخل نوافذ البيوت. أمكنها شم رائحة مياه الصرف الصحى التى لا تجرى فى أنابيب، وإنما فى ممرات من الأحجار بين البيوت. وشاهدت عرضًا لديك شبق يطارد عددًا من إناث الدجاج.

الطابق العلوى للبيت لم يكتمل، ويفترض أنه تأجل استكماله لضيق ذات اليد، وبمضى الوقت أصبح هذا الطابق فى حالة يرثى لها، فلا حوائط ولا سقف، فقط بضعة قضبان حديدية بارزة تبرهن على ما كان فى الحسبان إتمامه، وعلى أن بعض الجهد قد بذل فى الحفاظ على هذه القضبان من الصدأ بتغطيتها بزجاجات صودا مقلوبة. مازال البيت بالنسبة "لساى" يخص شخصًا له أهمية. على حواف الشرفة نباتات متسلقة، وعبر الباب المفتوح جزئيًا، أمكنها رؤية ملصق على حائط بال لطفل ذهبى الشعر يرتدى قلنسوة تشد بشريط أسفل الذقن، وهو نوع من لوحات التصوير عادة ما تسخر منه "لولا" و"نونى".

بالطبع هناك بيوت كثيرة مثل هذا البيت فى كل مكان، يخص أولئك الذين ناضلوا فى موقعهم على حافة الطبقة الوسطى، لمجرد أن يظلوا على الحافة، قابضين عليها فى يأس، ولكن دون جدوى. لذلك لا يتمكن مثل هذا البيت حتى من اجتذاب كاميرا فى يد سائح باعتباره نموذجًا للفقر الجديد بأن يكون موضوعًا لصورة فوتوغرافية. مثل هذا البيت لا يخرج عن كونه شيئًا كئيبًا يقبض الصدر، تمامًا كما تبدو الحداثة فى أحقر أشكالها، عندما تكون جديدة فى يوم، وخربة فى اليوم التالى.

لا يتناسب البيت مع حديث "جيان"، ولغته الإنجليزية، وهيئته وملابسه وتعليمه، ولا مع مستقبله، وليس أقل من عشرة أفراد فى عائلة "جيان" يعيشون الظروف نفسها، ورهانهم الكبير هو أن تفلح العائلة فى إنتاج صبى متعلم مهذب تدفع به إلى العالم من حولهم.

شعرت "ساى" بالخجل من أجله، فكيف يتعين عليه أن يلتزم صمتًا يعتقد أنه يصون كرامته.. بالطبع كان "جيان" قد ابتعد بنفسه عنها، وبالطبع لم يذكر فى حديثه معها أى شىء عن والده، لكن مع كل مشكلة أو ورطة يتعرض لها البيت بالضرورة، كيف يمكنه التعامل معها ووضع حد لها؟. عندئذ شعرت "ساى" بالنفور منه، وسألت نفسها: كيف دخلت فى مغامرة معه بدون معرفة كافية به؟. وقفت "ساى" ترقب الدجاج وهى فى حيرة من أمرها.

لم تنكشف الطيور عليها أبدًا من قبل بمثل هذا الوضوح، ولم تكن تعرف شيئًا عن ممارساتها للعنف والاغتصاب، وعن دجاجات تصرخ وتصفق بجناحيها محاولة الهرب من الديك المغتصب. مرت عدة دقائق، فهل يتعين عليها المغادرة؟ هل يتعين عليها البقاء؟. دفع أحدهم الباب وفتحه وخرجت منه فتاة تقرب من سن العاشرة، ممسكة بإناء طبخ لتنظفه بدعكه بالطين والحصى عند صنبور المياه بالخارج.

"هل جيان يقيم هنا؟".. سألت "ساى" رغمًا عنها، فبدت على وجه الفتاة ظلال من الشك. "هو يعلمنى الرياضيات". ظلت الفتاة تنظر إلى "ساى" نظرة من تتوقع حدوث مشكلة، فتركت الإناء على الأرض، وعادت إلى البيت، فى الوقت الذى اندفع فيه الديك إلى الأمام، لالتقاط حبوب التصقت بقاعدة الإناء وللقفز داخله، مرجئًا ما كان بصدد فعله فى الدجاج. فى تلك اللحظة خرج "جيان"، وأمكنه ملاحظة تعبيرات النفور على وجهها، قبل أن تسارع بإخفائها، وعندما استشعرت الغضب والحنق فى وجهه، سألت نفسها: كيف تجرؤ على البحث عنه من أجل أن تستشعر أسفًا عليه!. كان قد داخله شعور بالذنب بسبب صمته الذى استمر طويلاً، وفكر فى العودة لرؤيتها، لكن الآن عرف أنه كان على صواب. تسلق الديك أعلى الإناء، وقفز بعيدًا وبدأ يختال فى مشيته. كان الديك يمثل الشىء الوحيد الذى يجذب الانتباه فى المكان، يصيح والتاج فوق رأسه، صيحات مستعمر، يشمت فى عدو مهزوم.

"ماذا تريدين؟". نظرت "ساى" إلى عينيه وفمه، وقرأت ما يفكر فيه، وتذكرت أنه هجرها فغمرها شعور بالغضب الحاد. منافق قذر، يدعى شيئًا ويفعل شيئًا آخر. لا شىء فى جعبته غير الأكاذيب.. وقع بصرها على حمام خارجى، مصنوع من أربعة أعمدة من أعواد البامبو وقماش الخيش الرث.

ربما كان يأمل فى أن التملق يسهل عليه كسب قاطنى منزل "تشوأويو" إلى جانبه، إذا نجح فى اللعب بما لديه من أوراق، وعندئذ يمكن لعائلته كلها الانتقال إلى المنزل، ويمكنه استعمال دورات المياه الفسيحة التى يبلغ حجم الواحد منها حجم بيته كله. ربما يظهر على "تشوأويو" بعض التشقق، لكنه كان فى وقت من الأوقات على قدر من الفخامة والعظمة، تتجلى فى البوابة الحديدية ذات الرتاج الأسود، والأعمدة الحجرية، والمدافع الرابضة أعلاه، التى كساها الطحلب والغبار.

كانت شقيقته تنظر إليهما فى فضول. "ماذا تريدين؟".. كرر جيان سؤاله بصوت جامد. لم تأت "ساى" لكى تلقى بنفسها فى أحضانه، ولكى تسأله لماذا لم يغفر لها كما غفر لها من قبل بعد شجار الكريسماس، ولن تحقق له ما يريد بأن تقر بضعفها أمامه الآن، وبدلاً من ذلك قالت إنها أتت لشأن يخص الأب "بووتى".

غضبها من افتقاد صديقها للعدل تحول سريعًا إليها، فقد أجبر الأب "بووتى" على أن يستقل عربة

جيب ويغادر إلى مطار "سيليجورى"، وقد فقد كل شىء إلا ذكرياته: تلك المحاضرة التى كان قد ألقاها، حول الكيفية التى تساهم بها صناعة اللبن والزيد والجبن فى خلق اقتصاد الصناعات الصغيرة على النمط السويسرى فى كاليمبونج، والتى قوبلت بالترحيب الحماسى الحار.. وقصيدته الشعرية التى كتبها حول بقرة، ونشرت فى المجلة الأسبوعية المصورة "إلستريتيد ويكلى".. والأمسيات الدافئة الجميلة فى شرفة منزل العم "بوتى"، تحت ضوء القمر وبصحبة صوت الموسيقى.

"انظر إلى ما تفعلونه بالأب "بووتى".. اتهمت "جيان". "ما الذى أفعله؟ ما علاقتى بما جرى للأب "بووتى"؟.. حسنًا، هل يتعين على النيباليين أن يظلوا على بؤسهم وتعاستهم لمائتى عام أخرى، حتى لا يكون لدى الشرطة مبرر لترحيل الأب "بووتى"؟. غادر "جيان" بوابة البيت وسار بعيدًا.

"نعم، كان من الأفضل أن تذهب أنت وليس الأب "بووتى".. تعتقد أنك شخص رائع؟ حسنًا، هل تعلم أنك لست كذلك؟! لقد فعل الأب "بووتى" الكثير جدًا للناس هنا، فى حين لم تفعل أنت شيئًا لهم".

استشاط "جيان" غضبًا، وقال: "فى الحقيقة أن طردهم له يعد شيئًا طيبًا.. من يحتاج أناسًا سويسريين هنا؟.. ألم نقم بإنتاج اللبن على مدى عدة آلاف من السنين؟". سألت "ساى" فى حيرة: "لماذا لم

تقم أنت إذن بصناعة الجبن؟". قال: "نحن نعيش فى الهند، شكرًا جزيلاً، نحن لا نريد أى جبن، وآخر شىء نحتاجه هو السيجار المحلى بالشوكولاتة".

"نفس النغمة القديمة إذن".. قالت "ساى" وقد غمرتها رغبة فى أن تنشب أظافرها فيه، وتقتلع عينيه، وتركله بقدميها. وأضافت "ساى" ساخرة: "ألا تدرك أهمية التحضر؟!". قال "جيان" وقد تملكه الغضب: "هذا ليس تحضرًا يا حمقاء.. التحضر يعنى المدارس والمستشفيات". آلمها أن يجرؤ "جيان" على أن ينعتها بالحمق وقالت: "ولكن يجب أن يكون هناك معيار للتحضر، وإلا فإن كل شىء سيهبط مستواه إلى نفس المستوى الذى أنت وعائلتك عليه".

ما قالته "ساى أصابه بصدمة شديدة، إلا أنها فى اللحظة نفسها، كانت ترغب فى أن تصدق أى شىء يتصل بالجانب الآخر "لجيان"، الذى قال: "أتعتقدين أن الرفاهية السويسرية المتمثلة فى أنواع الشوكولاته الفاخرة والساعات الفخمة هى مقياس التحضر؟.. إن اعتقادك هذا بالطبع يخفف من حدة شعورك بالذنب.. آمل ألا يقوم شخص ما بإشعال النار فى منزلك لسبب بسيط وهو أنك حمقاء".

بعد أنه نعتها بالحمق مرة ثانية، قالت: "إذا كان هذا تفكيرك، لماذا لا تقاطع الجبن الذى تهاجمه بدلاً من التهامك له؟ منافق!".

انتهى بهما الحديث إلى نوع من التهدئة، صاحبتها عودة روح الفكاهة إلى "جيان" الذى بدأ

يضحك وتعود عيناه إلى سابق عهدها، معًا استعادا الألفة والحميمية من جديد، وانتقلت مشاعرهما إلى المنطقة الرمادية التى جعلتهما مجرد اثنين عاديين يفتقدان إلى القوة الأخلاقية، وإلى نوع من التآلف بين الأضداد، ويعتمدان مبادئ رخوة تجعلهما لا يفصحان إلا عن نصف ما يعتقدانه، فهما يريدان المستورد من الجبن والشوكولاته ولكنهما فى الوقت نفسه على استعداد لإبداء استيائهما ورفضهما لهذه الأشياء الأجنبية.

بدأت "ساى" تضحك قليلاً أيضًا، وبنغمة صوت تريد دفع اتهام ما عنها، قالت: "مومو".. عندئذ، وفى لمح البصر، تبدلت ملامحه، وظهر الغضب عليه مرة أخرى، وتذكر أنه لا يرغب فى أن ينتهى بهما الحديث إلى ضحك على لقب عائلته الطفولى، وإلى رقة ولطف بعينيها، أو أن ينتهى سجالهما بأن تدفعه دفعًا إلى الاعتذار من خلال محاولتها كبح غضبه وترويضه. كان "جيان" فى حاجة إلى أن يبدو رجلاً قوى الشكيمة.

نعم، كم كان فى احتياج إلى أن يكون قويًا. هو "جيان" الذى كان يعتقد أنه لا شىء أكثر إمتاعًا من صيحة النصر فى مواجهة الظلم، الذى كان يرفع قبضته أمام السلطة، الذى كان يعتقد أن بريق التحدى فى عيون أصدقاء الكلية قرين التطهر من الخزى والخزلان، الذى كان يطالب بحقه فى الأراضى التى

على جانب التل، هو نفسه "جيان" الذى كان يستمتع فى كل مرة يفكر فى الشقيقتين بمنزلهما "مون آمى" بلهجتهما الإنجليزية المزيفة وهما يرتعشان ووجهاهما شاحبان من الخوف، وهو الذى كان بطل المظاهرة المطالبة بالحق فى الأرض.

عندما قفز كل من "شانج"، و"بانج"، و"جيان"، و"البومة"، و"الحمار" إلى داخل العربة الجيب، وانطلقوا إلى محطة الوقود، وملأوا خزان العربة بالوقود، وتابعوا انطلاقهم دون أن يدفعوا نقودًا، كان "جيان" يرتعش تمامًا مثل مدير محطة الوقود الواقف فى الجانب الآخر من النافذة، وكان غير قادر على التحكم فى فورة النشاط والتشنج التى انتابت عضلات قلبه. كان هناك هؤلاء الذين أثار التحدى مشاعرهم، لكن "جيان" كان لا يجد نفسه واحدًا منهم. وكان غاضبًا لأن عائلته كانت تعوّل عليه كثيرًا، وتنظر إليه باعتباره الملجأ والملاذ، حتى منذ أن كان صبيًا، لأنه ببساطة كان ذكرًا، وطالما أمضى الليالى متيقظًا يلفه القلق من عدم تمكنه من تحقيق ما يصبو إليه. لكن كيف يمكنه أن يحمل أى احترام لنفسه وهو يعلم أنه لا يعتقد فى أى شىء محدد وعلى وجه الدقة؟. كيف يمكنه أن يجد المعنى والكبرياء فى حياته؟

***

قالت "ساى" وكأنها تقرأ أفكاره: "أنت تكرهنى لأسباب أخرى لا تتصل بى من قريب أو بعيد، لذا فأنت غير عادل فى حكمك علىّ".

"ما العدل؟ هل لديك فكرة عن العالم؟ هل تزعجين نفسك بالنظر حولك؟ هل لديك أى فهم لماهية العدل ولآلية تطبيقه أو للآلية التى تمنع تطبيقه؟ أنت لست طفلة الآن، أتعلمين ذلك؟.

"وكيف كبرت أنت؟! تخشى حتى من القدوم لتدرس لى لأنك تعلم أنك تصرفت بطريقة بغيضة مؤذية، وأنك جبان إلى درجة أنه يصعب عليك الإقرار بذلك! وتستمرئ على الأرجح الجلوس فى انتظار أمك لكى ترتب زواجك. عائلتك التى من طبقة اجتماعية دنيا، وغير متحضرة، ستقوم بتزويجك بعد أن تتيقن من حماقتك، وستشعر أنت طوال حياتك بأنك امتلكت زوجة دمية. لماذا لا تقر بذلك يا جيان؟".

جيان! كيف تجرؤ على ذلك؟ من يقدم على الزواج منها!.. "هل تعتقدين أن من الشجاعة أن أجلس فى شرفتك؟ لا يمكننى ان أضيع حياتى فى تناول شرائح الجبن المكسوة بالجبن، أيمكننى ذلك؟"

"انا لم أطلب منك ذلك، لقد فعلت أنت ذلك برغبتك الحرة، ولم نطلب منك شيئًا فى المقابل". اكتشفت "ساى" ثغرة جديدة تهاجم منها، واستمرت فى إطلاق كلمات مروعة شديدة الإيذاء من فمها، لكنها كانت وكأنها تقف فوق خشبة مسرح تمثل دورًا يفوقها قوة وحيوية. فجأة اندفعت نحوه بقوة مشهرة يديها وأظافرها، وكأنها تعلمت شيئًا من تصرفات الدجاج قبل دقائق، فخمشت ذراعيه تاركة عليها

خطوطًا حمراء.. وقالت فى ضحكات مفاجئة: "أنت أخبرتهم عن البنادق، أليس كذلك؟ أنت أخبرتهم لكى يأتوا إلى "تشوأويو"؟ أنت فعلت ذلك، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟.

حدث ذلك الانفجار المفاجئ منها برغم أنها لم تفكر فى إمكانية حدوث ذلك من قبل.. ربما كان سبب هذا الانفجار غضبها وغياب "جيان" وتجاهله لها فى "دارجيلينج". قال "جيان": "أنت مجنونة". صاحت "ساى": "رأيت ذلك فى عينيك".. وقفزت نحوه وكأنها تحاول الإمساك بدليل الإدانة الذى لاح فى عينيه، لكنه أمسك بها قبل انقضاضها عليه وألقى بها جانبًا داخل شجيرات خفيضة كثيفة الأغصان.

"جيان؟".. صاحت شقيقته فى صوت متردد فى الوقت الذى تمكنت فيه "ساى" من الوقوف.. عندئذ ارتسم الرعب على وجهيهما من فكرة أن هناك من كان يراقبهما. قال لشقيقته: "لا شأن لك بما يدور هنا، عودى إلى المنزل". وصاح فى وجه "ساى": لا تأتى إلى هنا مرة ثانية"، وفكر فى أن والديه سيكونان على علم بكل شىء.

صاحت "ساى" فى شقيقته: "شىء طيب هذا الذى رأيته وسمعته، اذهبى وأبلغى والديك بأنه صرح لى بحبه، وقدم كل أنواع الوعود، ثم بعث باللصوص إلى منزلنا. سأذهب إلى الشرطة وعندئذ سنرى ماذا سيحدث لعائلتك. سيقتلعون عينى "جيان"، ويفصلون

رأسه عن جسده، ثم تأتون جميعًا تجهشون فى البكاء وتسألون المغفرة، نعم.

كانت الأخت الصغيرة تحاول أن تسمع ما يقال، لكن "جيان" أمسك بضفيرة شعرها وجذبها إلى البيت. لقد خانته "ساى" وقاده ذلك إلى خيانة آخرين، ناسه، وعائلته، لقد أغوته، وتجسست عليه، وعاملته بازدراء، وأحبطته، وجعلته يتصرف على نحو سيىء. لا يمكنه أن ينتظر اليوم الذى تطلعه أمه فيه على صورة فوتوغرافية لفتاة يتعين عليه أن يتزوجها، جميلة، بخدين مثل تفاحتين. لكن "ساى" لم تكن شخصًا ملهمًا، بل هى انعكاس لكل التناقضات من حولها، ومرآة أظهرت له نفسه بوضوح شديد.

تبعت "ساى" الأخ والأخت، لكنها توقفت مستشعرة الخجل، ما الذى فعلته؟ فقد يضحكون عليها باعتبارها فتاة يائسة قطعت مسافات طويلة وراء حبيب كان قد هجرها. وسيضربونه على ظهره مرحبين ومهللين بانتصاره، وستجد نفسها فى موقف مهين ومزرى. وكلما قال لهم: "هذه الفتاة المجنونة تطاردنى". كلما رحب الرجال بذلك، وعلا نجمه فى كانتين "ثابا"، وشعر بالزهو. شعرت "ساى" بالمهانة وهى ترقب "جيان" وشقيقته يدخلان بيتهما.

ببطء، وفى إعياء، واصلت "ساى" سيرها نحو منزلها. الضباب الكثيف والبخار والدخان فى السماء القاتمة، ورائحة طعام البطاطس تأتى من البيوت

المتجاورة على طول الطريق. تلك الرائحة التى تجلب الراحة بالتأكيد إلى قاطنى هذه البيوت، لا يمكنها أن تجلب الراحة إلى "ساى". لم تستشعر الشفقة ذاتها التى استشعرتها من قبل عند تأملها هذه البيوت، وأسرّت إلى نفسها أنه حتى أولئك الفلاحين الفقراء يمكنهم الشعور بالحب والسعادة، لكن هى ليست كذلك.

عند وصولها إلى المنزل، رأت اثنين يتحدثان إلى الطباخ والقاضى عبر الشرفة، أحدهما امرأة تشكو: "إلى من يلجأ المرء عندما يكون فقيرًا؟ الناس امثالنا يتعين عليهم أن يعانوا فى حياتهم". "من أنت؟". كانت امرأة تطلب الرحمة لذلك السكير الذى كانت الشرطة قد ألقت القبض عليه، واستجوبته حول حادث سرقة البنادق، وجريت عليه أحدث تقنيات التعذيب. قاطنو منزل "تشوأويو"، كانوا قد نسوا كل شىء عن ذلك الرجل، لكن زوجة الرجل جاءت بصحبة والد زوجها لرؤية القاضى ،بعد أن قطعا قرابة نصف يوم سيرًا على الأقدام من قريتهما وبعد أن عبرا نهر "ريلى".

"ماذا سنفعل؟ نحن لسنا نيباليين.. هو برىء ولم يكن يعلم شيئًا عنكم.. كان بالسوق كالمعتاد والجميع يعرف ذلك". غمرها بكاء ونشيج ونظرت إلى والد زوجها لمساعدتها. لا جدوى من شكوى وبكاء المرأة، ولن يجديها فى شىء والد زوجها الذى كانت ملامحه تشي بخوفه الشديد. قبل أن يتحول ابنه إلى معاقرة الشراب، كان يعمل فى بناء الطرق وفى نقل الأحجار

من مجرى نهر "تيستا" إلى شاحنات المقاولين، ثم إلى مواقع البناء. أيضًا كانت زوجة ابنه تعمل فى إنشاء الطرق السريعة. لكن بعد غلق الطرق فقد الزوج والزوجة عملهما.

"لماذا جئت إلىّ؟ اذهبى إلى الشرطة فهى التى ألقت القبض على زوجك ولست أنا".. وأضاف القاضى محذرًا: "من الأفضل أن تغادرا الآن". قال الطباخ: "ليس من الصواب أن تذهب هذه المرأة إلى الشرطة، فسوف يعتدون عليها على الأرجح". بدا على المرأة أنها قد تم الاعتداء عليها واغتصابها بالفعل، فملابسها ملوثة وبعض أسنانها مكسرة، والبعض الآخر يغطيه السواد. هى واحدة من نساء التلال التى انحنت ظهورها من حمل الأحجار، وهى أيضًا من تلك النساء اللاتى يفضل الأجانب التقاط صورة فوتوغرافية لإحداهن كبرهان على الفقر المدقع والمروع.

"جورج!.. جورج!" صاحت زوجة لزوجها بداخل سيارة على الطريق، وأشارت مرتاعة إلى المرأة عند شرفة منزل "تشوأويو"، وسريعًا أخرج الزوج رأسه وكاميرته من نافذة السيارة، والتقط صورة فوتوغرافية وصاح: "حصلت عليها يا حبيبتى!"

"ساعدنا".. صاحت المرأة منحنية الظهر، ملوثة الملابس، مكسرة الأسنان، فى توسل. لكن يبدو أن القاضى قد تذكر فجأة شخصيته، وتصلبت ملامح

وجهه، ولم يقل شيئًا، ودون أن ينظر يمينًا أو يسارًا، رجع إلى رقعة الشطرنج وواصل اللعب. وتذكر القاضى أيضًا، أن على المرء فى هذه الحياة، أن يتوقف عن التأمل إذا أراد أن يحتفظ بصلابته، وإلا فإن الشعور بالذنب أو الشفقة قد يفقده كل شىء حتى نفسه.

الفوضى التى انتشرت وعمت كل شىء، هى سبب المأزق الذى وجد نفسه فيه، والسبب الذى جعله يتقاعد. أيضًا الفوضى المحتدمة فى الهند لا تترك مجالاً لتحقيق العدل، لأنك إذا أعطيت فقراء الهنود ما يلبى احتياجاتهم الضرورية، فإنهم سيأخذون كل شىء لديك.

تطلع الطباخ إلى الرجل والمرأة وأطلق تنهيدة حارة. نظرا إلى "ساى"، التى لم تستطع النظر مباشرة إلى عينى المرأة المرتاعتين، والتى أشاحت بوجهها بعيدًا، قائلة لنفسها إن ذلك الأمر لا يعنيها فى شىء. كان مزاج "ساى" لا يقبل بأن يستشعر عطفًا أو شفقة.

استغرقا وقتًا قبل أن يغادرا القاضى والطباخ و"ساى"، فقد سارا بخطوات إلى البوابة وجلسا خارجها، وأشار الطباخ إليهما بالذهاب مثل بقرتين، ثم جلسا القرفصاء لفترة دون أن يتحركا، وهما يحملقان بعيونهما الخالية من أى انفعال أو أمل. راقبا القاضى وهو يقوم بإطعام الكلبة "مات" وشعر بالغضب والحرج عندما وجدهما يرقبانه، وتساءل عن

سبب عدم مغادرتهما، وأخبر القاضى: "قل لهم إن يغادرا وإلا سنطلب الشرطة". وعبر البوابة طالبهما الطباخ بالمغادرة، ولكنهما انسحبا فقط إلى جانب التل، ثم استقرا ثانية خلف بعض الشجيرات ذات الأغصان الكثيفة وعلى وجهيهما نفس الملامح الخالية من أى تعبير او انفعال.

توجهت "ساى" إلى حجرتها ودفعت الباب وراءها بعنف، واندفعت بقوة لترى انعكاس صورتها فى المرآة، متسائلة عما سيحدث لها. إذا كان "جيان" سيعيش فترة مراهقته مرتبطًا بقضية الدفاع عن وطنه، فهى قد غادرت مراهقتها إلى الأبد بعد الأحداث المخجلة التى ألمت بها.

أجهشت بالبكاء وسكبت الدموع لبعض الوقت، ولكن بالرغم منها، داهمتها صورة المرأة المتوسلة، ثم هبطت درجات السلم وسألت الطباخ: "هل أعطيتهما أى شىء؟". قال الطباخ وملامح البؤس على وجهه: "لا". وأضاف: "ماذا يمكن أن نفعل؟". ثم جاء بإناء به أرز لهما، لكنهما كانا قد اختفيا.

- ٤١ -

سماء "مانهاتن" ملبدة بالغيوم ومساحات لونية صفراء، يُسمع فيها صوت هسيس ريح قوية تحرك أغصان أشجار الكرز فى حديقة "ريفر سايد بارك"، وتلطم وجه "بيجو" الذى يعانى من القلق الذى استشعره بعد مكالمته الهاتفية لوالده فى "كاليمبونج"، وبعد محاولاته لإعادة الاتصال الهاتفى فى الأيام التالية دون جدوى. "مزيد من القلاقل ستستمر لبعض الوقت من قبل هؤلاء الناس العدوانيين".. قال مستر "أيب".

على طول شاطئ نهر "هدسون" تعلو موجات المياه وتهبط فى إيقاع يصاحب عزف الريح العاصفة. "لا أتحدث الإنجليزية".. قالها "بيجو" لوجه سمين من تلك الوجوه المعتادة فى محال ماكدونالدز، كان يسير إلى جواره على شاطئ النهر. وتحدث إليه عن "هدسون" الممتلئ بالحيتان الميتة، على حد ما جاء فى

رواية "موبى ديك". "لا أتحدث الإنجليزية".. اعتاد "بيجو" قولها لأناس مجانين كانوا يدخلون معه فى محادثات فى هذه المدينة، ولمتشردين سريعى الغضب وسيئى الطباع، ولآخرين يرتدون زى أصحاب مذاهب دينية، من بينها الهندوسية، ويقفون على نواصى الشوارع فى انتظار من يستمع إليهم وإلى ما يقولونه.

ماذا تعنى الهند لهؤلاء الناس الذين يمسكون فى أيديهم كتابًا على غلافه صورة الإله "كريشنا" فى أرض المعركة، التى تشبه ملصقات بعض الأفلام الهندية؟ كم من هؤلاء يعيشون حياة مزيفة لا صلة لها ببلادهم؟ هل يشعرون بأنهم على غير حقيقتهم؟

أثناء سيره عائدًا إلى "غاندى كافيه"، فكر "بيجو" فى حياته التى لم تكن تعنى أحدًا على الإطلاق، وفى حياته الخرقاء فى أمريكا، وتساءل: ألا يتعين عليه أن يعود إلى حياة يتحرر فيها مما يتحكم فى مصيره؟ ماذا سيحدث له إذا واصل البقاء هنا؟ هل يصبح مثل "هاريش هارى" ويختلق نسخة زائفة من نفسه؟

مستر "كاكار"، مالك وكالة السفر "شنجارى لا" التى افتتحت مؤخرًا فى نفس مجمع العمارات الذى به "غاندى كافيه"، استمر فى طلب طعام غداء مكون من لحم الضأن والكارى والخضراوات كل يوم، واختار "بيجو" لمهمة جلب الطعام له، وقال له أثناء قدومه بالطعام: "أنت تنقذنى من طعام زوجتى، ها ها، الذى سنلقى به فى دورة المياه". قال "بيجو" محاولاً مساعدة

الرجل المقيم على الناصية الذى لا مأوى له: "لماذا لا تعطى الطعام إلى المتشرد؟". أجاب: لا.. أنت لا تعرف زوجتى، ستأتى إلى هنا فى زيارة مفاجئة وتكتشف أن طعامها يأكله المتشرد، وعندئذ تكون نهايتى".

قال محذرًا "بيجو" وعيناه جاحظتان: "أمتأكد أنت من رغبتك فى العودة؟.. سترتكب غلطة كبيرة.. أمضيت فى هذه البلاد ثلاثين عامًا بغير مشاحنات إلا مع زوجتى الملعونة بالطبع، ولن أعود أبدًا". أضاف: "تعود؟ لا تكن مجنونًا.. وكل أولئك الأقارب الذين يسألونك المال!.. واللصوص والأمراض والحرارة.. وكذلك "راجيف غاندى" الذى سيغتاله أحدهم، بعد أن حل محل "أنديرا غاندى" التى اغتالها أحد السيخ.

"علىّ أن أعود، فوالدى...". قاطعه مستر "كاكار": "تلك المشاعر العاطفية الرخوة!.. أتعلم أن والدى كان يقول لى دائمًا: "ابق بعيدًا، ولا تعود أبدًا إلى هذا المكان الملعون". برغم كل ذلك، قام مستر "كاكار" ببيع تذكرة سفر على طيران الخليج "لبيجو"، خط سيرها: نيويورك ـ لندن ـ فرانكفورت ـ أبو ظبى ـ دبى ـ البحرين ـ كراتشى ـ دلهى ـ كلكتا، ولأنها التذكرة الأرخص ثمنًا، فإن الرحلة تشبه رحلة حافلة تتنقل فى السماء.

"لا تقل إننى لم أحذرك".. قال مستر "كاكار" ثم أضاف بعد لحظة تفكير: "أمريكا فى طريقها لشراء

العالم.. عند عودتك إلى وطنك ستجد الأمريكيين يسيطرون على التجارة والأعمال، وفى يوم ما ستجد نفسك تعمل لدى إحدى الشركات الأمريكية. فكر فى أطفالك، فإذا أنت مكثت هنا، سيحصل ابنك على مائة ألف دولار، نظير عمله فى نفس الشركة التى إذا عمل لديها فى الهند، لن يحصل نظير نفس العمل، إلا على ألف دولار فقط. وكيف يمكنك إذا غادرت أمريكا أن ترسل أطفالك إلى أفضل الكليات العالمية؟ أقول لك سترتكب غلطة كبيرة جدًا. هذا العالم الذى نعيش فيه يا صديقى، فيه جانب يسافر منه الفرد لكى يصبح خادمًا، وجانب ثانٍ يسافر منه الفرد لكى يعاملك كملك. أتريد لابنك أن يكون فى هذا الجانب أم ذاك الجانب؟.. عليك أن تعلم أنك فى اللحظة التى تصل فيها هناك، ستبدأ فى التفكير فى كيفية الخروج من جحيم ذلك الوطن الأم".

لكن "بيجو" توجه إلى حى "جاكسون هايتس"، ومن متجر هناك على شكل مخيم، اشترى جهازى تليفزيون وفيديو، وكاميرا، ونظارات شمسية، وطواقى للرأس كالتى يرتديها لاعبو البايسبول، مكتوب عليها: الحروف الأولى من مدينة نيويورك "NYC"? و"اليانكى" الذى يطلق على الأمريكى، و"أنا أحب كأس شراب البيرة باردًا والمرأة ساخنة"، وساعة منبه رقمية، وجهاز تسجيل مزود براديو، وساعات تقاوم الماء، وحاسبات، وماكينة حلاقة كهربائية، ومحمصة خبز كهربائية، ومعطف شتوى، وجواكت من النايلون،

وقمصان من القطن والبوليستر، وجاكت للمطر، ولحاف، ومظلة، وحافظة جلدية، وأحذية، وسخان صناعة يابانية، ومجموعة سكاكين حادة، وغلاية ماء كهربائية، وزبيب، وكولونيا بعد الحلاقة، وقمصان "تى شيرتس" مكتوب عليها: "أنا أحب نيويورك" و"مولود بالولايات المتحدة الأمريكية"، وزجاجة شراب الويسكى، وبعد لحظة تردد، اشترى زجاجة عطر "وندسونج" نسائى دون أن يعرف وجه صاحبتها.

أثناء قيامه بالشراء، تذكر أيام كان طفلاً ضمن مجموعة أطفال يلعبون لوقت طويل، إلى أن يعودوا إلى بيوتهم مجهدين تمامًا، ويقذفون الأشجار لإسقاط ثمارها وتناولها، ويطاردون السحالى، ويقذفون البنات الصغيرات بذيولها، ويسرقون من المتاجر الحلوى. تذكر "بيجو" السباحة فى النهر البارد، والجلوس على صخرة وقدماه فى الماء، وقضمه لأعواد قصب السكر وامتصاص حلاوته تمامًا، ووجد نفسه يبتسم عند تذكره ذلك الوقت الذى كانت فيه كل القرية، تشاهد مباراة الكريكيت التى فازت فيها الهند على أستراليا، عبر جهاز تليفزيون يعمل ببطارية سيارة، لأن محول القرية الكهربائى كان قد احترق. تذكر أيضًا محاصيل الهند من الغلال وقد تعطنت فى الحقول، وشكوى بائعات الهوى من بوار تجارتهن، لأن كل رجال الهند كانوا لا يغادرون أماكنهم أمام أجهزة التليفزيون.

بالطبع، لم يتجول فى ذكريات تتصل بمدرسة القرية، وناظرها الذى لا يقر بنجاح أى تلميذ إلا إذا

دفع له والداه مالاً، أيضًا، لم يتذكر سقف بيتهما الذى ينهار ويسقط على من فيه عند كل فصل تهب فيه الرياح الموسمية، وكما ماتت والدته تحت السقف المنهار للبيت، ماتت جدته لأمه، ولم يتذكر أيًا من الأشياء التى جعلته يفكر فى مغادرة الهند.

## ـ ٤٢ ـ

عند عودته إلى المنزل، اكتشف "جيان أن الدقائق التى شهدت فيها شقيقته الصغرى عراكه مع "ساى"، كانت كافية لكى يعلم جميع من فى المنزل بما حدث وقد أضيفت له أبعاد تمثيلية، وكان للكلام حول البنادق أثره القوى على جدّته المريضة، فجعلها تصحو من سباتها، تمامًا مثل أخبار القلاقل والاضطرابات التى كانت تتسبب فى إفاقة كبار السن والعجائز المنتشرين على جانبى التل من غيبوبة المرض. شاهدها "جيان" وهى تزحف ببطء نحوه، وتعجب مما تفعله، وعند اقترابها منه وجهت له ضربة قوية على رأسه.. "اكبح جماح نفسك.. أنت لا تستقر فى مكان كالأحمق، ولا تعطى اهتمامًا بدراساتك! إلى أين سينتهى أمرك؟ فى السجن بالطبع". وعاجلته بضربة قوية ثانية.. "ابتعد بنفسك عن المشاكل، افهم ذلك". وسددت له ضربة شديدة أخرى.. "ستبكى مثل طفل رضيع".

قالت أمه: "ربما لم يفعل شيئًا". علا صوت جدته وهى تدمدم: "لماذا قطعت تلك الفتاة كل هذه المسافة إلى هنا إذن؟ بلا سبب؟ ابتعد عن هؤلاء الناس.. ما المأزق الذى وضعت نفسك فيه، ونحن عائلة فقيرة، ويمكن أن نقع تحت رحمتهم.. لقد جننت وأمك أضعف من أن تسيطر عليك ووالدك غائب".

فى ذلك اليوم، الذى جاء إليه أصدقاؤه، استمعت جدته إلى صوت محرك السيارة الجيب، وزحفت إلى الخارج وهى تنعم النظر بعينيها المتعبتين.. "إنه مريض.. مريض جدًا". سأل أحدهم: "مما يشكو؟". قالت الجدة: "لا يتوقف عن دخول الحمام، من المؤكد أنه تناول طعامًا فاسدًا". قال آخر: "يتعين على كل عائلة أن ترسل رجلاً يمثلها فى المسيرة غدًا التى تبدأ من "ميلا جراوند"، وخلالها سيتم إحراق وثيقة المعاهدة الهندية النيبالية". قالت الجدة: "إذن تريدونه لكى يقضى حاجته بلا توقف على كل المشاركين بالمسيرة".

استقلوا سيارتهم صوب كل المنازل على جانب التل، ليذكروا كل شخص بالأمر الصادر من الحركة، والذى يقضى بضرورة أن يبعث كل منزل بممثل عنه للسير فى تظاهرة الغد، بالرغم من أن هناك كثيرين يدعون بأن لديهم مشكلات فى المعدة أو فى القلب، أو يشكون من ألم بالظهر أو التواء فى رسغ القدم، ومنهم من حاولوا تقديم شهادات طبية تبرر عدم مشاركتهم

فى المسيرة. لكن الأمر الصادر من الحركة يفيد بأن أفراد العائلة ليسوا جميعًا مرضى، ومن ثم ترسل شخصًا آخر غير الشخص المريض لكى يمثلها فى التظاهرة.

شعر "جيان" بشىء من الراحة، وفكر فى أن ينأى بنفسه عن العالم المضطرب فى الخارج لبعض الوقت، وعندما يستعيد العالم فى الخارج أمنه وسلامه، سيقدم على زيارة "ساى" ويتملقها ويتزلف إليها حتى يصبحا أصدقاء مرة أخرى. أسرّ لنفسه أنه لم يكن شخصًا سيئًا وأنه لم يرغب فى الشجار معها، وأن أساس المشكلة هى أنه حاول أن يكون جزءًا من أسئلة كبرى، وحاول أن يصبح جزءًا مما يدور فى أروقة السياسة ودهاليز التاريخ.

أرجع "جيان" معاملته المريعة والمروعة لـ"ساى" إلى رغبته فى أن ينقذ نفسه من الخزى أو العار الذى اعتراه وداهمه، وأمكنه بعد ذلك أن ينقذ نفسه ويكتشف أشياءً نفيسة بالمصادفة بإبداء احترامه لجدته والنزول لأوامرها. وانتهى إلى أن الرضا أو القناعة ليس أمرًا سهلاً.

كان لديه الوقت ليفكر، وليخرج ما استقر من رواسب فى سرة بطنه، وليستخدم الطرف المدبب للقلم الرصاص فى إخراج الإفراز الشمعى من أذنيه، وليستمع إلى الراديو، وليستلقى على ظهره مجريًا بقدميه المرفوعتين إلى أعلى تمرينات رياضية صعبة.

اعتراه شعور بالذنب: كيف أمكنه أن يخبر الصبية عن البنادق؟ كيف؟ كيف أمكنه أن يضع "ساى" فى مواجهة مثل هذا الخطر؟ هل يمكنه أن يكون سعيدًا وبريئًا بعد الذى فعله؟

وبينما تستلقى "ساى" فى حجرتها وهى تتجرع الألم، توصل جيان إلى أن للحياة البسيطة متعتها، وتألم لأنه تسبب فى إيذاء آخرين، ولأنه غاب عن التظاهرة المهمة، الدالة على طبيعة الصراع، والتى يتم فيها إحراق وثيقة المعاهدة الهندية النيبالية التى وقعت فى عام ١٩٥٠.

"يتعين على أحد منا أن يذهب".. قال الطباخ محدثًا القاضى، بعد أن قدم الصبية إلى "تشوأويو" وطالبوا بحضور ممثل عن المنزل إلى المسيرة. قال القاضى: "حسنًا.. من الأفضل أن تذهب أنت إذن".

## - ٤٣ -

٢٧ يوليو ١٩٨٦

فى المساء أمطرت السماء، وصلّى الطباخ من أجل أن يكون الطقس سببًا يضطره إلى عدم الذهاب، لكن فى الصباح توقف سقوط المطر، وبدت أجزاء من السماء ترتدى ثوبًا أزرق، بعد السواد والقتام الذى أتت به الريح الموسمية. ظل فى سريره غير راغب فى النهوض، على أمل أن تسوء حالة الطقس ثانية، لكن عندما أدرك أنه لا يمكنه التأخر عن الذهاب أكثر من ذلك، نهض وارتدى خفيه، وسار لا يلوى على شىء.

التقى صديقه الحارس، وتوجها معًا إلى "ميلاجراوند" عبر البوابة التى وضع فوقها تمثال "غاندى" الذى يذكر باستقلال الهند، وهناك تجمع الآلاف الذين قدموا، ليس فقط من "كاليمبونج"، وإنما من قرى ومدن كثيرة محيطة، من "مريك"، و"باسومبانج" و"وادى سورينى"، و"آلوبارى"، و"وادى

لابونج"، و"كيرسونج"، و"بيشوك"، و"مونجبوتيستا"، والكثير من الأماكن المجاورة. كان من المقرر أن تتوجه المسيرة إلى قسم الشرطة، حيث يتم إشعال النار فى وثيقة المعاهدة الهندية النيبالية.

"يتمتع أفراد "الجبهة الوطنية لتحرير جورخا" بمهارة التنظيم.. لم يكن فى استطاعة الطباخ إلا أن يشيد بهذا النوع من النظام الذى يندر رؤيته فى "كاليمبونج". انتظر الطباخ وصديقه واقفين لساعات، وأخيرًا، عندما اشتدت حرارة شمس منتصف الظهيرة فوق رأسيهما، قام رجل بالنفخ فى صفارة ثم أعطى تعليماته بالتحرك. كان البعض يلوح بأيديهم وقبضاتهم، والبعض الآخر يمسك بالمناجل التى كانت نصالها تلمع فى أشعة الشمس، والجميع يهتف: "تحيا جورخا".. "أرض جورخا لمواطنيها". قال الحارس مؤملاً: "يتعين علينا أن ننتهى من هذا فى غضون ساعة".

كل شىء كان يسير وفق ما خطط له، وبدأ البعض الذى شعر بالجوع فى دس لقيمات فى أفواههم، ولكن، وعلى نحو مفاجئ، عند وصولهم إلى مفترق الطرق، وقع حادث لم يكن متوقعًا. انطلق وابل من الأحجار من خلف مكتب البريد، حيث كان الطباخ ينتظر فى لهفة خطابات من "بيجو"، والذى نظر إليه بحزن لأنه توقف عن العمل وأغلق.

ضربت قذائف الأحجار أعلى الأسطح مصدرة أصواتًا عالية، ثم بدأت تضرب بقوة أكبر فى اتجاه

الحشود وأصابت عددًا منهم، فانقلبوا على أعقابهم راجعين إلى الخلف والدماء تسيل منهم.

قال بعض المشاركين فى المسيرة أن من قاموا بقذف الحجارة قد تم استئجارهم من قبل الشرطة، حتى يقوم المتظاهرون بالرد بقذف أفراد الشرطة بالحجارة، الشىء الذى يعطى الشرطة مبررًا لما تقوم به من أعمال عنف ضد المسيرة، لكن أفرادًا من الشرطة نفوا ذلك قائلين إن المتمردين كانوا قد جلبوا معهم الأحجار لكى يلقوها فى وجه القانون والنظام.

امتلأ فضاء المكان بالأحجار والزجاجات الفارغة وأصوات صراخ، وبدأ الحشد فى جمع الأحجار، وأفراد الشرطة فى مطاردة المتظاهرين، وأصابت قذائف الأحجار الفريقين، وانهال أفراد الشرطة بعصيهم على المتظاهرين الذين بدأوا فى استعمال المناجل. التى نجم عنها إصابات بجروح فى الوجه واليد والأنف والأذن. وانتشرت شائعة تقول بوجود رجال اندسوا وسط المتظاهرين وبحوذتهم بنادق، وربما كانت هذه الشائعة حقيقية، وربما كان يجانبها الصدق.

لكن كلما أظهر المتظاهرون صلابة، وردوا غارات أفراد الشرطة، ورفضوا أن يتم تفريقهم، كلما زاد شك الشرطة فى أن المتظاهرين مسلحون جيدًا، وأن استمرارهم فى التحدى والمواجهة لا يمكن تفسيره إلا بكونهم مزودين بالأسلحة. ولم يتحمل أفراد الشرطة

خطورة شكوكهم، وأطلقوا النار، وفى الحال تفرق من كانوا فى مقدمة التظاهرة، وركضوا يمينًا ويسارًا. وأسفرت النتائج الأولى السريعة وغير الدقيقة لهذه الموقعة عن مصرع ثلاثة عشر شابًا صغيرًا.

ما حدث يجيب على السؤال الدائر حول الكيفية التى يتحرك بها التاريخ: بطء فى البناء، وسرعة فى الهدم وإشعال الحريق، وبينما يحدث ذلك فى وتيرة غير منضبطة فى السرعة والأداء، تكون الضغائن القديمة قد ابتلعت فى أتونها العديد من الشباب الصغير، وتصبح فى النهاية المسافة التى تفصل بين الحياة والموت صغيرة جدًا إلى درجة لا يمكن إدراكها.

بعض هؤلاء الراكضين استداروا إلى الخلف، ليهاجموا أفراد الشرطة من جديد فى شراسة، وهم يصيحون صيحات الانتقام والأخذ بالثأر، واستطاعوا انتزاع البنادق من أيديهم، عندئذ وجد أفراد الشرطة أنفسهم فى الموقف الأضعف، وبدأوا فى التوسل والتذلل وطلب العفو، بعد أن لقى واحد منهم مصرعه طعنًا بسكين، وكسر ذراع آخر، وأصيب آخرون بجراح. وشوهدت جثث بغير رءوس تركض لبضع خطوات والدماء تندفع من أعناقها بغزارة قبل أن تسقط على الأرض، ويتضح للرائى جزء من حقيقة المخلوقات الحية، وهى أنها بعد أن تموت وتفارق الحياة، يقوم الجسد بالتغوط على نفسه فى مشهد أخير للخزى والإذلال.

ركض عدد من أفراد الشرطة إلى الخلف، على نحو يشابه الحركة العكسية لشريط فيلم سينمائى فى اتجاه قسم الشرطة، لكنهم وجدوا أن العديد من زملائهم قد سبقوهم إلى هناك، وأغلقوا بابه عليهم، وارتموا على الأرضية، والخوف والفزع يسيطر عليهم، غير عابئين بتوسلات زملائهم الذين يستجدونهم فتح الباب لهم. ولم يكن أمام أفراد الشرطة هؤلاء، الفارين من مطاردة المتظاهرين لهم، والذين لم يجدوا الملجأ داخل قسم الشرطة، إلا أن يركضوا فى اتجاه المنازل والبيوت لعلهم يجدوا فيها الملجأ والملاذ.

"لولا" و"نونى"، اللتان كانت قد استضافتا صبيين من الحركة الوطنية لتحرير جورخا فى الليلة الماضية، وجدتا ثلاثة من رجال الشرطة يطرقون على الباب الخلفى لمنزلهما "مون آمى"، وهم فى حالة يرثى لها من الخوف والفزع. وبينما كانت "لولا" تقوم بإسدال الستائر فى حجرة الاستقبال التى جلسوا فيها، قالت لهم: "أمر محزن ومثير للشفقة.. أنتم من الشرطة؟!.. لم تساعدونا طوال هذا الوقت، والآن، كما ترون، تحتاجون مساعدتنا!". قالت لولا ذلك، لأن أفراد الشرطة الآن تحت رحمتها، وليست هى التى تحت رحمتهم.

"مدام، من فضلك، ابق علينا بالداخل، ولا تطردينا، سنقوم بعمل أى شىء تريدينه، نحن مثل أبنائك". ساخرة، قالت "لولا": "ها ها.. الآن تنادوننى،

مدام، هذا أمر يثير الضحك، هذه ليست الطريقة التى تصرفتم بها منذ أسبوع مضى".

استمرت أعمال الشغب فى السوق، حيث قام المتظاهرون بدفع عربات الجيب التابعة للشرطة فى الوادى الضيق شديد الانحدار، وبإشعال النار فى الحافلات، وغابات البامبو، التى ساعدت على انتشار النيران، التى انعكس توهجها فى الضباب الكثيف الذى يغطى السماء فى تلك الأمسية.

الجميع كان يركض، المشاركون فى التظاهرة على غير رغبة منهم، والمحرضون على قيامها، والقائمون على تنظيمها، وأفراد الشرطة، وانتشروا داخل المسارات الجانبية المؤدية إلى "بونج بستى" وسوق "تيستا"، وركض الطباخ وحده بعد أن فقد أثر صديقه الحارس الذى ركض فى اتجاه آخر، وتسارعت خطوات ركضه بأقصى ما فى وسع رئتيه وساقيه وضربات قلبه داخل صدره وحلقه وأذنيه. وعندما أحس بأن ساقيه قد عجزتا عن حمله، توقف وجلس وجسده كله يرتعش أمام بناء من العصر الفيكتورى، كان مقرًا لقسم التحقيقات الجنائية، وأمام "مورجان هاوس" الذى بناه البريطانيون، والذى أصبح الآن أحد منازل الضيافة.

واصل الطباخ سيره عائدًا إلى "تشوأويو"، وعند رؤيته لعربات الجيش المتجهة إلى المدينة، كان يختبئ داخل الشجيرات الكثيفة الأغصان على جانب

الطريق، وبدلاً من أن يخيف الجيش الأعداء الأجانب، وبدلاً من أن يستعد لأية مواجهة مع الجيش الصينى، فإنه يواجه شعبه.

هذا المكان الذى كان يقيم فيه الطباخ من زمن وهو على يقين بأنه مكان متحضر، فيه متسع للناس جميعًا.. هذا المكان، الآن، وما يجرى فيه، يؤكد له أنه كان مخطئًا، وأنه غير مرغوب فيه فى هذه المدينة "كاليمبونج"، وأن لا شىء فى هذا المكان يشعره بالانتماء إليه. وعند هذه النقطة استبد به الخوف من أنه لن يرى ابنه مرة ثانية، بالرغم من كل الخطابات التى كتبت، إلى الدرجة أنه خشى أن يكون ابنه "بيجو" لا وجود له إلا فى أفكاره.

- ٤٤ -

مع تغيير الفصول، من الشتاء إلى الربيع والصيف، ثم إلى الشتاء مرة ثانية، تصاعدت أعمال العنف، وأغلقت الطرق، وفرض حظر التجول كل ليلة، وأصاب "كاليمبونج" مس من الجنون، فلم يعد فى مقدور أحد مغادرة جانبى التل، وظل الناس رهائن داخل منازلهم لا يغادرونها، فالحواجز فى كل مكان تسد الطرق وتعوق الحركة.

إذا كان هناك "نيبالى" غير راغب فى الانضمام إلى الحركة، فإنه لن يكون بمأمن، فالحارس صديق الطباخ تعرض للضرب المبرح وأجبر على أن يهتف "تحيا جورخا"، وأرغم على أن يقسم قسم الولاء للقضية النيبالية فى معبد "مها كالا". أما غير النيبالى فإن مصيره أكثر سوءًا، وبالنسبة للبنغالى، فإن كل من يعرفه لسنوات طويلة سيتجاهله وينكره إذا ما التقى به فى الطريق، حتى الذين أصولهم من التبت وبيهار

وسيكام وغيرهم من الأقليات التى لا صوت أو أهمية لها، كانوا يعتبرون البنغاليين من الأعداء.

لاحظت "لولا" و"تونى" بين الأكواخ العشوائية التى أنشئت على أرضها، وجود معبد صغير أعلاه علم باللونين الأحمر والذهبى، وهو ما يعنى أن لا الشرطة ولا الحكومة ولا أى شخص يمكنه أن يجرؤ على أن ينازع على شرعية أى أرض مغتصبة، فحتى الآلهة ذاتها قد باركت الآن الوضع القائم. لاحظت "لولا" و"تونى" أيضًا أن مغتصبى أرضها المقيمين داخل الأكواخ العشوائية غير الشرعية، قد قاموا بمد توصيلات الكهرباء والهاتف والمياه بغير الطريق الشرعى، وأتوا على الفاكهة والخضراوات التى قامت الشقيقتان بزراعتها داخل نطاق أرضها، واستخدموا مساحة الأرض القريبة من بوابة "مون آمى" كدورة مياه. .

كان صبية الحركة الوطنية لتحرير جورخا، قد أشعلوا النار فى مبنى الاستراحة الحكومية، وفى محطة الكهرباء، وفى منازل أقرباء كبار المسئولين الحكوميين، وتحولت "كاليمبونج" إلى مدينة أشباح، تعوى الرياح فى شوارعها التى تتطاير فى فضاءاتها النفايات الورقية والأتربة.

كانت النساء تهرول من باب إلى باب مجاور، والرجال فى خوف وفزع من الاختطاف والتعذيب لأقل سبب، ومن اتهام أفراد الحركة الوطنية لتحرير جورخا لهم بأنهم يتجسسون عليهم لصالح الشرطة، ومن

اتهام الشرطة لهم بأنهم من الميليشيات المسلحة. والسيارات والشاحنات يتم اعتراضها وسرقتها من قبل أفراد الحركة الذين سطوا على محطات الوقود وأفرغوها تمامًا مما بها.

حاول الطباخ جاهدًا تهدئة نفسه بتكرار القول: "كل شئ سيصبح على ما يرام.. يعيش العالم دورات متعاقبة، فيعيش الناس أوقاتًا سيئة، ويمر الوقت، ليعيش الناس أوقاتًا طيبة من جديد".. كان صوته أقرب إلى التوسل منه إلى الاقتناع.

فى أحد الأيام، وبينما "ساى" فى طريقها إلى المنزل وبحوزتها بعض ثمار البطاطس، شاهدت شخصين سبق أن شاهدتهما بالقرب من الشرفة وهما يتوسلان إلى القاضى والطباخ.. زوجة ووالد الرجل الذى تعرض للتعذيب. قال الطباخ فى هلع عند رؤيته لهما: "ما الذى جاء بكما ثانية إلى هنا"؟. بالطبع لا أحد سيستمع إليهما إذا هما ذهبا إلى الشرطة للسؤال عن زوج المرأة الذى لم يعد له أثر بعد تعذيبه، وربما سيتم أخذهما كبش فداء لجرائم أخرى ارتكبها آخرون. "لقد قلنا لك أن لا علاقة بنا بالشرطة التى اختطفت زوجك، ولم نقم باتهامه بشئ، بل قلنا لهم إنه ليس من قام بسرقة البنادق، فما الذى ندين به لكما؟" وبينما كان الطباخ يقدم لهما القليل من الطعام، صاح القاضى بصوت عال: "لا تعطيهما أى شئ"، ثم واصل انشغاله برقعة الشطرنج.

"من فضلكما".. كانت أيديهما مفتوحة فى وضع التوسل ورأساهما منحنيتان.. "من يأتى لمساعدتنا؟ هل يمكننا العيش بدون طعام؟ سنكون فى خدمتكما إلى الأبد". لكن القاضى ظل على عناده وقسوة قلبه. ومرة ثانية لما لم يجدا أذنًا صاغية، جلسا خارج البوابة. "قل لهما أن يذهبا".. قال القاضى للطباخ الذى أشار لهما بالابتعاد بالرغم من شعوره بأنهما فى احتياج إلى قسط من الراحة قبل أن يسيرا على أقدامهما خمس أو ست ساعات عبر الغابة حتى يصلا إلى قريتهما. ابتعدا قليلاً وعاودا الجلوس، ومرة ثانية شاهدا الكلبة "مات"، وفجأة خطرت فكرة على ذهن المرأة، وقالت للرجل: "بيع هذا الكلب يأتى بمال كثير". لو لم يكن القاضى هناك لكان فى إمكانهما الحصول عليها.

جاءا بعد أيام دون أن يقتربا من بوابة "تشوأويو"، وعند أحد الوديان الصغيرة الضيقة المنحدرة انتظرا الكلبة "مات" حتى موعد جولتها اليومية فى محيط الأرض التابعة للمنزل. أجفلت "مات" عند رؤيتها المهاجمين، وهمت بإطلاق النباح، لكن سرعان ما قاما بتكميم أنفها وفكيها بأيدهما القوية. فى هذا الوقت كان القاضى يستحم مستخدمًا مياه الدلو، والطباخ يقوم بخض اللبن لاستخراج الزيد، و"ساى" فى فراشها تهمس لنفسها فى غضب: "جيان"، أنت ابن حرام.. أتفكر أننى سأبكى وأسفح الدموع عليك؟".. وجميعهم لم يسمعوا أو يروا شيئًا.

رفعا "مات" إلى أعلى وقاما بربطها بحبل وأدخلاها فى كيس، حمله الرجل على كتفه، واتخذا طريقهما سيرًا على الأقدام عبر الوديان والقرى الصغيرة على جوانب التلال. "أتعتقدين أنهم سيكشفون أمرنا؟".. قال الرجل لزوجة ابنه. أجابت المرأة: "لن يسيروا خلفنا كل هذه المسافة، ولن يمكنهم قيادة سيارة إلى هنا، وهم لا يعرفون اسمى أو اسمك ولا اسم قريتنا، فلم يسألوننا أية أسئلة عما نكون". كانت المرأة على صواب، وحتى الشرطة لم تأبه بالتعرف على اسم الرجل الذى أوسعوه ضربًا وركلاً، ولن يثير اهتمامها البحث عن كلب.

عندما قاما بإلقاء نظرة على "مات" داخل الكيس وجداها فى صحة طيبة واطمأنا إلى بعض المال الذى ستوفره لهما من بيعها، أو إلى إمكانية استغلالها فى ولادة كلاب صغيرة تجلب لهما المزيد من الأموال. "هل يتعين علينا أن نخرجها من الكيس؟". "من الأفضل تركها الآن، وإلا ستبدأ فى النباح".

## ـ ٤٥ ـ

أشبه بحافلة تقل عمالاً تخترق بهم السحب والمطبات الهوائية من وقت لآخر، بدت طائرة طيران الخليج التى تقل مسافرين، معظمهم يستشعرون بداخلهم راحة، برغم تعب الرحلة الجوية الطويلة، فى مقاعد ضيقة، ويكاد سقف الطائرة يلمس رءوسهم... مصدر هذه الراحة شعور السعادة بأنهم عائدون إلى الوطن، بعد أن كيّفوا أنفسهم لتقبل ما سوف تأتى به المقادير دون تذمر أو اعتراض.

توقفت الطائرة فى مطار "هيثرو" الدولى فى "لندن"، وبدأ ركاب الطائرة فى السفر بخيالهم إلى العصر الاستعمارى القديم، بدلاً من النظر فى حاضر العولمة التى تعلن عن مظاهرها وأشكالها. هنا فى "لندن" تهبط جميع طائرات الخطوط الجوية لدول العالم الثالث، وتمضى عائلات بضعة أيام فى انتظار مواعيد الرحلات الجوية التى تقلهم من جديد إلى

نهاية الرحلة، ووسط هذه التجمعات التى تحتل أرض المطار، يجد المسافرون من أوروبا وأمريكا الشمالية مشقة كبيرة فى التحرك إلى طائراتهم الفخمة ذات المقاعد المريحة التى بها متسع لحركة القدم والساق، وتحتوى على كل وسائل الراحة.

مثل حافلة، توقفت الطائرة القادمة من نيويورك فى لندن، وفرانكفورت، وأبو ظبى، ودبى، والبحرين، وكراتشى، ودلهى، وكلكتا، وفى كل توقف يصعد المسافرون من دول الخليج إليها، وهم فى عجلة من أمرهم، وكأنهم فى سباق. فى داخل الطائرة بجوها الحار، تناول "بيجو" وجبة الغداء المكونة من دجاج بالكارى وسبانخ وأرز وجيلاتى الفراولة، ثم قام بغسل فمه فى كوب الجيلاتى الفارغ، وفشلت محاولته الحصول على وجبة غداء أخرى، بسبب الضيق الذى اعترى المضيفات من الرجال السكارى بصياحهم وصخبهم ومن تكرار الإمساك بأيديهن عند مرورهن بين المقاعد، ومناداتهن بأسمائهن: "شيلا"، "رافيتا"، "ناندتيال".

أضيفت إلى رائحة عرق ركاب الطائرة، روائح الطعام والسجائر والأنفاس، والرائحة الكريهة الثقيلة لدورة المياه، التى ألقى "بيجو" نظرة فى مرآتها، ووجه التحية إلى صورته المنعكسة على سطحها. هو الآن فى طريقه إلى الوطن، دون أن يعرف اسم الرئيس الأمريكى، أو اسم النهر الذى كان يتسكع على شاطئه،

وبدون السماء عن أى معلم من المعالم السياحية: تمثال الحرية، كوبرى بروكلين، متحف المهاجرين، ماكيز، إيطاليا الصغيرة، القداس فى كنائس حى هارلم.

الآن هو يعاهد نفسه، بأنه سينسى كل شىء، ويبدأ من جديد. سيشترى سيارة أجرة بالنقود التى جمعها وأخفاها فى حذائه وجوربه وملابسه الداخلية طوال هذه السنوات، وسيقود سيارة الأجرة عبر الطرق الجبلية والوديان فى أيام التسوق. وسيبنى منزلاً بحوائط متماسكة وسقفًا لا تسقطه وتطيره كل ريح موسمية.

قام "بيجو" بأداء المشهد السينمائى الذى يصور لقاءه بوالده مرة بعد مرة، فى ذهنه سيبكى قليلاً وهو يفكر فى لحظات عاطفية وسعيدة.. وسيجلس إلى جوار والده فى المساء وفى الهواء الطلق، ويحتسيان معًا الشراب، ويتبادلان النكات والدعابات.

-٤٦-

أطلت "ساى" من النافذة ولم تستطع أن تدرك سببًا للضجة فى الخارج، التى جعلت القاضى يصيح: ""مات".. "مات"". لقد جاء وقت إطعامها بصلصة فول الصويا بعد إضافة مكعب حساء الدجاج "ماجى" إليها، لأنها كانت قد انتهت من تناول آخر قطعة لحم، وكان القاضى نفسه و"ساى" والطباخ قد آثروا "مات" على أنفسهم فى مسألة رفاهية تناول اللحم.

""مات".. "مات".. الطعام".. لم تجب، على نداء القاضى، الذى خرج من البوابة، وتفقد الحديقة ثم الطريق. ""مات".. "ماتى"؟"، وقد اعترى صوته القلق. غابت الشمس، وأرخى المساء ستائره الضبابية المعتمة ولم تظهر "مات".

تذكر قدوم الصبية فى ملابس رجال العصابات، وسطوهم على البنادق، ونباح "مات" الذى جعلهم يصرخون مثل مجموعة من فتيات المدارس،

ويتراجعون هابطين درجات السلم بحثًا عن مخبأ لهم خلف منطقة الشجيرات الكثيفة الأغصان، فى الوقت الذى أظهرت فيه "مات" الخوف أيضًا، فلن تكن كلبة شجاعة كما توقعوا.

لم تظهر "مات" بعد حلول الظلام الدامس، وشعر القاضى بسطوة ليل "كاليمبونج"، والروع الذى يدخله فى النفوس، وهو يقبض على أكبر كشاف ضوئى لديه، قد يساعده فى البحث عنها فى عمق الظلام دون جدوى. ظل متيقظًا طوال الليل فى الشرفة، يراقب الجبال والتلال التى لا تبدو فى وضوح، بينما يستمع من وقت لآخر إلى أصوات ثعالب تتجول فى الأدغال والأحراش. وعند بزوغ الفجر، وقد أصابه قدر كبير من الهياج، غامر بالتوجه إلى البيوت الصغيرة المجاورة ليسأل عما إذا كان قاطنوها قد شاهدوا "مات"، وسأل كذلك بائع اللبن والخباز الذى يحمل صندوقًا يحتوى على البسكوت أو البقسماط باللبن، الذى تحبه "مات" وتستمتع بتناوله. وسأل السباك والكهربائى والخياط الذى كان قد أعد لها معطفًا شتويًا بإبزيم عند البطن. لكنه فى كل مرة، كان يقابل بوجوه خالية من أى تعبير، وبضحكات غاضبة من أناس شعروا بأنه من غير اللائق أن يطلب منهم البحث عن كلبة، فى مثل هذا الوقت، الذى لم يكن فى استطاعتهم حتى توفير الغذاء الضرورى لهم.

طرق القاضى أبواب السيدات "ثوندوب" و"لولا" و"نونى"، وأى شخص لديه بعض الشفقة عليه أو على

"مات"، لكنه نسى التوجه إلى القليل الذى لم يغادر المنطقة من أفراد البعثات التبشيرية. لكن كل شخص التقاه كانت استجابته على غير توقع القاضى، بسبب الوقت العصيب الذى يمر به كل قاطنى الجبال والتلال والوديان.

"هل هى غالية الثمن؟".. سألت مسز "ثوندوب". أبدًا لم يفكر القاضى فى "مات" على هذا النحو، ولكن نعم، فقد اشتراها بثمن مرتفع من دار متخصصة فى تربية كلاب الصيد فى "كلكتا". قالت مسز "ثوندوب": "من المؤكد أن أحدًا قام بسرقتها أيها القاضى.. لقد اختفى كلبى "بينج"، وتبين لى فيما بعد أن من سرقه قام بتزويجه من أكثر من كلبة لكى ينتج له كلابًا صغيرة يقوم ببيعها".

قالت "لولا": "المشكلة فينا نحن الهنود، لأننا لا نضمر حبًا للحيوانات، فالكلب أو القط لا يجد منا غير الركل، ولا يمكننا مقاومة ضرب الحيوان أو قذفه بالأحجار أو تعذيبه، ولا نستريح ولا يرتاح بالنا إلا بموت هذا المخلوق أو ذاك.

ما الذى فعله؟ هو لم يكن محقًا أو عادلاً معها، فهو وضع "مات" فى مكان لن يكون فى استطاعتها أبدًا النجاة فيه، فهذه كلاب تل "بوتيا" القريب من الممكن أن تمزقها إربًا، وثعبان الكوبرا وأنثاه اللذان يعيشان خلف "تشوأويو" قد يلدغانها فى أى وقت، والكلب المسعور الذى قد يأتى من الغابة ويعقرها وتصاب بداء الكلب.

منذ عامين، عندما انتشر داء الكلب فى المدينة، اصطحب القاضى معه "مات" إلى المستشفى من أجل حقنها باللقاح المضاد للمرض، فى الوقت الذى كانت تقتل فيه الكلاب الضالة، ويموت فيه الناس المصابون بداء الكلب، الذين لا يملكون ثلاثة آلاف روبية ثمن اللقاح، ويصرح فيه العاملون بالمستشفى، بناءً على الأوامر التى صدرت إليهم، بعدم توفر اللقاح، خشية من تصاعد أعمال التمرد والشغب.

جال بخاطر القاضى أن بإمكانه حماية كلبته من كل أذى أو ضرر ممكن، لكن كان عليه أن يدفع ثمنًا غاليًا نظير كبريائه تلك. ذهب للقاء ضابط الشرطة الذى كان قد زار "تشوأويو" فى أعقاب حادث سرقة البنادق، لكن يبدو أن القلاقل والاضطرابات قد أظهرت رداءة طبعه، فلم يعد يمتدح حب القاضى للزهور. "سيدى العزيز، أنا مغرم بالحيوانات، لكن فى مثل هذه الأوقات، فإن الاهتمام بها يعد رفاهية لا قبل لنا بها".

قال القاضى غاضبًا وهو يلوح بيديه: "لكن ألا يمكنك عمل شىء؟". أجاب الضابط: "تتحدث عن كلب فى وقت يقتل فيه الناس؟ ماذا يمكننى أن أفعل؟ بالطبع أنا أحمل لك تقديرًا لكننا نعيش حالة طوارئ، وأخشى أن أتهم بالمحسوبية، فهناك فى "كلكتا" و"دلهى" قلق كبير من ذلك التدهور الحادث فى القانون والنظام هنا". فى قسم الشرطة، استمع إلى

ضحكات مكبوتة من رجال الشرطة.. "ها ها، يأتى من أجل كلب! ها ها، رجل مجنون!". ارتسم الغضب على وجوههم الساخرة.. "لا تضيع وقتنا.. اخرج من هنا".

هل يعلمون اسم الشخص الذى ألقى القبض عليه بعد سرقة البنادق؟ تساءل القاضى.. هل يمكن أن يكون هو المسئول عن سرقة الكلبة "مات"؟ لقد زاره والد الشخص المتهم وزوجته وكانا قلقين.. لكن فى قسم الشرطة قالوا إن لا وجود لهذا الشخص. والآن، ألا يتعين عليه ألا يضيع وقتهم ويخرج؟ نمى إلى سمعه صوت صراخ الضحية فى الجهة الخلفية، وكأنها رسالة صريحة له.

فى اعتقاد القاضى أن العقاب وحده لا يكفى لصلاح الإنسانية، وأن الإنسان أقل شأنًا من الحيوان، لأن الحياة الإنسانية إذا كان يغلب عليها الفساد، فإن هناك مخلوقات جميلة رقيقة تعيش على الأرض دون أن تسبب أى أذى لأى شخص. أسرّ القاضى إلى نفسه وهو يكاد يبكى: "يتعين علينا أن نموت".

خذل العالم "مات"، كما خذل الجمال والحسن، لكن عندما يهجر القاضى العالم وينبذه من أجل حياة العزلة، فإن "مات" ستعيش فى معاناة.

فجأة، تذكر القاضى لماذا ذهب إلى انجلترا ولماذا التحق بدراسة القانون، ولماذا ضيع نفوذه وبدد سلطته فى سنوات بغضه وكراهيته للبشر، وشكه فى أن للبشر دوافع طيبة.

صاح بكلمات حب للكلبة "مات" رددتها جبال الهيمالايا: "مات، صغيرتى". وفى نبرات باكية، قال: "اغفرى لى يا كلبتى الصغيرة.. من فضلك، أطلق سراحها، أيًا ما تكون".

خرج أفراد الجيش إلى الشوارع عندما بدأ الليل يرخى سدوله، للتأكد من الالتزام بأوامر حظر التجول. "يتعين عليك أن تعود يا سيدى".. قال جندى للقاضى الذى صاح فيه بلهجة بريطانية تحفظ له قدرًا من الهيبة: "ابتعد عن طريقى". لكن الجندى لم يتزحزح من مكانه حتى استدار القاضى فى غضب متوجهًا إلى منزله متظاهرًا بأنه لا يتعجل الذهاب.

من فضلك، ارجعى إلىّ يا عزيزتى، يا فتاتى الجميلة

أميرتى، دوقتى، ملكتى

رائحتك ذكية يا فتاتى المشاكسة

لؤلؤتى أنت وحبيبة قلبى

كم كان من السخف أن يقول كلماته هذه دون أن تتواجد كلبته لكى تستمع إليها. اعترت الدهشة الجندى الذى كان يتعقبه وسخر من الكلمات التى تفوه بها القاضى.

عند عودته إلى الثكنات التى تأوى الجنود المتزوجين حديثًا، والتى تتكون من أبنية خرسانية تشوه المنظر الطبيعى للحياة البرية، قال الجندى لزوجته:

شىء ما غير طيب يجرى من حولنا، والله وحده يعلم بما سوف يحدث.. هؤلاء الرجال وحيواناتهم.. أشياء غريبة وعجيبة.

نسى الجندى وزوجته ما تحدثا بشأنه، فقد حافظ الجيش على إمداد الجنود بالطعام الجيد، حتى أن الزوجة أخبرت زوجها أن ما خصص لهما من الزيد يزيد عن حاجتهما ويمكنهما تقديم الفائض منه إلى أفراد عائلتيهما حتى لو كان ذلك يخالف القانون. وتساءل الزوجان عن سبب زيادة وزن الدجاج المشوى الذى يوزعه عليهم الجيش، وعما إذا كانت مزارع الدجاج التابعة للجيش تقوم بحقن الدجاج بالماء.

## - ٤٧ -

عززت الشرطة قواتها، وانتشرت بكثافة فى المناطق التى شهدت أحداث الشغب، وبدأت تطارد صبية الحركة الوطنية لتحرير جورخا، وتمشط القرى الصغيرة البعيدة فى محاولة منها لتطهير مؤيدى "جورخا لاند" من الماركسيين، ومن مؤيدى حزب المؤتمر، وتشن غارات على مزارع الشاى التى قام مدراؤها بإغلاقها خشية تكرار هجمات المتمردين التى أجبرت ملاك مزارع الشاى فى "أسام" على ركوب طائراتهم الخاصة والتوجه إلى كلكتا.

كان الرجال الفارون المطلوبون لأفراد الشرطة، لا يستقرون فى مكان أثناء تنقلهم من مكان إلى آخر، ويختبئون من أعين الشرطة فى منازل الأثرياء فى المدينة، مثل "لولا" و"نونى" والطبيب، والأميرات الأفغانيات، والضباط المتقاعدين، والبنغاليين، والأجانب، وفى منزل أى شخص من غير المتوقع أن تقوم الشرطة بتفتيشه.

صدرت تقارير ترصد حركة القادمين والمغادرين عبر حدود "نيبال" و"سيكيم"، وأفراد الجيش المتقاعدين الذين يديرون أنشطة الحركة الوطنية لتحرير جورخا، ويقومون بتدريب أفرادها على كيفية صنع القنابل، وإعداد كمائن لمهاجمة أفراد الشرطة، وتفجير الكبارى. لكن كان من الواضح لأى شخص أن معظم أفراد الحركة ليسوا أكثر من مجموعات من الصبية والشباب الصغير، الذين يتخذون "رامبو" مثالاً لهم، وتمتلئ رءوسهم بمشاهد الحركات القصيرة السريعة المفاجئة فى مباريات "الكونج فو" والكاراتيه، ويستقلون الدراجات النارية وعربات الجيب المسروقة وينطلقون بها مطلقة زئيرها فى كل الأنحاء.

كانوا يأتون ليلاً والأقنعة تخفى وجوههم، ويتسلقون بوابات المنازل وينهبونها، وعند رؤيتهم لامرأة فى طريقها إلى المنزل ملتفة فى شالها يقومون بإجبارها على تسليمهم ما تخفيه من أرز وسكر.

فى الطريق المؤدية إلى السوق، كانت الأشجار تتدلى منها جثة لأحد الأعداء.. من هؤلاء الأعداء، وإلى أى جانب يقفون؟ لا أحد يعلم. فى هذا الوقت، يتسنى لأى شخص ألا يبقى على أى أثر لشخص آخر لا يحبه، ويسهل الانتقام والثأر لمقتل حبيب أو قريب بقتل أحد أفراد عائلة القاتل، ويمكن لزجاجة شراب "بلاك ليبل" أن تنقذ حياة من تتردد صرخاته فى قسم الشرطة بفعل التعذيب. فى ذلك الوقت، تم العثور على

جثة ملقاة فى بركة مياه الصرف الصحى وقد اقتلعت العينان من تجويفهما، ولم تترك السكين بوصة مربعة من الجثة إلا وأعملت فيها نصلها.

بينما كانت أعمال العنف تصيب الكثيرين بالصدمة والذهول، إلا أنهم كانوا يعبرون عن دهشتهم من وحشية ذلك العنف وهمجيته، ومن قسوة القلوب وتحجرها، ومن قدرة الإنسان على ارتكاب الشرور، ومن تلك القدرة غير العادية والمدمرة للكراهية المستقرة فى القلوب، التى أوصلت الإنسان إلى درجة متقدمة ويصعب تخيلها من التوحش والهمجية، وإلى حالة من التواؤم مع أمراض وأوبئة الحياة الإنسانية، والتى يتقدمها جميعًا مرض ووباء افتقاد العدل.

## ـ ٤٨ ـ

بعد إقلاعها من "دلهى"، هبطت طائرة شركة طيران الخليج مطار "دم دم" فى كلكتا، وتعرف "بيجو" على رائحة مطهر الفينيل المميزة التى تفوح من خرقة قذرة تستخدمها امرأة عارية القدمين فى تنظيف وتطهير الأرضيات، فى الوقت نفسه الذى تعرض فيه نفسها على المسافرين على نحو يستثير عطفهم وضيقهم.

زحام شديد حول السير الدوار الذى يأتى بحقائب المسافرين من باطن الطائرة، بسبب هبوط أكثر من طائرة تحمل ركابًا وأمتعة فى الوقت نفسه.. يتكون هذا الزحام من نوعيات مختلفة ومتفاوتة فى المظهر والجوهر، من الهندى الفقير المهاجر سعيًا وراء ما يسد رمق عائلته، إلى الشاب الهندى بحاسبة الآلى المحمول، وبخبرته فى مجال البرمجة التى تأتى له بملايين الدولارات الأمريكية. هنود يعيشون بالخارج، وهنود يسافرون إلى الخارج من وقت لآخر. هندى

غنى، وهندى فقير، وهندى يحمل البطاقة الخضراء التى تفتح له أبواب أمريكا. وطالب هندى يعود إلى وطنه مصطحبًا معه شقراء أمريكية.

"منذ اللحظة التى تهبط فيها الطائرة وتطأ قدماه الأرض، على الفور يبحث عن امرأة أمريكية تمكنه من الحصول على البطاقة الخضراء، دون أن يعطى أية أهمية لشكلها أو إذا كانت تمتهن تلك المهنة...". قاطعه رجل آخر، وكأنه يعزى نفسه: "نساؤنا أفضل النساء فى العالم".

الجميع فى انتظار حقائبهم التى لم تصل بعد، والكثير من الحقائب لم تأت بصحبة المسافرين على الطائرة. استرق "بيجو" السمع إلى مشادات وأصوات عالية عند طاولة شركة الطيران الفرنسية "إير فرانس"، من مسافرين يتعين عليهم ملء طلبات تحصيل تعويضات مالية نظير فقد حقائبهم: "إنهم يقدمون التعويض عن فقد الحقائب للهنود من غير المقيمين بالهند، وللأجانب، وليس لمن يحملون الجنسية الهندية.. لماذا؟". كان كل الحاملين للجنسية الهندية يصرخون بأعلى الصوت: "هذا ظلم.. عمل غير منصف.. لا عدل فى هذا".

قال مسئول فى محاولة لتهدئتهم: "هذه سياسة شركة طيران "إير فرانس"، يا سيدى، فالأجانب يحتاجون النقود لحجز الفندق ولشراء فرشاة الأسنان". قالت امرأة حاملة للجنسية الهندية: "عائلتنا

فى "جالبيجورى" وعلينا أن نسافر إلى هناك، والآن علينا أن نقضى ليلة فى انتظار حقائبنا. ما هذا الكلام الذى تقوله لنا؟ نحن الهنود ندفع نفس الذى يدفعه غيرنا من الأجانب، ويحصل الأجانب على التعويض والهنود لا يحصلون. تعاملون القادمين من الدول الغنية معاملة حسنة، وتعاملون الأفراد من الدول الفقيرة معاملة سيئة. هذا أمر معيب ومخجل. لماذا سياسة التمييز هذه ضد مواطنيكم أبناء بلدكم؟؟. كرر الموظف المسئول: "هذه سياسة شركة "إير فرانس"، مدام".

بدت على وجوه كل الهنود غير المقيمين الذين يمسكون بالبطاقات الخضراء وجوازات السفر الأجنبية فى أيديهم، علامات التحضر والرضا عن النفس، فكل واحد منهم يمتلك المال الوفير، ولأنه يمتلك المال الوفير، فلا ضير أن يحصل على تعويض مالى من "إير فرانس" عن فقد حقيبة السفر، فى حين لا سبيل أمام من يتمتع بالجنسية الهندية للحصول على نفس التعويض المالى عن فقد حقيبة سفره. كان من السهل على الهنود غير المقيمين من ذوى الجنسيات الأجنبية أن يصطفوا فى صف واحد وأن يتحلوا بالصبر، وأن يظهروا أنه لا يتعين عليهم الدخول فى مشادة أو عراك، فهم يبرهنون فى كل تصرفاتهم على العناية الفائقة التى تمتعوا بها فى الدول التى منحتهم جنسيتها.

جوازات السفر الأمريكية والبريطانية والهندية لها نفس اللون الأزرق، لذا حاول الهنود غير المقيمين الذين يتمتعون بالجنسية الأمريكية أو البريطانية إظهار اسم دولة إصدار الجواز، حتى يعلم موظف شركة الطيران الشخص الذى يتعين عليه أن يعامله باحترام.

"آمل أن تكون قد أنهيت كل الإجراءات، يا رجل".. قال هندى من "أوهايو" إلى آخر من "ساوث داكوتا"، وكلاهما يشعر بسعادة مزدوجة، أولاً لحصولهما على التعويض المالى عن تأخر وصول حقائب السفر، وثانيًا لحصولهما على تأكيد جميع حجوزات العودة بالطائرة والإقامة بالفنادق. "الهند ينقصها الكثير، كان عليك أن تتوقع ذلك!".. قال أحدهما أثناء مرورهما "ببيجو"، الذى كان يفتش فى حقائبه التى عثر عليها أخيرًا، ووجدها سليمة لم تُمس. قال أحد المسافرين: "لكن المشكلة حدثت فى فرنسا وليست هنا، لأنهم لم يضعوا الحقائب بالطائرة هناك". قال الهنديان من "أوهيو" و"ساوث داكوتا" أحدهما للآخر، وكلاهما يربت على ظهر الآخر مودعًا: "حظ سعيد".

غادر الهندى من "أوهايو"، وقد أسعدته قصة فقد حقيبة السفر، التى ستضيف إليه حجة جديدة تدعم رأيه أمام والده الذى لا يبدى أى نوع من الزهو به. كان يعلم ما يجول بخاطر والده: يتحدثون عن الهجرة باعتبارها عملاً بطوليًا، فى حين أنها على

العكس من ذلك تمامًا، لأن الجبن هو الذى قاد ويقود الكثيرين إلى أمريكا. إن ما يسم الرحلة إلى أمريكا هو الخوف وليس الشجاعة، وهو رغبة الجبناء فى العدو إلى مكان لا يرون فيه الفقر أبدًا، ولا يشعرون فيه بوخز الضمير، أمام احتياجات الخدم والمتسولين والأقرباء العاجزين عن سداد ديونهم.. هو رغبة الجبناء فى العدو إلى مكان لا يستشعر فيه المرء بفضيلة اعتنائه بزوجته أو طفله أو بيته.

إذا كانت رحلة الهجرة بالنسبة إلى المهاجر تمثل له تجربة استزراع نفسه من جديد فى تربة أخرى أو نقل نسيج حى منه إلى آخر فى التربة الجديدة، فإن الهندى من "أوهايو"، كان قد أحب المكان "أوهايو" منذ البداية، ووجد نفسه فيها.

قدم والده، مرة، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التى لم تؤثر فيه كثيرًا ولم يخلف كبر منزل ابنه فى نفسه انطباعًا قويًا: "ما فائدة كل هذه الفراغات الكبيرة؟.. تبديد بغير طائل فى الماء والكهرباء، وفى تكييف الهواء، وفى سخانات المياه، وإضاعة نحو نصف ساعة بالسيارة للوصول إلى السوق.. إنهم يطلقون على هذا اسم العالم الأول؟؟

قال والد الهندى من "أوهايو" عن الوجبات السريعة "هوت دوج": "النقانق رديئة، وصلصة "الكتش أب" رديئة.. إنه نمط من أنماط السلوك لدى الأمريكيين، وجزء من ثقافة أمريكا! يمكن للمرء

الحصول على نقانق أفضل فى كلكتا". وعندئذ فقد الهندى من "أوهايو" حجة فقد حقيبة السفر، ولم تعد لها قيمة تعزز موقفه أمام والده.

خطا "بيجو" خطوات خارج المطار إلى ليل "كلكتا" الدافئ كحضن أم، وداخله شعور باهظ لا يقهر بالحزن والوهن، يخالطه ذلك الشعور القديم الحلو، الحاضر فى ذاكرة طفل يجلس فى حجر أمه. وسط آلاف البشر، لفت نظره زوجًا من الماعز، من ذوى اللحية داخل عربة "ركشا" صغيرة، بعجلتين وتتسع لشخص واحد، ويجرها رجل، فى طريقها إلى المجزر.. وأضواء خضراء سحرية تبثها مآذن مسجد فى ليل المدينة، وفى مقدمة اللوحة نساء يسرعن الخطى.. ولافتة بأعلى مطعم تحمل الشعار "الطعام الجيد يصنع مزاجًا جيدًا". وجد نفسه وسط آلاف البشر ولا أحد أبدى اهتمامًا به.

## - ٤٩ -

جثا القاضى على ركبتيه، وصلى لله.. هو جيموياى بوياتل"، الذى يعتقد بأن وجود الله، وطبيعة وأصل الكون، أمور لا سبيل إلى معرفتها، والذى هجر طوال عمره المصلين فى عائلته، والذى رفض أن يلقى جوزة الهند فى المياه ويبارك رحلته البحرية وهو على ظهر الباخرة منذ سنوات طويلة. "إذا أنت اعدت "مات" لى، سأقر وأعترف بوجودك جهرًا، ولن أنكرك ثانية، وسأقول للعالم إننى أؤمن بك.. إذا أنت أعدت لى "مات".

نهض من الوضع جاثيًا وقد أصبح رجلاً يعقد صفقات، ويقدم تضحيات، ويقامر مع القدر، ويتملق، ويتجرأ على القول: أرنى ما يشير إلى وجودك!، لكن أثناء الليل راح يفكر فى الخطايا التى كان قد ارتكبها والتى لا تقبل أية محكمة فى العالم بالنظر فيها، وفى الكون الذى يفتقد إلى العدل حسب إدراكه المحدود

كبشر. فكر فى عائلته التى هجرها وتخلى عنها، وفى والده وزوجته "نيمى" التى كان قد أعادها إلى منزلها فى أعقاب حادث محدد.

***

فى وقت مبكر من صباح أحد الأيام فى "بوندا"، توقفت سيارة تحوى مجموعة من سيدات، تقودها مسز "موهان" الناشطة السياسية فى حزب المؤتمر، التى وقع بصرها على "نيمى" بالقرب من بوابة منزل "جيموباى"، وصاحت: "مسز "باتل"، تعالى معنا، لماذا ترفضين دائمًا دعوتنا؟ الآن لن أسمح بأن تكون إجابتك بلا. هيا نذهب ونمضى وقتًا ممتعًا معًا، يجب عليك الخروج من المنزل من وقت لآخر".

شعرت بمزيج من السعادة والخوف وهى تجلس على فخذى امرأة لا تعرفها، والسيارة فى طريقها إلى المحطة، لكن لم يكن هناك مكان قريب تقف فيه العربة، بسبب تجمع الآلاف من الناس فى تظاهرة لا تكف عن الهتاف، وأخيرًا تابعت السيارة حركتها خلف موكب من السيارات متجهة إلى منزل ما. قدمت امرأة "لنيمى" طبقًا به شريحة خبز مكسوة بالبيض، لكنها لم تستطع تناوله بسبب الاضطراب الشديد وصيحات المتظاهرين من حولها. أخيرًا علا صوت يقول: "هيا أسرعوا، القطار على وشك أن يغادر، من الأفضل أن نتجه إلى المحطة"، وهرعت أغلبية المتظاهرين إلى خارج المنزل مرة ثانية، وقام أحد الذين بقوا فى المنزل

بتوصيلها بسيارة إلى منزلها: "لقد كنا جزءًا من مشهد سيسجله التاريخ، مسز "باتل".. لقد شاهدت اليوم واحدًا من أعظم الرجال فى الهند".. من كان ذلك؟ لم تكن تعرف.

عند عودة القاضى من رحلة صيد، بصحبة خمسة من طيور الحجل وطائرى سمّان وغزال، علم باستدعاء مفوض المقاطعة له، وهناك علم بأخبار أذهلته عن زوجته التى كانت ضمن المجتمعين للترحيب "بنهرو" بالمعسكر الكبير الذى أقيم بمحطة السكك الحديدية، والتى شاركت بتناول شرائح الخبز بالبيض مع أهم أعضاء حزب المؤتمر.

الأمر الذى سبب قلقًا لمفوض المقاطعة لم يكن تلك النقطة السوداء التى سجلت ضد "جيموباى" والتى قد تعوق ترقيته، ولكن ما أقلقه هو الحرج الذى سببه "جيموباى" له ولكل أفراد الإدارة المحلية. قال "جيموباى": "لا يمكن أن يكون هذا حقيقى يا سيدى، فزوجتى سيدة محافظة جدًا، إلى درجة أنها لا تذهب إلى النادى، وحقيقة الأمر أن زوجتى لا تغادر المنزل أبدًا".

"هى فعلت ذلك هذه المرة، نعم، فعلت.. وأنا على ثقة أن لا أحد فى عائلتك سيفعل شيئًا تكون عواقبه وخيمة على عملك.. وأحذرك كصديق".. قال المفوض وعلى وجهه علامات أبعد ما يكون عن الصداقة.

أثناء قيادته السيارة فى اتجاه المنزل، جال بخاطره ما يعلمه جيدًا عن كفاءة الجواسيس التى

تعمل لحسابهم، وجزّ على أسنانه بقوة: كيف يمكن حدوث ذلك؟ ماذا لدى "نيمى" لتقوله؟

كان ظهره إليها عندما دخلت الحجرة، التى كان جيموباى" فيها يصب لنفسه على مهل كأس شراب: ما الذى حدث".. سأل وهو يحرك مكعبات الثلج بالكأس ويدور فى أنحاء الحجرة، وتعبيرات وجهه تشبه تعبيرات وجه الجالس على منصة القضاء بالمحكمة، ثم رفع الكأس إلى فمه وتجرع الشراب. ومع الخدر الذى دب فى أوصاله، راح يعد على أصابع يده الأخرى الخالية:

١ ـ "هل أنت مجرد ريفية ساذجة؟".. صمت

٢ ـ "هل أنت كذابة؟".. صمت

٣ ـ "هل تلعبين ألعابًا نسائية حمقاء؟".. صمت

٤ ـ "أتحاولين إثارة غضبى عن عمد؟.. صمت

٥ ـ "أو أنت حمقاء بصورة لا يمكن تخيلها؟..

وعندما لم تجب، قال: "لن ننهى هذه المحادثة حتى أسمع إجابة منك". وعندما طال انتظاره، قال: "هل أنت حمقاء؟.. أنا أسألك".

مع كل الخوف الذى كبر بداخلها، ومع تذكرها لواقعة مسحوق التجميل ليلة وصوله من إنجلترا، استشعرت رغبة فى تحديه: "الأحمق هو أنت".. وكما أنه لم يصدق أذنيه، كذلك فاجأتها كلماتها.

لأول مرة قام بضربها، بالرغم من أنه كان يرغب فى ضربها من قبل، لكنه كان فى كل مرة ينجح فى مقاومة هذه الرغبة. ووجد نفسه يقذف بما فى الكأس من شراب على رأسها ووجهها الذى لم يسبق له أن رآه جميلاً. وعندما لم يهدأ غضبه بعد، قام بتوجيه لكمات قوية فى كل أنحاء جسدها، ولما تعبت يداه وذراعاه، قام بركلها بقدميه. وبدأ فى توجيه الشتائم والسباب لها: "امرأة حمقاء، قذرة".

لم يكن فى استطاعته بعد الآن رؤية وجهها، لذا اشترى لها تذكرة سفر ليعيدها إلى "جوجيرات". قالت "نيمى" وقد جال بخاطرها ما سوف تسببه لعائلتها من عار لا يمكنها تحمله: "لا يمكننى الذهاب". "إذا لم أعيدك إلى هناك".. قال فى لهجة لا تخلو من شفقة، لكنه أكمل عبارته قائلاً: ".. فسوف أقتلك، ولا أريد أن يلومنى أحد على ارتكابى مثل هذه الجريمة، لذا يجب عليك الذهاب". بعد مرور ستة أشهر تلقى برقية من "بوندا" تعلمه بقدوم طفل رضيع.. فى تلك الليلة، احتسى "جيموباى" الشراب حتى ثمل. "زوجتك مستعدة للعودة بعد حصولها على قسط من الراحة".. كتب إليه عمها الذى كان يجهل سبب تركها منزل زوجها وأرجعه إلى اهتمام "جيموباى" بصبحة زوجته، لكن أفراد عائلتها كانت تأمل فى أن المولود سوف يعيد الأب إلى مجتمعهم، ولأنه كان شخصية بارزة فربما يتعين عليه مساعدتهم جميعًا.

قال العم غاضبًا: "أنت مسئولة من زوجك.. عودى إليه.. ووالدك قدم مهرًا عند زواجك.. وإذا كنت قد تسببت فى إغضاب زوجك، فعليك أن تطلبى منه المغفرة". وقال لوالده عند وصوله مباشرة: "هى ليست الزوجة المناسبة لى"، وفى أسى قال الوالد: "كان من الخطأ إرسالك إلى البعيد، لأنك أصبحت مثل الغريب بالنسبة لنا".

قال "جيمويباى": "أنت من أرسلنى إلى هناك، والآن تأتى إلىّ وتقول إنها كانت غلطة؟.. شىء يبعث على الضحك". كان "جيمويباى" كما لو أنه تم تجنيده لكى يمسك بأيدى رجال قريته ويصل بهم إلى العصر الحديث، ولكنه لم يكن فى استطاعته إلا أن يقطع كل ما يصله بأهله وأهل قريته، حتى وإن أشاروا عليه ووصفوه بالكذاب.

***

نشبت الحرب فى أوروبا وفى الهند التى امتلأت الصحف بأنباء عن مليون شخص لقوا مصرعهم فى أعمال شغب وتمرد، ومن ثلاثة إلى أربعة ملايين شخص قضوا جوعًا فى البنغال، وثلاثة عشر مليونًا تم إخلاؤهم من منازلهم، دون أن يلوح فى العتمة ما يشير إلى ولادة الأمة الهندية.

فى ذلك الوقت تسببت مغادرة البريطانيين البلاد فى نشوء حالة من فراغ القوة، وكان على القاضى أن يعمل بكل ما لديه من طاقة، مثله مثل كل أعضاء

الهيئة القضائية الذين تمت ترقيتهم إلى مناصب عليا، بغض النظر عن مناصرتهم لأى جانب من جوانب حركة الاستقلال، وبغض النظر عن كفاءاتهم وخبراتهم. فى ذلك الوقت أيضًا، تسلم القاضى برقية تفيد وصول "ساى" الوشيك إلى "تشوأويو".

تساءل "جيموباى" فى حيرة، عما إذا كان قد قتل زوجته فى سبيل تصورات أو غايات زائفة، لقد سرق منها كرامتها، وألحق العار بعائلته وعائلتها، وجعل حياتها وحياة ابنته بغير فائدة أو معنى. كان قد أدخل ابنته مدرسة داخلية تتبع أحد الأديرة، واستشعر راحة عندما بلغته أخبار هروب ابنته مع رجل تعرفت عليه منذ أن كانا معًا فى دار للأيتام.

لم يكن يحب زوجته، لكن ذلك لم يكن مبررًا.. أليس كذلك؟.. تذكر اللحظة التى جمعته بزوجته منذ وقت طويل، وشعر فيها بأنه يحبها حقًا. كان فى العشرين من عمره وهى فى الرابعة عشرة، وكانا فى مدينة "بيفيت"، معًا على ظهر دراجة هوائية، ثم كان لقاؤهما الحميم على أرض منحدرة فى الهواء الطلق وعلى مسافة منهما أبقار تتطلع إليهما بعيون لا مبالية.

عندما قدمت "ساى" إلى "تشوأويو" بعد العديد من السنوات، وبالرغم من أنه لم يقر ويعترف بتلك الحقيقة السر حتى إلى نفسه، إلا أنه علم جيدًا أن هناك مجالاً للأمل فى نظام لإقامة العدل لا يقر مبدأ الاعتراف سيبدأ فى شطب ديونه الماضية.

***

"مات".. صوته كالنشيج.. "حبيبتى الجميلة.. حبيبتى المشاكسة". راح يبحث عنها فى التلال والجبال، وانضم إليه الطباخ و"ساى".

وجدت "ساى" فى اختفاء الكلبة "مات" غطاءً يخفى عمن حولها ما تشعر به من خسارة وفقد فى علاقتها "بجيان". "مات، ماتى، ماتون، صغيرتى".. نادت "ساى" عليها بصوت عال وبإيقاع رشيق حتى يكاد من يستمع إليها لا يشعر بما تخفيه من تعاسة. كانت تشعر بالشكر والعرفان لبهاء واتساع المنظر الطبيعى من حولها برومانسيته التى تخفف من حدة الحزن الذى تحاول جاهدة ألا يطلع عليه أحد.

كان الطباخ أيضًا يسير فى التلال والجبال صائحًا "ماتى"، لكن قلقه على ابنه كان يغطى على قلقه على الكلبة "مات"، التى لا أحد يعلم سبب اختفائها، وإن كان يعلم هو سبب اختفاء رسائل ابنه بيجو وانقطاعها عنه.

- ٥٠ -

"لا توجد حافلة تذهب إلى "كاليمبونج"" . "لماذا؟".
أبدى الرجل فى محطة حافلات "سيليجورى" دهشته من جهل "بيجو"، فمن يقرأ الصحف أو يشاهد التليفزيون يعلم ذلك. حدث "بيجو" نفسه، بأن الاضطرابات لم تتوقف، بل ساءت الأوضاع أكثر. تساءل الرجل: كيف لا يعلم بما يجرى هنا؟ من أين جاء؟. من أمريكا حيث لا صحف ولا مكالمات هاتفية. هز الرجل رأسه فى عطف، وقال: "الشاحنات كذلك لا تذهب إلى "كاليمبونج"، فالأحوال مضطربة جداً وصوت إطلاق نيران البنادق لا يتوقف هناك، والجميع أصيبوا بالجنون.

"يتعين علىّ أن أذهب، فوالدى هناك". "لا يمكنك الذهاب، فلا توجد أية وسيلة، بعد فرض حالة الطوارئ، وسد الطرق بالمتاريس، وإلقاء زيت موبيل والمسامير الحديدية فى الشوارع التى أغلقت تماماً".

جلس "بيجو" على حقائبه فى محطة الحافلات إلى أن قال له الرجل الذى أبدى تعاطفًا معه: "اسمع، اذهب إلى "بانيتونك"، فربما تجد شاحنة تذهب بك إلى هناك، لكن ذلك محفوف بالمخاطرة، لأنك سيتوجب عليك أن تستجدى رجال الحركة الوطنية لتحرير جورخا المرور".

انتظر "بيجو" هناك أربعة أيام، إلى أن شاهد سيارة جيب تابعة للحركة تغادر المكان، ولأنه كان يعلم أنهم يقومون باصطحاب البعض معهم نظير مبالغ مالية كبيرة، فقد سألهم: "يوجد مكان؟"، وقام بفتح حافظة نقوده التى تحتوى على الدولارات الأمريكية، وعندما اعترضوا على كثرة الحقائب، أعطاهم المزيد من الدولارات، وعلى الفور قاموا بوضع الحقائب أعلى السيارة، وشدوا وثاقها إلى هيكلها بحبل قوى، ثم انطلقوا فى طرق ضيقة، وعبروا حقولاً مزروعة بالأرز والموز وأراضى ضحلة، ومناطق محميات طبيعية محظور اختراقها، كما تؤكد اللافتات الضخمة: "ممنوع إزعاج الحيوانات البرية". خلال الطريق كان "بيجو" يستشعر بداخله سعادة غامضة بالعودة إلى الوطن، حتى وإن كان برفقة هؤلاء الرجال الذين نقلوا إليه توترهم، حتى أنه كان من وقت لآخر يخرج رأسه من النافذة لكى يتطلع إلى حقائبه فوق سطح السيارة، للتأكد من أنها مثبتة بشكل جيد.

عبرت السيارة طرقًا منحدرة وضحلة وأخرى تمتلئ بالكتل الحجرية البارزة وأعمال الحفر التى

تتسبب فى اهتزاز واضطراب حركة السيارة على نحو جعل كل جزء فى جسد بيجو يهتز، من الكبد وحتى دمائه التى تكاد تجف فى عروقه، من هول الرحلة وأخطارها، ومن الموت الذى بات قريبًا منه.

كان بيجو يقبض بقوة على الهيكل المعدنى للسيارة التى كانت تتراقص على حافة قمة تل، وكان هناك فى فضاء المكان ما لا يعد ولا يحصى من أنواع الفراشات، التى اختفت سريعًا عند هطول المطر، وعند توقف المطر عادت الفراشات من جديد، وعلى طول الطريق لم تتوقف أصوات نداءات الضفادع المفعمة بالحيوية.

كان هناك أكثر من عشرة انهيارات صخرية على أقل تقدير فى الطريق الواصل بين "سيليجورى" و"كاليمبونج"، وبينما كانوا فى سياراتهم المتوقفة فى انتظار ما يسفر عنه انهيار الصخور، حتى يتابعوا رحلتهم، كان يتقاطر عليهم الباعة الذين يحملون فى سلالهم جوز الهند على شكل شرائح مثلثة. فى هذا المكان يعيش والده، الذى كان يأتى إليه لزيارته، ولرسم خطط إرساله إلى أمريكا، حيث كان "بيجو" فى براءة يفعل كل ما يطلبه منه والده الذى كانت تنطلق أقواله وآراؤه من براءة تجهل أكثر مما تعلم عن العالم وتعقيداته.

هل كان فى مقدور والده أن يعلم؟ هذا الطريق الذى يتطلب مغادرة العائلة من أجل العمل، حكم على

أجيال عدة أن يقيموا فى مكان، فى الوقت الذى تقيم قلوبهم فى أماكن أخرى، وفى الوقت الذى تفكر فيه عقولهم فى أناس فى أماكن أخرى، ومن ثم لا يكون فى مقدورهم أبدًا أن تتواجد قلوبهم وعقولهم فى نفس المكان الذى يحملون تاريخه وذكرياته على أعناقهم.

## - ٥١ -

البحث والانتظار أصابا القاضى بالإجهاد، وغلبه النوم، وجاءته "مات" فى الحلم وهى تحتضر، وللحظة استعادت وعيها وكفت عن الهذيان، ونظرت إليه نظرة حميمة، واستجمعت بجهد خارق شيئًا من حيويتها، ثم خارت قواها تمامًا، واختفى البريق من عينيها.

"مات".. مال القاضى بجسده فى اتجاهها بحثًا عن ذلك الوميض فى عينيها، لكن الطباخ فى أحد مشاهد حلم القاضى، قال: "لا، إنها ميتة، انظر". "لا تلمسها! وإلا سأقتلك".. صرخ القاضى بصوت عال أيقظه من غفوته، وهو مقتنع بمنطق حلمه.

فى اليوم التالى، عندما عاد من عملية بحث أخرى بلا جدوى، صرخ بصوت عال فى وجه الطباخ مكررًا كلماته: سأقتلك، إنها غلطتك، كنت المسئول عن ملاحظتها عندما ذهبت لأخذ حمامى.

كان الطباخ مغرمًا بالكلبة "مات"، وكثيرًا ما يصطحبها فى جولات سيرًا على الأقدام، ويعد لها

شرائح الخبز والبيض فى الإفطار. كما عاش القاضى والطباخ معًا سنوات أكثر من الوقت الذى عاش فيها أى منهما مع أى إنسان آخر.

لكن مر وقت طويل على اختفاء "مات" التى ربما تكون ميتة الآن، إذا لدغها ثعبان، أو إذا أضربت عن الطعام حتى الموت.

"ابحث عنها وهاتها إلىّ الآن".. قال الطباخ فى صوت أقرب إلى الاستجداء: "كيف يمكننى ذلك.. أنا مستمر فى البحث لا أزال". "هاتها إلىّ، إنها غلطتك، لقد كانت "مات" تحت رعايتك.. سأقتلك، انظر وسترى. لم تقم بواجبك، ولم ترعها جيدًا، وكانت النتيجة تعرضها للسرقة. كيف تجرؤ على ذلك؟".

تساءل الطباخ عما إذا كان قد أخطأ، وبدأ شعوره بالذنب يتزايد. هل كان مهملاً بالفعل؟ هل فشل فى مهمته؟ ربما لم يكن يعتنى بها بقدر كاف. ربما كان يجب عليه أن يراقب الكلبة فى اليوم الذى اختفت فيه.

بدأ الطباخ البكاء والنشيج دون أن ينظر إلى أى شخص، ثم اختفى داخل الغابة، وبدأت "ساى" سيرها على الأقدام داخل ممرات الجبل صعودًا وهبوطًا وهى تصيح داخل الأشجار منادية على الطباخ: "تعالى إلى المنزل، فالقاضى لا يعنى ما قال، فحالة الحزن الشديدة التى يمر بها قد أصابته بمس من الجنون".

كان القاضى يحتسى الشراب فى الشرفة محدثًا نفسه بأنه غير نادم على صياحه فى وجه الطباخ،

فلديه المبرر القوى لتهديده له بالقتل، و"ساى" أثناء سيرها تصيح منادية الطباخ: "أين أنت؟"، والعم "بوتى" يسأل: "هل عثرتم عليها؟"، وتجيب "ساى": "لا، وهاهو الطباخ قد ذهب أيضًا"، فيقول ليطمئنها: "سيعود". لم يسمع الطباخ نداءات "ساى"، فقد قادته قدماه إلى كانتين "ثابا" المزدحم بالرجال ينفقون ما تبقى معهم من مال فى احتساء الشراب.

أخبرهم بما حدث، الأمر الذى جعلهم ينفجرون فى الضحك، فلا بأس، قليل من الهزل ضرورى فى مثل هذه الأيام المروعة. ساد جو من المرح والقصف، جعلهم غير قادرين على التوقف عن الضحك، فهذا كلب يموت! فى مكان وزمان يموت فيه الناس دون أدنى اهتمام من أحد، بسبب التهاب الكبد، والسل، والجذام، والحمى.... والبطالة، ولا شىء يسد الرمق. كل هذا الهياج، وهذه الجنازة الحارة، والميت كلب!... ها، ها، ها، ها.

"هذا شىء يدعو إلى الضحك".. قال الطباخ، ومع ذلك ضحك قليلاً، لكنه عاد إلى ما كان عليه وقد استشعر الذنب، وراح يبكى كالأطفال. لقد أهمل فى مقتضيات واجبه الوظيفى، ولم يعتن بمراقبة "مات" جيدًا.

فى ركن من كانتين "ثابا"، كان "جيان" صامتًا لا يشارك الآخرين ضحكهم، متذكرًا ذلك اليوم المروع الذى أخبر فيه الصبية عن بنادق القاضى، وما فعلت

به "ساى"، والشعور بالذنب الذى يتملكه، واعتراه دوار وغثيان، وعندما غادر الطباخ المكان، خرج فى آثره.

"لم آت إلى "تشوأويو" بسبب هذه القلاقل.. كيف حال "ساى"؟".. قال "جيان" مغمغمًا. "إنها قلقة جدًا على مصير "مات"، وتبكى طوال الوقت". "قل لها سأبحث عن "مات"، وسأجدها وسأحضرها إلى المنزل.. أنا أعدها بذلك".. قال "جيان" فى صوت يحمل قناعة راسخة بقدرته على العثور عليها وإعادتها.

نظر إليه الطباخ بشك، فلم يكن يثق بقدرات "جيان"، كذلك "ساى" نفسها كانت قد أخبرته بأن معلمها لم يكن بارعًا. لكن مرة ثانية، هز "جيان" رأسه بثقة من آل على نفسه أن هدية قيمة ستكون من نصيب "ساى" عندما يراها المرة المقبلة.

- ٥٢ -

منذ وقت طويل لم ير "بيجو" كل ذلك الفضاء الفسيح المتسع، والتلال والجبال والسفوح والهضاب والوديان والغابات، والأخضر فى الحقول، ولم يستمع إلى النداء المتبادل بين ذكور الضفادع وإناثها، الذى يتردد فى البرية بطيورها وحيواناتها وزواحفها. لكن الطريق الذى تسلكه السيارة الجيب بكل ما فيه من وعورة وخطورة كان يبعث الضجر فى نفس "بيجو"، الذى سريعًا ما يجد الصبر والسلوى فى النظر إلى عظمة الطبيعة. سأل "بيجو": "متى سنصل إلى "كاليمبونج"؟". أجابه أحدهم: هدئ من روعك". لم تبد ملامح وجوههم أية إشارات تدل على القلق، بالرغم من أن الشمس كانت تسقط سريعًا فى اتجاه خط الأفق إلى الغرب، وبدأت تنخفض درجة حرارة الجو الرطب مع حلول الظلام على الغابة. وفى ساعة مساء متأخرة، توقفت السيارة أمام بضعة أكواخ صغيرة بمحاذاة بركة مياه موحلة، ونزل الرجال وأنزلوا

أغراضهم منها بما فيها حقائب وصناديق "بيجو".
"يمكنك السير إلى "كاليمبونج".. أخبروه بذلك، وأشاروا إلى طريق تحفه الأشجار من الجانبين.. "طريق مختصر".

اعترته الحيرة: "كيف يمكننى السير بحقائبى وصناديقى؟". قالوا ضاحكين: "اتركهم هنا فى أمان.. وسنرسلهم إليك لاحقًا". "لا".. قال "بيجو" وقد تملكه الرعب عندما جالت بخاطره فكرة أن يتعرض للسطو والسرقة. "اذهب".. أشاروا له على الطريق الذى يسلكه.

وقف مكانه بلا حراك. بدأ يتسلل إلى سمعه صوت نقيق الضفادع الذى استمع إليه أثناء حديثه الهاتفى مع والده من هاتف بأحد شوارع نيويورك. "اذهب الآن".. قال أحدهم وهو يشير ببندقيته إلى الطريق.. "لكن أعطنا حافظة نقودك، واخلع حذاءك قبل أن تغادر". قال آخر: "هذه الملابس الأنيقة التى حصلت عليها من أمريكا، إنها عالية الجودة". سلمهم "بيجو" حافظة نقوده "نسيت أن تخلع حذاءك". خلع بيجو الحذاء الذى يخفى داخل نعله مدخراته. "الجاكت". ثم رغبوا فى القميص الـ"تى شيرت" وفى البنطلون.

ارتبك واعترته رجفة وهو يقف عاريًا إلا من ملابسه الداخلية البيضاء. فى ذلك الوقت بدأت تتجمع كل كلاب المنطقة وتطلق نباحها. كانت الكلاب

ذات الجلود المتقرحة من العراك والأمراض، والخارجة على القانون، مثلها مثل أصحابها، قد تحلقت حول "بيجو"، رافعة ذيولها إلى أعلى كالأعلام، وراحت تنبح وتدمدم فى شراسة. دعونى أذهب" قال "بيجو" متوسلاً.

انفجر أحد الرجال ضاحكًا، وقام بجذب ثوب فضفاض يلبس عند النوم من فوق سياج من الشجيرات، وأعطاه لـ"بيجو" رغم اعترض صاحبته العجوز، قائلاً: "سنشترى لك غيره، فكيف يمكنه الذهاب ورؤية عائلته عاريًا هكذا.. إنه قادم من أمريكا". ضحكوا جميعًا، وانطلق "بيجو" مهرولاً لا يلوى على شىء فى اتجاه الغابة بثوبه ذى اللونين الأخضر والبنفسجى والكلاب تطارده، حتى بدت وكأنها مشاركة فى وضع هذا المشهد الكوميدى موضع التنفيذ. وعند نقطة معينة توقفت الكلاب عن مطاردة "بيجو"، وكأنها أرادت ألا تتجاوز نطاق سيطرتها، وعادت إلى النقطة التى بدأت منها.

بحلول الظلام جلس وسط الطريق تمامًا، بدون حقائبه ومدخراته، والأكثر من كل ذلك، بدون كبريائه، فهو الآن، عائد من أمريكا خالى الوفاض تمامًا، لا يحمل معه حتى القليل الذى كان فى حوزته عند السفر. ارتدى لباس النوم الفضفاض المنتفخ الكمام، وبه كشكشات عند العنق، وعليه رسومات أزهار بنفسجية حال لونها.

لماذا كان سفره؟ لماذا كان سفره؟ لقد كان أحمقًا. تذكر قول هاريش هارى: "اذهب وخذ قسطًا من الراحة، ثم عد"، وقول مستر "كاكار" مدير وكالة السفر محذرًا: "يا صديقى، أقول لك إنك الآن ترتكب غلطة كبيرة". وتذكر "سعيد سعيد": "فى غضون أربع سنوات سأحصل على البطاقة الخضراء، عندئذ أطلق من تزوجتها بغرض الحصول على أوراق الإقامة فى أمريكا، ثم أتزوج زواجًا حقيقيًا من شقيقة "لطفى" التى جاءت لزيارته من "زنجبار"، وسنشترى منزلاً فى نيوجيرسى، والآن تقدمت للحصول على دورة تدريبية على صيانة الطائرات".

وحده فى الغابة، جلس يفكر وقد تملكه الرعب من نتيجة رحلته الأمريكية، ومن الرجال الذين من المنتظر أن يعاودوا مطاردتهم له. لم يكن فى مقدوره التوقف عن التفكير فى محصلة رحلة المكسب والخسارة، وفى مدخراته المخبأة أسفل نعل حذائه الذى تخلى عنه لهم، وفجأة شعر بارتجاف فى ركبته أشبه بما حدث له فى نيويورك، على إثر انزلاقه على أرضية مطعم "هاريش هارى".

- ٥٣ -

في وقت متاخر من الليل، وصوت نقيق الضفادع في حقل السيانخ وبالقرب من صهاريج المياه، شق الطباخ طريقه في اتجاه "تشوأويو"، وطرق على باب القاضي. "من بالباب؟".. سأل القاضي. فتح الطباخ الباب والإرهاق باديًا عليه، وعيناه مبللتان، بعد احتسائه الشراب في كانتين "ثابا". "إذا لم أكن مطيعًا لك".. قال ذلك في ألفاظ متثاقلة غير واضحة، ثم راح يقترب من القاضي المستلقي في سريره، وأكمل عبارته: "فهيا اضربني". "ماذا؟".. قال القاضي وقد رفع نصف جسده الأعلى، وأضاء المصباح، وبدت آثار احتساء شراب الويسكي عليه، وكرر: "ماذا؟". انخرط الطباخ في البكاء: "أنا رجل سيئ.. أنا رجل سيئ.. اضربني.. عاقبني".

كيف يجرؤ.. يتسبب في فقد "مات".. كيف يجرؤ.. حتى الآن لم يعثر عليها.. كيف يجرؤ.. يأتي.

إلى هنا ثانية ويزعج القاضى. صرخ القاضى فى صوت كالهدير: "ماذا تقول؟". "اضربنى". قال القاضى: "إذا كان هذا سيريحك، حسنًا". "أنا رجل سيىء، رجل ضعيف.. من الأفضل لى أن أموت".

نهض القاضى من السرير، بعد أن شعر بضرورة ألا يظل ساكنًا وأن يتحرك، وإلا سيسقط، وأمسك بخُفه، وراح يضرب به رأس الطباخ، ويقول: "إذا كان هذا ما تريد!". عندئذ سقط الطباخ على الأرض باكيًا، طالبًا المغفرة: "أنا رجل سيىء، اغفر لى، سامحنى". قال القاضى: "انصرف واتركنى". لم ينصرف الطباخ أو يتركه، وواصل البكاء ولعابه يسيل من فمه، وسائل لزج يخرج من أنفه، وعيناه غارقة فى الدموع.

بدأ القاضى يضربه ضربًا أكثر شدة لكى يرغمه على المغادرة، ووجه له عدة ركلات. واصل الطباخ كلامه وبكاءه: "أنا أحتسى الشراب.. أنا رجل سيىء.. اضربنى.. اضربنى.. كنت أتناول نفس الأرز الذى تتناوله. أرز "دهرادن" وليس الأرز الذى يتناوله الخدم.. سرقت صناديق الشراب من الجيش.. وكنت أخدعك فى حساب نفقات المنزل كل يوم.. وفى بعض الأحيان كنت أركل "مات"، ولا أجعلها تتجول بحريتها، بل تجلس على جانب الطريق، بينما أنا أقوم بالاستلقاء والتدخين، لم أعتن بأى أحد سوى نفسى.. اضربنى".

أمر عادى أن يستشيط القاضى غضبًا وحنقًا: "أنت حثالة، أنت منافق، إذا كنت تريد العقاب فأنا سوف أمنحك إياه!". انخرط الطباخ فى العويل: "نعم، لك الحق فى ذلك، ومن واجبك أن تعاقبنى على ما اقترفت".

أتت "ساى" مندفعة من حجرتها، بعد سماعها أصوات مكتومة لضربات وسقطات على الأرض: "ما الذى يجرى؟.. أوقف الضرب فى الحال.. أوقفه". وصرخت بصوت عال: "أوقف الضرب". قال الطباخ: "دعيه.. يريد قتلى.. دعيه يقتلنى.. لا أهمية لحياتى.. إنها لا شىء.. ومن الأفضل أن أموت.. حياتى بلا فائدة لأى شخص.. إنها بلا فائدة لكم ولى.. اقتلنى، ربما يريحك قتلى.. استمر فى ضربى". "سأقتلك، سأقتلك". "اقتلنى". "سأقتلك".

لم يذكر الطباخ ابنه الذى كان كل أمله أن يكتب له.. القاضى يضرب بكل ما أوتى من قوة عضلاته الواهنة وجسده المتهدل، فاقدًا السيطرة على عضلات ذقنه وفمه الذى يسيل منه اللعاب، وذراعه الذى كان يخذله أحيانًا.

"هذا شىء لا يعقل، يحدث هنا".. انفجرت "ساى" فى البكاء وغطت أذنيها وعينيها: "أتعلمان ذلك؟.. ألا تستطيعان إخبارى؟.. ما يحدث هنا أمر لا يقبله عقل". لكنهما لم يتوقفا واستمرا فيما هما فيه.

هرولت إلى الخارج، ووقفت فى الظلام مرتدية ثوب نومها الأبيض، تفكر فيما حل بقلبها الصغير وفى

شعورها بالاشمئزاز من عويل الطباخ، وفى كراهيتها للقاضى، وفى حزنها وحبها الفاشل. لكن الأصوات المكتومة للضرب، وأصوات البكاء بالداخل تسللت إلى أذنيها فى وقفتها بالخارج، وتساءلت: هل يمكن أن يكون كل هذا من أجل "مات"؟

و"مات"؟.. أين "مات"؟.. ربما تكون قد بيعت إلى عائلة عادية بقرية تقع خلف "كورسيونج"، وتتحرق شوقًا للتظاهر باقتنائها كلبة مثل عائلات الطبقة العليا، ودون أن يكون لديها أقل اهتمام بالكلبة "مات"، حتى أنهم قد يربطونها بحبل إلى شجرة، وقد يركلونها بأقدامهم.

فكرت "ساى" فى الأب "بووتى" الذى لم يعد أحد يفكر فيه الآن، وفى وقت يأتى فيه مرة ثانية رجال الحركة الوطنية لتحرير جورخا، وفى العم "بوتى" الذى قد يستيقظ فيه من نومه وسكره ليدرك أنه قام بوضع توقيعه على أوراق تقضى بانتقال ملكية أرضه وأرض الأب "بووتى" إلى ملاك جدد.

ومسز سن ستقوم بغزل جاكت للزعيم "راجيف غاندى" لن يرتديه أبدًا، والشقيقتان "لولا" و"نونى" سيقومان بزيارة لندن كل عامين ويعودان وفى حوزتهما مكعبات حساء "كنور" وملابس داخلية من محلات ماركس آند سبنسر الشهيرة، و"بيكسى" ستتزوج من رجل إنجليزى. و"جيان"، أين "جيان".. لم تعلم "ساى" ما إذا كان "جيان" قد افتقدها.

وهى واقفة فى الظلام خارج "تشوأويو"، بدأ المطر يهطل كعادته فى ليل شهر أغسطس، وانقطع التيار الكهربائى كالمعتاد مع هبوب العاصفة، وأشعلت البيوت أضواء الشموع، وارتفع صوت نقيق ملايين الضفادع، من "تيستا" فى الوادى، إلى "تشوأويو" على جانب التل، وإلى أعلى فى جبال "ديولو" و"سينجاليلا"، حتى غطت أصواتها على صوت ضرب القاضى للطباخ.

"ما سبب هذا؟" .. سألت "ساى" وقد أصبح عقلها غير قادر على التحدث إلى قلبها: "ماذا سوف يحدث لـ"تشواويو"؟". الطباخ سيعود إلى قريته، والقاضى سيعود إلى حجرته يجلس إلى رقعة الشطرنج، وفى الساعة الرابعة والنصف وبدون تفكير، سيفتح فمه ويقول كالمعتاد: "أحضر لى الشاى"، ودائمًا يكون إلى جوار الشاى شىء محلى أو مملح.

فى وقفتها تحت المطر الذى بلل ملابسها، فكرت فى والدها، وفى برنامج الفضاء، وفى أعداد مجلة ناشيونال جيوجرافيك والكتب التى قرأتها، وفى رحلة القاضى، وفى رحلة الطباخ، وفى رحلة "بيجو"، وفى الكون الكبير الذى لا يكف عن الدوران حول محوره. وعندئذ داخلها شعور بأن الحياة مستمرة ولا تتوقف، وبأن عليها أن تستعيد ذاتها وتعود إلى تشوأويو.

كانت الظلال القاتمة تغطى "تشوأويو"، ولم تعد "ساى" تسمع صوت الرجلين بداخله. القاضى ممدد

على السرير فى حالة إرهاق شديد، والطباخ محنى الظهر فى وقفته بالمطبخ، ووجهه مازال فى قبضة كابوس مروع. استدارت "ساى" وخطت خطوات فى اتجاه المنزل وهى تشعر بدوار سببه احتياجها الشديد للنوم.

نقطة صغيرة متحركة فى الفضاء الواسع لفتت نظر "ساى"، شاهدتها وسط السحاب الذى مازال يسقط ما يحمله من مطر على الوادى. توقفت لكى تمعن النظر، لكن النقطة اختفت داخل الأشجار، ثم ظهرت، ثم اختفت ثانية، وتحركت إلى منعطف فى طريق جبلى. النقطة كبرت بعض الشئ وتلونت باللونين الأصفر والبنفسجى. ربما هو "جيان"؟ راودها أمل فى رسالة منه يؤكد لها فيها حبه. ربما شخص ما عثر على "مات"، وستكون هنا حية وفى حالة طيبة؟.

كبر حجم النقطة حتى أصبحت تشير إلى هيئة امرأة تجر ساقيها جرًا فى طريقها إلى جهة أخرى. دخلت "ساى" المطبخ وقالت للطباخ الذى غطت وجهه آثار الضرب: "سأعد لك الشاى". عندئذ سمعا صوت جلبة صادرة من البوابة. ربما هى نفسها المرأة المتسولة، الذى ألقت الشرطة القبض على زوجها، قد جاءت مرة أخرى.

هو صوت أحد يحاول فتح البوابة إذن. "سأذهب".. قال الطباخ ثم نهض ببطء وأخذ يزيل الغبار عن ملابسه، وسار عبر منطقة أعشاب مبللة،

وعند البوابة وأثناء قيامه بفتح الرتاج الحديدى، حاول اختلاس النظر فوجد شخصًا مرتديًا لباس النوم.. "أبى!" .. همس الطباخ: "بيجو؟" .. وصرخ كالمجنون: "بيجو!".

تطلعت "ساى" إلى الخارج وشاهدت شخصين يثبان إلى بعضهما.. القمم الخمس لجبل "كانشينجونجا" أضاءت باللون الذهبى، الشىء الذى يعطى إحساسًا بجلاء الحقيقة ونصاعتها، وبأن كل ما يحتاج المرء أن يفعله هو أن يخرج إليها ويقبض عليها بقوة.

# صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو. رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهـان باموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تـذهـب طيـور المحـيط/ للـكـاتـب المـصـرى إبـراهـيم عـبـدالمجـيـد أدب رحلات - «جـائـزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين ـ عدد خاص ـ جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كويتسى ـ رواية ـ جائزة نوبل.

١٦ ـ طحـالب / للـكـاتـبـة الجـنـوب إفـريقـيـة مـارى واطسون ـ متالية قصصية / جائزة كين .

١٧ ـ شوشـا / للـكـاتب البـولـنـدى اسـحق بـاشـيـفـيس سنجر/ رواية / جائزة نوبل.

١٨ - شـارع مـيـجل/ للـكـاتـب هن تـريـنـداد/ ف. س. نابيول. رواية/ جائزة نوبل.

١٩ ـ الحيـاة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عـشر مسرحيـات مختـارة ـ للـكاتب الإنجليـزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخـر مـثـلى - للـكـاتـب الـبـرتـغـالى «جـوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلُّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢ـ مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كويتسى.. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. جائزة بلانيتا.

## يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ «بن يجوب العالم».. دوريس ليسنج.. «جائزة نوبل للآداب» ٢٠٠٧.

٢ ـ «ثورة الأرض».. جوزيه ساراماجو.. «جائزة نوبل للآداب ١٩٩٨.

٣ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا».. انجريد تويوا.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا» ٢٠٠٧.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

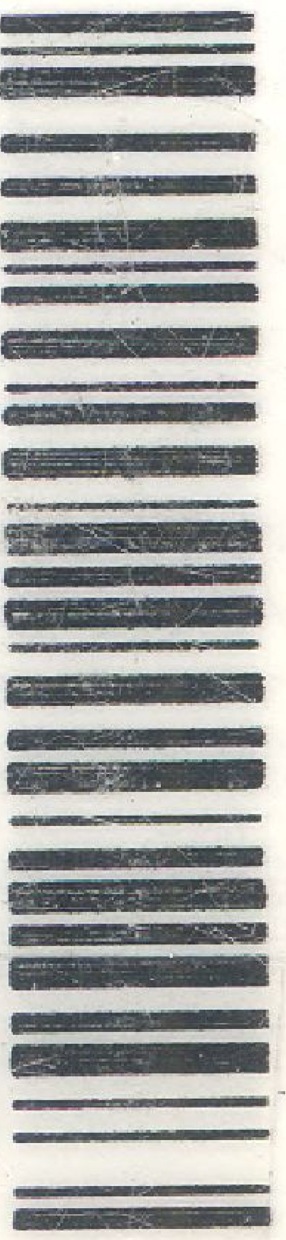
رواية

تدور أحداث "ميراث الخسارة" بين قرية صغيرة فقيرة فى الهند وبين نيويورك التى يتجلى فيها كل المنجز الحضارى الحديث، تروى حكاية قاض هندى يعود من نيويورك إلى بيته فى الهند لينعم بهدوء التقاعد وتحضر حفيدته لتعيش معه، وتنسج خيوط أولى لقصة حب بينها وبين ابن الطباخ الذى يعمل فى بيت جدها، ولكنه مثله مثل كثير من شباب العالم الثالث يسيطر عليه حلم العمل فى مطابخ مانهاتن الأمريكية، ومن ذل التحايل للحصول على فيزا لأرض الأحلام ومروراً بإهانات لا حصر لها وإزدراء من الهنود والأمريكيين على حد السواء وتشتت للهوية وحتى عودته حافياً مسلوبة حقائبه وعارياً إلا من خسارته يواجه أخيراً أباه الطباخ الذى يفتح له/ لحلمه الباب بوجه متورم من ضربات حذاء القاضى.

وكأن هذه الشعوب لا تحصد إلاّ الخسارة سواء إتجهت إلى عواصم الحضارة أو إنكفأت على ذاتها.

جاء فى وصف لجنة تحكيم جائزة البوكر البريطانية للرواية بأنها "رواية مذهلة تعكس إتساع العقل البشرى والحكمة ذات حس ساخر لا يخلو من رقة، ونقد سياسى لاذع".

الكاتبة: كيران ديساى، كاتبة هندية.
الجائزة: جائزة البوكر الدولية ٢٠٠٦.







ISBN# 9789774212146




الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠ جنيهات